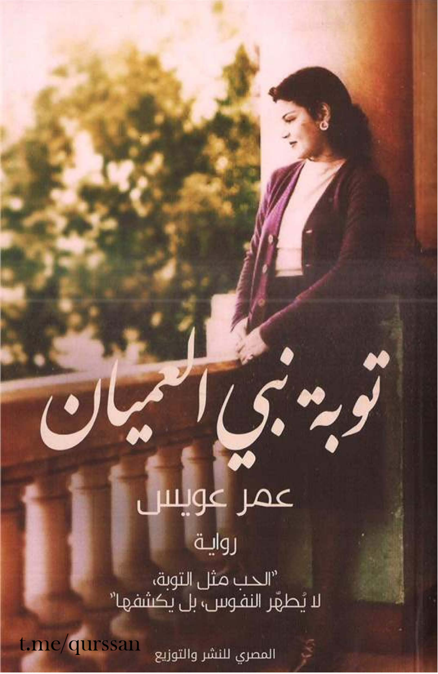
توبة نبي العميان
عمر عويس
رواية
"الحب مثل التوبة،
لا يُطهّر النفوس، بل يكشفها"
المصري للنشر والتوزيع

t.me/qurssan

t.me/qurssan

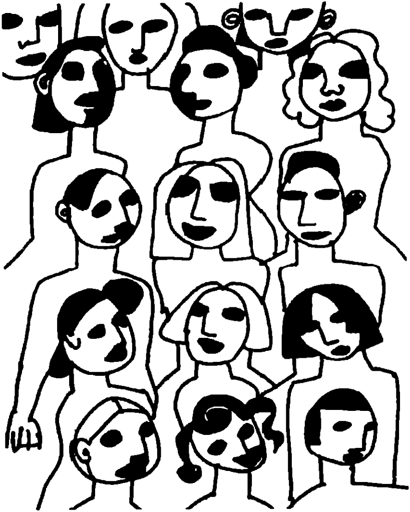

توبة نبي العميان

t.me/qurssan

t.me/qurssan

إهداء

إلى مَن علّماني فنون اللغتين الأهمّ، العربية والإنجليزية، فسهَّلا لي التواصل مع العالَم والكتابة عنه، الأستاذ محمد البيلي، والأستاذ هاشم المنير.

إلى الشقيقَين الكريمَين، عمر حسين وأحمد حسين، الأول لم يبخل برأيه الصائب وحماسه المستمرّ، والثاني لم يبخل بالأوراق الأرشيفية الخاصّة بالأحداث. لولاهما ما خرجَت الرواية بهذا الشكل.

إلى الأديب زهير زقطان، الذي يعصف بأفكاري دائمًا ـ دون جهد منه ـ فتأتي كلماته من الأردن إلى مصر نواة لما ستقرؤونه الآن.

وإلى النشيطة آية طنطاوي، التي دائمًا ما تكون هناك لتُنقِذني في اللحظات الأخيرة..

t.me/qurssan

نحن أولئك الأشخاص الذين دُفع بهم إلى المسرح دون إعطائهم دورًا محدَّدًا، وبلا مخطوطة في اليد، ودون مُلَقِّن يُلَقِّنهم بما عليهم أن يفعلوا، هكذا تُرِك لنا وحدَنا أن نختار كيف نعيش!

سارتر - فيلسوف فرنسي

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الأول
سيرة معوض السنيورا

قرَّر الإله ذات يوم صُنع الإنسان مستخدمًا قطعة جير، صنَع التمثال الأول ووضَعه في فرنٍ من الطين لينضج، غير أنّ الإله نسي ما وضع في الفرن، وما إنْ تذكَّر حتى عاد ليجد التمثال قد احترق وأصبح أسود، فكان أول إنسان أسود. ثم بدأ بصنع تمثال آخر، وخشيةَ أنْ يحترق، أخرَج التمثال قبل أوانه، فكان الإنسان الأبيض الأول. وفي المرة الثالثة نجح الإله في مراقبة التمثال وهو ينضج داخل الفرن، ليكون الإنسانَ ذا البشرة الخمرية، وهو الغجريّ الأول... (أسطورة).

***

t.me/qurssan

مدينة الزقازيق ـ ميدان الصاغة

مايو ١٩٧٢

الرابعة عصرًا

لم تختلف مدينة الزقازيق عن غيرها من مدن جمهورية مصر العربية في التأثر بنكسة ١٩٦٧، بعد وفاة جمال عبد الناصر تفشَّت حالة من الغضب بين طبقات الشعب، ثم حاول الجميع الالتفاف حول رأيٍ ما أو تصريح يلقيه رئيس الجمهورية ـ وقتها ـ أنور السادات، الذي مرّ عامانٌ على بداية ولايته، لكن ـ مع الأسف ـ لم تحدث الصحوة العسكرية المنتظرة، فتحوَّل الأمل إلى غضب ثم إلى غليان، وانتهى الحال إلى لامبالاة مستفزة لدرجة إلقاء النكات من جموع الشعب على أنفسهم.. إنها البلادة، ذلك المرض المزمن الذي يصيب الشعوب المنقطعة حبالها مع حكوماتها، فلا عجب أنّ شعبًا ذاق مرارة الحرب وطحنَتْه التقلّبات الاقتصادية، يُخرِج شبابُه نكبتَهم مثلًا في الفنّ الساقط والفلسفة الوجودية واللهْث وراء موضة الألوان الصاخبة، لكن ماذا عن أطفاله؟

في وسط الميدان، نرى طفلًا في التاسعة من عمره تقريبًا، يبدو من ملامح وجهه الشقاء، يسير بجوار سيدة في نهاية الثلاثينيات، تجمع ملامحه بين الشقاوة وعدم الاكتراث لكل ما يحدث من حوله، غير مُبالٍ بالمستقبل المظلم الذي ينتظره، لكنه ـ في ذات الوقت ـ يستمدّ قوته من أمّه ـ إنْ كانت كذلك ـ رغم الإرهاق

t.me/qurssan

الظاهر على وجهها.. السيدة كانت ترتدي زيًّا مختلفًا نوعًا ما عمّن حولها من المارّة، بسبب الألوان الصارخة والحليّ الغريبة، كانت تحمل قُفَّة كبيرة الحجم بيدها تجعلها مائلة قليلًا إلى اليمين، كان العَرَق يغمرها بسبب حرارة الجوّ والجهد الذي تبذله كي تُبقي جسدها مستقيمًا، كانت تبدِّل وضع القُفَةِ من يد لأخرى بمعدَّل مرَّة كل ثلاث دقائق تقريبًا، ثم تنظر بناحية الطفل دون كلام.

بعد مرورها بالميدان دخلت أحد الشوارع الرئيسية غير مبالية بمتابعة رفيق دربها. هي تعلم أنه لن يبتعد عنها مهما حدث، إن اصطدمَتْ بالرصيف فلن يتردد هو الآخر في احتضانه. يبدو أنها أُمُّه بالفعل.. بعد دقائق وفي منتصف الشارع تقريبًا شعرت أنّ طاقتها قد نفدت، جلست قليلًا وبجوارها الطفل، ثم نظرت ناحية محلّ للمشغولات الذهبية في الاتجاه المقابل، لم تكن على دراية بالقراءة أو الكتابة، لكنّ شكل الكلمات كان مألوفًا بالنسبة إليها.. «عبد ربه للجواهر».

قامت من مجلسها بعد دقائق وعبرت الشارع دون النظر يمينًا أو يسارًا مثلما يفعل الجميع، فأوشكت سيارة على الاصطدام بها، وسمعت سِباب قائدها، لكنها لم تُلقِ له بالًا. وصلت أخيرًا إلى المحل دون حدوث كارثة، ووقفت أمام الواجهة لتلقي نظرة سريعة على المعروض. قارنت بين رائحة عَرَقِها ورائحة المنظِّف الذي يفوح من الزجاج، فأدركت سريعًا أنّ الثراء لا يتعلق أبدًا ببذل الجهد، إنما بطبيعة العمل نفسه. إذا عدوتَ حاملًا الأوساخ على

جسدك لألف عام فلن يذهب بك القدر إلا إلى صناديق القمامة، أمّا إذا تاجرتَ بقطعة ذهبية واحدة فستغدو من الأعيان بعد سنة واحدة. هكذا قالت لنفسها، ثم أشارت إلى الطفل بالبقاء خارجًا واقتحمت المحل دون تردد.

ـ سلام عليكم.

ألقت السلام على الشاب الواقف خلف رفّ العرض الخشبي العريض، الذي يصل بنهايته إلى مكتب فخم من خشب الأبنوس، كان جالسًا خلفه رجل يرتدي حُلّة رسمية، ويبدو من هيئته أنه صاحب المحل. ألقت تحية صامتة عليه فلم يردّ، لكنه وجّه حديثه إلى الشاب الواقف قائلًا: راضِها يا حسن.

لم يتوانَ العامل الشابّ في تنفيذ الأمر، وقام بإخراج بعض القروش من جيبه وهَمّ بمنحها إياها، لكنها قالت بسرعة: جئت لبيع مصاغي.

قالتها ثم خلعت ما بيدها من مشغولات ذهبية بالكامل، ووضعتها على الرف الزجاجي، وسألته: كم تساوي؟

نظر حسن إلى صاحب المكان فأومأ إليه بالموافقة.. بعد فحص المشغولات قام بتجنيب قطعة واحدة فقط، ثم قال وهو يمسك بها: هذه هي القطعة الذهبية الوحيدة يا حاجّة، الباقي من النحاس. هل أزِنُها لكِ؟

ابتسمت في خجل رغم علمها بالأمر من البداية.

ـ ٤٠ صاعًا يا حاجّة.

أومأت برأسها واكتفت بعدم الاعتراض، ثم تهدَّج صوتها وهي تتمتم بكلمات غير واضحة، ووضعت القُفّة أرضًا كي تتمكن من مسح دموعها.

تناولت القروش ثم أشارت إلى الطفل في الخارج كي يدخل، ووضعت كفّها فوق رأسه في حنان ونظرت ناحية ربّ العمل واستأذنته قائلة: إنْ سمحتَ لي يا أفندي، سأكمل طريقي للسوق مع ولدي وسأترك قُفَتي هنا، لن أتأخر.

نظر إليها صاحب المكان من بعيد في تأثر، وصاح سريعًا في معاونة: ضعها عندك يا حسن.

ربتت السيدة على كتف الطفل استعدادًا للخروج والبدء في رحلة معاناة أخرى..

عمّ الصمت المكان لدقيقتين تقريبًا، بعد أن ترك المشهد أثرًا سلبيًا في نفس الرجلين، ثم قطع حسن حبل الصمت قائلًا في تأثر: الدنيا فيها كثير من البلايا يا حاجَ هارون، والله أعلم بما في الأيام القاد...

قاطعه ربّ العمل بلهجة العالِم ببواطن الأمور قائلًا: بل هي النكسة يا حسن. والأيام القادمة تبدو بلا نصر ولا أي خير. استرها يا رب.

t.me/qurssan

سرح الرجلان كل منهما في أفكاره، الخوف من المستقبل كان مسيطرًا على صاحب رأس المال، الكساد جعل من تجارته قشة في مهبّ الريح، كان واحدًا من الجيل المرتبك الذي نشأ مع الثورة وتمنى زوال المحسوبية والانتصار للكفاءة، ثم وجد أن رؤيته قد ارتبكت هي الأخرى بعد أن انجرف الحق ناحية اليسار كثيرًا، وصار حماة الوطن لا يعرفون قيمته. أما حسن فلم يفُت بذهنه كل ما سبق، الفكرة الوحيدة التي سيطرت عليه هي أن هارون أحمق بالطبع، لكن ما العمل؟ القاعدة الأولى لجميع العاملين بالمحلات التجارية هي: رأي المالك صحيح مهما بدا سخيفًا.

- عندك حق يا حاج.

قالها حسن وعلى وجهه ابتسامة امتنان. هكذا عادت ثقة الحاج إليه وشعر بالراحة والإقبال على الحياة مرة أخرى.

بعد نصف ساعة، استأذن حسن لتناول الغداء على أن يعود في السابعة مساء، ومِن ثَمّ يذهب الحاج هارون إلى بيته.

- لا تتأخر يا حسن.

أمر المالك مطاع مهما بدا مكررًا، القاعدة الثانية.

- أكيد طبعًا يا حاج.

نصف ساعة مرَّت دون زبائن، أشعل ربّ العمل سيجارته وعاد لتصفُّح الجرائد مرة ثانية. من بعيد لمح بعض النسوة يقتربن من المحل ثم... ثم بدأت الإثارة. للوهلة الأولى لم يصدِّق الحاج

t.me/qurssan

هارون ما رآه، حتى عندما حكى ما حدث لضابط الشرطة ـ في ما بعد ـ شكّك الأخير في روايته. فجأة خرج طفل صغير من قُفّة السيدة، طفل لم يتعدَّ سبع سنوات، وفي لمح البصر قام بكسر زجاج الرف وخطف العديد من الغوايش والخواتم وسلسلتين ضخمتين، ثم وضعهم في جيبه بسرعة فائقة (تم حصر المسروقات بدقة بعد ذلك)، ثم رمى القُفّة في اتجاه الحاج الذي تحرّك بعد ثوانٍ محاولًا الخروج من خلف مكتبه الضخم وهو يقاوم وزنه الزائد، قائلًا في فزع: يا ابن الكلب.

لم تمرّ إلا ثوانٍ معدودة حتى كان الطفل يعدو خارجًا، وقبل أن يصل هارون إلى الباب ظهر الطفل الذي كان بصحبة السيدة أمامه لُيلقي كيسًا من الأتربة في وجه الرجل ثم يعدو بالاتجاه الآخر. أخذ الرجل يسبّ ويلعن وهو يسعل من أثر استنشاق الأتربة، ثم حاول العدوَ باتجاه أيٍّ منهما وهو ينظر يمينًا ويسارًا، فبدا مرتبكًا، حتى انتبه إليه المارّة لكنهم لم يفهموا ما حدث. كان يردد في هستيريا: يا خراب بيتك يا هارون، يا خراب بيتك.

التفّ حوله بعض من أصحاب المحلات المجاورة يسألونه عما حدث، وهو يهذي بكلمات لم يستطع أحدهم ربط بعضها ببعض جيدًا.

ـ السيدة، القُفّة، طفلان، ذهب كثير...

t.me/qurssan

بالطبع بحث الجميع عن أي إشارة لهؤلاء لكن دون فائدة، لا سيدة، لا أطفال. لم يكن يملك حتى وصفًا كافيًا لهم، مجرَّد سيدة بائسة ترتدي ثيابًا مزركشة، أما الأطفال فأغلبهم يشبه بعضهم بعضًا.

بعد أن هدأ الوضع قليلًا جاءت الشرطة وبدأت الفحص، وعاد حسن بعد تناول الغداء ليكتشف أنّ غيابه مُفجِع بالفعل، ويدرك القاعدة الأهمّ للعاملين بالمحالّ التجارية: مواساة المالك حتمية مهما بدت عديمة الجدوى.

في العادة تكون الشرطة متأخرة بخطوة عن المجرم، هذا طبيعي، لكن هذه المرة كانت أسرع قليلًا واستنتجت أنَ سيدة وطفلَيْن، ذكرَيْن تحديدًا، ركبوا مواصلة قصيرة على فترات زمنية قصيرة، ونزلوا منها أمام عزبة الغجر.

عزبة الغجر!!

صحيح أنّ الشرطة كانت تسير بالتوازي تقريبًا مع الفاعل، وحدّدت مكانهم، لكنها قررت التوقف فجأة.

- نصيحتي لك أن تتفاوض معهم؛ الغجر يسرقونك للتفاوض على إعادة المسروقات مقابل بعض المال وليس لبيعها. صدِّقني، المحاضر لن تنفعك بشيء.

- لن نقتحم عزبة الغجر أبدًا.

t.me/qurssan

هكذا أنهى رئيس المباحث حديثه مع هارون.

الولدان تقابلا بالفعل ـ كما ذكر الشهود ـ في موقف ميكروباصات القرى بالزقازيق، ثم جلسا متجاورَيْن في ترابط واضح. هما شقيقان، الأكبر يُدعى السيِّد، والأصغر محمد، وهو من قام بالسرقة وتكسير زجاج المحلّ.. كانت تلك هي بطولته الأولى بعد أن كان شقيقه الأكبر هو البطل الأوحد.

أما السيدة فقد سبقت طفلَيْها إلى عزبة الغجر، وجلست أمام عتبة دارها وقت الغروب تعبث في الأرض الترابية في لامبالاة. كانت تبدو متوترة قليلًا، حاولت مدارة توترها فهتفت بطفلة تلعب أمامها الحجلة: يا توبة، أحضري لنا بقرشٍ بسبوسة.

أعطتها النقود ففرحت الصغيرة وانطلقت ممسكة النقود بيدها في قوة، حتى وصلت إلى ناصية الحارة الضيقة فوجدت رجلًا يضع أمامه صاجًا من الحلوى كبير الحجم، فزادت فرحتها أكثر. هذا الرجل ينهي عمله بعد العصر مباشرة، ولا تجده ثانية إلا في نهار اليوم التالي مهما كانت المناسبة. اقتربت أكثر، لم يكن عمّ غريب هو الجالس، لن تتوه عنه أبدًا، يشبهه كثيرًا في الملبس والجلسة، لكن ليس هو. لا يهمّ، المهمّ أنّ الحلوى موجودة. نظرت إليه في البداية نظرة فضولية بمعنى «أين عمّ غريب؟»، لكنه بادلها بنظرة متسائلة ولم ينطق.

ـ أريد بقرشٍ بسبوسةً وجلاشًا.

t.me/qurssan

تبدَّلت نظرته إلى سخرية ثم قال باللغة العربية الفصحى دون داعٍ: أقلّ سعر للحلوى قرشان، امشي من هنا.

فكرَت قليلًا في طريقة حديثة ثم غلبها الإحباط سريعًا وقالت في محاولة أخيرة: والنبي يا عمّ.

فهتف في حدّة: قلت لا.

قالها ثم قرر أن يُفرِغ مثانته في ذلك الوقت تحديدًا، فقام من مكانه وهو يقول: لا تمشي قبل أن أنتهي؛ اللصوص هنا بالجملة.

اقترب من جدار بعيد ثم نظر إلى السماء وهو يصفر، أما هي فشعرت أن صفيره يطرب قلبها، وأسعدها بعدما كانت غاضبة، لكنها سألت نفسها كيف يجعلها تحرس بضاعته بعد أن سخر من قدراتها المالية؟ لا بد من الانتقام إذًا.

أمسكت سكّين الحلوى العريض في أثناء غلق الرجل لزمام بنطاله، ودبّته أسفل قطع البسبوسة، فخرجت إليها شهية يعلوها العسل، أمسكتها باليد الأخرى ثم رمت السكّين، وفرّت هاربة في لمح البصر.

وصلت إلى السيدة وأنفاسها تتسارع، فوجدتها ترحِّب بالصغيرين.

ـ الرجالة جابت الشلية من غير ما يسعفهم الجوس.

هكذا استقبلتهما الأم بلهجتها الغجرية، وهو ما يعني بالعربية أن الرجال ـ تقصد طفلَيْها ـ قد عادا بعد السرقة دون أن يقبض عليهم رجال الشرطة.

t.me/qurssan

الأطفال أحباب الله.. هذه قاعدة لا خلاف عليها بالطبع، لكنْ هناك استثناء واحد فقط، من يخرجون من القُفَف ليقذفوا مفتاحًا إنجليزيًّا في وجهك أو يسرقوا منك البسبوسة بينما تُفرِغ مثانتك. لا داعيَ للخوف، فهؤلاء لن تقابلهم كل يوم، إلا لو كنت أحد سكان العزبة.. عزبة الغجر.

***

فقرة عن حياة الغجر في مصر.. تستطيع تخطّيها:

كلمة «غجر» كلمة هندية الأصل وليست عربية، وتشير إلى قوم رحّالة حفاة مشتّتين ومنتشرين في جميع قارّات العالم، وفي قامُوس اللغة العربية يوصف الغجري بالمتشدد أو المتسكع.

في مصر، لا أحد يعرف على وجه الدقة من أين جاؤوا أو متى دخلوها، الغجر هنا منعزلون ولا يخالطون الناس في الغالب، ربما لأنهم لا يستقرّون في مكان واحد لمدة طويلة، ترتبط شهرتهم في المقام الأول بالنساء، فالرجل يجلس في البيت بينما تعمل المرأة، ولا يهمّ في أي شيء تعمل، شحاذة، سرقة، ضرب ودَع، حتى في البغاء، المهم أن تأتي بمصروفات المعيشة. وإذا هبّ الرجل للعمل فغالبًا ما تكون مهنته ـحسبما يشاعـ السرقة والبلطجة وتجارة المخدّرات، وأخيرًا إحضار محامٍ حال القبض على زوجته.

ينقسم غجر مصر إلى ثلاث جماعات: الغجَر، الحلَب، النوَر.

t.me/qurssan

الغجَر هي جماعة تنتشر في الوجه القبلي والبحري على حدٍّ سواء، وتعتمد على التجوال المستمرّ، ويمتهنون إحياء الحفلات والتسوّل وبيع الكحل، ويعمل كثير من نسائهم مرضعات.

أمّا الحلَب فهُم أفقر الجماعات الثلاث، وينتشرون في الوجه القبلي في منازل من الطين، ويمارس أغلبهم حياة التجوال، مصطحبين معهم خيامهم التي ينصبونها على مشارف المدن خلال الأعياد والمناسبات الدينية، لممارسة الرقص بما يعرف بالغوازي، وكذا رسم الوشم، والسرقة أحيانًا، إذ يتسم أغلبهم بالبذاءة وقلّة الاحتشام، خصوصًا في ما يتعلق بطلب المال.

أما الجماعة الثالثة فهي النوَر، وتُعتبر أغنى الجماعات؛ كونهم لصوصًا محترفين، وينتشرون في الوجه البحري إذ لا تناسبهم مجتمعات الصعيد المغلقة، فتسرح نساؤهم من أول النهار وإلى ساعات متأخرة من الليل ليأتين بالغلَّة من نقود ومسروقات. أهمّ مراكز تجمّعهم: ضواحي مدينة الزقازيق، قرية طهواج بالدقهلية، كفر الدوّار بالبحيرة، وإمبابة وأبو قتادة بالجيزة.

ورغم انتماء الجماعات الثلاث إلى الجنس الغجري فإنّ نظرة كل جماعة نحو الأخرى تتسم بالاحتقار، فالحلَب والنوَر يحتقرون الغجَر لأنّ نساءَهم فاسدات ورجالهم ديُّوثون، وينظر النوَر والغجَر إلى الحلَب على أنهم فقراء متسوّلون، في حين يرى الحلَب والغجَر أنّ النوَر لصوص مطارَدون طَوال الوقت، أما الجماعات

t.me/qurssan

الثلاث فتتبلور نظرتهم إلى الآخرين من غير الغجر على أنهم أغبياء ومغفلون. وتعني مفردة «فلّاح» لديهم كل من ليس غجريًا.

يتكلّم الغجر لغة خاصة بهم تسمى «الرطان»، وهي مزيج من العربية والإيرانية والهندية، لكن أغلب الوقت يتكلمون لغة أهل المنطقة التي يعيشون فيها، ولا تظهر لغتهم الخاصة إلا في ما بينهم وعند الهروب من موقف ما، ومثل كل الغجر في العالم فإنّ غجر مصر اعتنقوا ـ ظاهريًا ـ الدين الموجود بالدولة وهو الإسلام، لكن إقامة شعائره والعمل به لا يمكن الجزم به بسبب رفضهم الاختلاط وعدم التحدث مع الآخر إلا في أضيَق الحدود.

***

كان معوض الظني، الشهير بمعوض السنيورا، في مرحلة المراهقة يبدو كرجل في الأربعين من عمره، أول ما تميِّزه من شكله هو عيناه الحادّتان وطوله الفارع، كل هذا جعل منه رجلًا من يوم ميلاده، لم يكن يعلم هو نفسه أين وُلِد تحديدًا، يقال إنه من طهواج (قرية بجوار مركز السنبلاوين بالدقهلية)، ويقال إنه من حلَب الصعيد، والبعض رجّح أنّ والده من مؤسسي عزبة الغجر ومات وهو في سنّ صغيرة، المهم أنّ هناك حَدّادًا في ورشة صغيرة بعزبة الغجر تسلّمه مِن والده ولم يرَه معوض مرة أخرى. عِلْم الأنساب غير معترَف به هنا، معوض غجري، هيئته هيئة غجري، لن يكتشف أن والده كان من رعايا الإنجليز، واضطر إلى دهنه بالصبغة الحنطية الداكنة على أي حال، كل ما يذكره عن طفولته

هو ربابة وموالد وخيام في الأراضي الزراعية حول القرى، وطوافه في البلاد مع أهله الأوائل. أما عزبة الغجر فكانت تشبه ذلك في ما مضى، تحديدًا في الثلاثينيات والأربعينيات، أما بعد ثورة يوليو وما أعقبها من توزيع الأراضي الزراعية على الفلاحين، فقد صار كل رب أسرة صاحب طين، فأصبح الغجر منبوذين مرة أخرى وانتقلوا إلى ضواحي مدينة الزقازيق واستقروا هناك فترة طويلة.

معوض كان له أخ يكبره بعام واحد يدعى حمدان ويعيش في بلدة كوم السمن بالقليوبية، زاره مرتين أو ثلاثًا تقريبًا فوجد حاله تختلف عن حال الغجر. يعيش تحت مظلة تجارة السلاح مع امرأة شقية تدعى عبلة.. حياة مثيرة وصاخبة، لكنها قصيرة كما نعلم، ستنتهي قريبًا بعد أن تشي عبلة بأسراره لـ«الحكومة»، هكذا تنتهي قصص المجرمين غالبًا.. أخبره حمدان أن عبلة زوجته غجرية، وأن الله لم يرزقهما الذرّية. لكن معوض خمّن أنها عشيقته؛ الزوجة التي لا يظهر عليها ولو مسحة حزن لعدم الإنجاب هي عشيقة جيّدة لكنها ليست زوجة بالتأكيد.

في فترة عنفوانِ شبابه، لم يزل معوض يشبه الرجال في الأربعين، صار لديه شارب ضخم وبالطو مصنوع من الجوخ الإنجليزي، بالإضافة إلى العصا القصيرة التي يمسك بها أغلب الوقت كأفراد الشرطة السرّيين. كان يعتبر نفسه نواة المجتمع الحديث لعزبة الغجر، إذ استأجر غرفة صغيرة على سطح أحد المنازل بالزقازيق بشارع الجناين، وأخذ يطوف بالمفاتيح والأقفال

التي يجيد تصليحها، وكذلك أداة سنّ السكاكين والمقصّات، ويعود في المساء ببعض القروش لا ينفق منها شيئًا. صحيح أنه لم يكن عابئًا باليوم التالي، لكن كان هناك حلم صغير يراوده ـ بعد أن عاش أعلى دورة المياه العمومية لفترة ليست بالقصيرة ـ وهو بناء أول منزل من الطوب الأحمر في العزبة.

لم يكن لمعوض ـ وقتها ـ أنيس أو جليس سوى شاب في نفس سنّه تقريبًا، اسمه هارون، يبيع المشغولات الفضية أمام موقف عربات اليد في النهار، يراه معوض فيتبادلان تحية الصباح وبعدها ينصرفان للعمل، ثم يتقابلان مرة ثانية لتبدأ الدردشة المسائية قبل ذهاب هارون إلى عمله الثاني بمحلّ «عبد ربه للجواهر» بمنطقة الصاغة، فرغم اختلاف حلمهما لكن شقاء البدايات كان واحدًا.. الغجري موهوب في قراءة الطالع وإلقاء النكات الجنسية وحكي الأساطير والعزف على الربابة، تقريبًا كان بمثابة تلفاز متنقّل أو فقرة ترفيه يومية لهارون، أمّا الأخير فكان حافزًا لمعوض كي لا يتملكه اليأس.

ذات يوم، بعدما تناولا طبقين من الكشري، اقترح معوض وهما يدخنان النارجيلة ويحتسيان الشاي، التخطيط لسرقة المحلّ الذي يعمل به هارون. الحاج عبد ربه يذهب لتناول الغداء تاركًا المحلّ بين يدي هارون لمدة أربع ساعات تقريبًا، هذه فرصة كافية للسرقة أو «ضربة المعلم» كما وصفها معوض، ثم ألحق خططته بطمأنة رفيقه قائلًا بصوته الأجش: أما الهروب حتى يهدأ الوضع

فلا تقلق منه، أنا غجريّ، ولا أحد يعرف أسرار الغجر إلى الآن، فما بالك بتخبئتك لدينا في عزبة؟

كانت تلك الجملة هي آخر ما قاله معوض لهارون بعد أن أهوى الأخير بكفه على وجه الأول فأصابته بفقدان مؤقت للسمع، لكنه استطاع قراءة شفتيه وهو يقول: أتريدني أن أعضّ اليد التي مُدّت إليّ يا خسيس؟! صحيح، ابن شوارع أنت يا نجس.

ثم تركه دون أن ينتظر ردّه ليكون اللقاء الأخير بينهما.

كرامة معوض يجب أن نتوقف عندها قليلًا، كانت بالطبع مفقودة أغلب الوقت، لكنها تظهر في صورة تساؤل عند معايرته بأصله. الغريب أنه في صميم أعماقه لم يكن لديه شعور بالدنوّ، وإنما بالتعجّب مما قاله هارون وأحيانًا غيره ممن يحاولون استفزازه بأصله.

كان يسأل نفسه: كيف يسخرون مني وهم فلاحون؟ هل يقصدون غياب والديّ أم يقصدون بها الغجر؟ أما عن اليُتم فقد سمع ذات مرة أن محمد رسول الله كان يتيمًا، وأما أصله الغجري فهو سلالة نقية لم يقترب منها أجنبي أو بدوي.. هكذا كان يتجاوز الإهانة بسرعة.

ظَلّ يرمق هارون وهو يتوارى عن نظره بخطوات سريعة حتى اختفى تمامًا ثم تمتم قائلًا في غيظ: فلاح.

t.me/qurssan

فكَّر بعدها في الانتقام لكنه لم يجرؤ؛ الانتقام يحتاج إلى وقت وجهد ومال، ولن يجني منه سوى الاختباء والعطلة عن العمل، هكذا تبخرت الفكرة سريعًا.

بعد عدة سنوات، سمع أن هارون ورث محل الصاغة بعد أن تزوج ابنة عبد ربه، أما هو فقد بنى غرفة وحيدة من الطوب الأحمر، صحيح أن الأرض طينية مفروشة بالحصير والسقف معشش بالخوص، لكن أصبح هناك -أخيرًا- سرير متهالك ليفرد عليه جسده الأكثر تهالُكًا منه. هناك كذلك قرد صغير يسرح به صبي من صبيان العزبة ويعود به آخر النهار، الدخل محتاج إلى أكثر من سكة لكي يزيد. أطلق اسمًا أنثويًا على القرد رغم أنه ذكر، في الليل ينام جامعًا حوله آلة السَّنّ وبعض آلات الموسيقى البدائية والقرد، ثم يفكر في الخطوة القادمة قبل أن ينام مرتاح البال.. الزواج.

الزواج بالنسبة إلى معوض كان تجرِبة متعدِّدة الفوائد، إنهاء لحالة الاستمناء اليومي، تقديم وجبة ساخنة له، والأهم من ذلك هو التباهي بما حققه بعد تعب اليوم الشاق. ما فائدة النجاح دون لمعة الفخر في عيون من حولك؟ نظرة الغيرة من الآخرين ترضي الجانب الشيطاني بداخلنا، لكن فخر الأحبّة بك هو غاية السعادة السوية، وما دام معوض يتيمًا فالزوجة أحق بتلك النظرة إذًا. هكذا بدأت رحلة معوض السنيورا في البحث عن شريكة الحياة، ورغم قوّته وشعبيته في عزبة الغجر فإنّ الغجريات يتزوجن في سنّ مبكرة للغاية. المهر غالٍ، والزواج الشائع في العزبة هو زواج الأقارب،

لكنه «مقطوع من الشجرة» كما يقال، كيف له الزواج بأنثى غير موجودة من الأساس؟ ثم إنَ مدّخراته بالكامل قد أوشكت على النفاد.

هُنا ظهرت عبلة، العشيقة الشقية لأخيه حمدان، ظهرت بشكل مفاجئ في العزبة وهي تبحث عنه، حتى وجدته واقفًا بجوار الغرزة..

قالت كاذبة: لقد قُبض على أخيك يا معوض في كوم السمن.

قال باستخفاف: كان ذلك متوقعًا.

ـ ألن تأتي بحقّه ممن وشوا به، أو على الأقل توكل له محاميًا؟

ـ لا؛ لديه المال وأنت تعرفين طريقه.

ـ لم يعُد هناك مال، ضاع كل شيء.

ـ هكذا النصيب.

ـ هل انعدمت بداخلك النخوة يا رجل؟!

ـ نعم، ثم إنك تكذبين.

قالها ونظر لها بتحدٍّ لثوانٍ، ثم انقلبت لسخرية أمام نظرات الدهشة بعينيها. بعد هنيهة قالت بانكسار: وإن يكن...

ثم عادت تنظر إليه مرة ثانية وسألته بعصبية: هل يرضيك أن يطلّقني أخوك بعد سنوات العِشرة؟

t.me/qurssan

فهوى على وجهها بصفعة قوية تاركًا أثر أصابعه على خدها، ثم قال: نحن لا نطلّق زوجاتنا أبدًا. لقد كنتِ رفيقته يا وسخة.

ثم أضاف قائلًا: إذا كذبتِ مرة أخرى فسأقطع رقبتك، فاهمة؟

أومأت برأسها في خوف مصطنَع، وأشاحت بوجهها لتداري بها ابتسامة جذلة تحارب للخروج من أعماقها بأيّ شكل وهي تقول: أُحِبُّك يا رجل، أردت فقط أن تأتي معي، وبعدها ليكن ما يكون.

غريبة أنت يا عبلة، قطعتِ عشرات الكيلومترات لرؤية معوض ومقارنته بأخيه، فكأنما قدّرت في نفسك أن الأشقاء متعتهم الجنسية مختلفة. فبعد أن هجرت حمدان، هدى عبلة تفكيرها السطحي إلى أن تغيظ خليلها بشقيقه، لكن في أثناء رحلتها غيّرت تلك الفكرة واستبدلت بها فكرة أكثر قبحًا، ستتزوج معوض وتنسى حمدان للأبد، ولِمَ لا؟ معوض الأصغر سنًّا والأقوى، والأهمّ أنه الأعنف كما فهمت من حمدان، يداه تسبقانه دائمًا، كما أن لسانه سليط معتاد على الشتائم البذيئة. لا شيء يداعب مشاعر عبلة أكثر من ذلك، كانت موقنة أن الرجل، أيّ رجل، يعشق خضوع النساء أمامه، والانتصار في المنافسات العاطفية حتى لو على حساب أخيه، أما الكيد فلن ينفعها بشيء، بل على العكس، سيُخيف معوض منها ويجبره على الابتعاد عنها كرامة لحمدان.

كانت غازية ثم عطف عليها حمدان حتى صارت خليلته، لكن الرجل ـرغم ذكائهـ لم يكن من هؤلاء الساديين الذين يضربون نساءهم في أوقات الفراغ دون داع.. غريبة أنت يا عبلة، كيف يبحث الإنسان عمن يعامله بقسوة وينفر من الحب اللطيف؟ رغم أعمال حمدان الإجرامية فإنه كان يجلس كالأطفال أمامها منتظرًا ضحكة أو تشجيعًا، بل والأغرب أنها أبت الزواج به عندما عرض واكتفت بزيارته ليلًا بشكل يوميّ مقابل المال. ربما كان عدم الإنجاب هو ما كسر حمدان أمامها تمامًا، أما الضربة القاضية فجاءت بعد عراك سريع مع الشرطة، وأصيب حمدان بشظية في خصيتيه، هكذا كشرت عن أنيابها، وقالت بالفم الملآن: لم يعُد لي عيش معك يا حمدان.

حاول استعطافها فقال في توسل: سنتزوج يا عبلة، وسأكتب لك كل ما أملك.

أصدرت صوتًا غير لائق من حلقها مع بعض الكلمات الخارجة، قائلة في حدة: زواج؟! صحيح، «لا ترقّع في الدايب ولا تعتب على العايب»، وهل تستطيع يا معلم حمدان؟ أم يودع سره في أضعف خلقه؟

نظر إليها في غضب وهمّ بالقيام من رقدته لكنْ عجزت قواه، فبدأ سيل الشتائم والمعايرة، أمّا هي فاكتفت بالابتسام في سخرية، وجمعت ما استطاعت حمله ومِن ثَمّ رحلت بلا رجعة مع أمثالها الشعبية.

t.me/qurssan

هكذا وجدت في معوض طموحها الجنسي ـ إن صح التعبير ـ وحاولت أن تستثمر الرجل على مهل.

العَلاقة بين معوض وعبلة كانت مثيرة في البداية، كانا يحملان الذكورة في أسوأ صورها والأنوثة في أغرب صورها، الأمر يشبه تناولك لحلوى رخيصة ملأى بالسكر، أو فلافل شبعت من رشّ الملح عليها. الرجولة لا تحتاج إلى عنف لإثباتها وإلا تحوّلت إلى وحشية، والأنوثة لا تحتاج إلى كل هذه الوحشية كي تنفجر وإلا تحولت إلى مرض نفسيّ، السادية والمازوخية أمراض تصيب الأفراد وتحتل تفكيرهم، لكنها أمراض جنسية في النهاية، ما إن تخرج عن نطاق غرف النوم فإنها تصبح كالجذام، يجعلك تنفر من نفسك قبل أن ينفر منك شريكك.

أنجبت عبلة من معوض ذكرين، الأكبر ـ كما عرفنا ـ هو السيد، الذي منحه والده لقب العائلة كشهرة له. صحيح أن معوض لم يرَ والده ولا يذكر شيئًا مفيدًا بشأنه، إلا أنه رفع رأسه إلى السماء في شرود مصطنع عندما سألته الداية عن اسم المولود، ثم بصق مرتين ليعطي الأمر أهمية، وقال في جدية وبلا داعٍ: السيد؛ على اسم والدي، الله يرحمه.

شعر بمدى افتعاله فأضاف محاولًا تحسين صورته: أو الله يحرقه لو كان حيًّا.

t.me/qurssan

ابتسمت الداية وشعرت أن مزاجه يسمح بالمزاح فأعقبت سؤالها بآخر وهي تضحك: لماذا سمّوك السنيورا؟ هل صحيح أن والدتك كانت غازية من سنباط؟

ظهرت آثار الغضب على وجهه وتغيرت ملامحه من الانبساط إلى الضيق، وهتف في حدّة: وانت مال أهلك؟

هربت من أمامه مسرعة لتكمل عملها، أما هو فسرح دقائق في ما قالته الداية، سأل نفسه: هل كانت والدتي غازية حقًا؟ وليكن، ما الضرر من ذلك؟

لا أحد يعلم أين هي، ولا توجد صلة بينهما الآن، لكن لقبها يطارده طَوال الوقت.

فكَر في مقاطعة كل من يناديه بهذا اللقب، لكنه طرد الفكرة سريعًا؛ هناك من لا يقدر على مهاجمتهم، إما بسبب قوّتهم البدنية وإما لكِبر سنّهم، ثم إن مهاجمته للجميع ستجعله أضحوكة، بل حديث الساعة في تلك العزبة الفقيرة.

بعد عامين أنجبت عبلة الابن الأصغر ويدعى محمد، كان الصغير يغضب بشدة عندما تتركه الأم وتخرج للسرقة بمعاونة ولدها البكري، وعندما يعودان إليه آخر النهار يجدان أن الحنق قد عصف بأوردته، وهكذا أطلقت عليه عبلة لقب «الغضبان».

***

t.me/qurssan

بعد أن ضاقت الحال على أسرة معوض، خصوصًا بعد إنجاب الظني والغضبان، حاولت عبلة كثيرًا تشجيع زوجها على العمل بانتظام، إذ استسلم معوض لفكرة أن تصبح شريكته العائل الوحيد للأسرة، أما هي فلم ترضَ بالوضع، وبّخته فنالت عقابها ضربًا، أهانته فنالت عقابها صفعًا، حرمته من مالها فنالت عقابها طردًا من المنزل، بعدها استسلمت هي الأخرى للفكرة، ويومًا بعد يوم لم تعُد بحاجة سوى إلى العقاب الجنسي، لكن معوض لم يكن بهذا السوء، أراد أن يثبت لها قدرته على كسب المال دون مساعدتها وفي نفس الوقت دون بذل مجهود شاقّ كالسابق.

المرة الوحيدة التي قرر فيها معوض الخروج عن المألوف ومساعدة زوجته عبلة وجد نفسه متورطًا في جريمة قتل لطفلة في الرابعة من عمرها، استدرجها من القرية المجاورة حتى أطراف العزبة ثم نزع قرطها الذهبي الصغير، لم يكن في نيته القتل أبدًا، لكنها صرخت حتى تحوّل وجهها إلى لسان مزمار يهتز، كتم فمها بقبضته القوية فهدأت، أرخى يده قليلًا فعادت للصراخ من جديد. هذه مشكلة الأطفال الموشكين على الموت خنقًا، ما إن تُترك لهم فرصة للنجاة حتى يفضحوك سريعًا. لم تكن أمامه فرصة الاختيار، تعامل معها مثلما يتعامل مع عبلة في الفراش، أعاد قبضته مرة أخرى على فمها الصغير بقوة أكثر لعدة دقائق، فشحب وجهها حتى أسلمت روحها لبارئها. حفر حفرة ثم أخفى الجثة بداخلها وانصرف في هدوء شديد و... انتهى الأمر.

المعتاد في هذه الجرائم غالبًا أن يُكتشف أمرها لسببين: إما ثورة الأهل لحقّ طفلة، والضغط المستمرّ لإعادة الغائب أو اكتشاف جثته، وإما أن تُكتشف صدفة من قِبل أحد الأهالي أو الكلاب الضالة. في حالتنا انتشر خبر غياب الطفلة في قريتها وعزبة الغجر بالطبع لكن دون تحرك من الأهالي، حرر والداها محضرًا بالغياب دون نية متابعته، كأنّ بينهما اتفاقًا غير معلن بالصمت. هناك ثلاث وجبات يومية ورداء سنوي خففت عن كاهلهما، هذا بالإضافة إلى تكاليف زواج لا نفع منه غير حرب مستقبلية مع أهل الزوج. هذا الفكر متوارث منذ قرون ولا أحد يجهر به خوفًا من زوال نعمة الإنجاب، لكن إن قُتلت البنت بشكل غامض فهذا قدر محبَّب إلى النفس.

لم يكتشف أحدهم الجثة، أما عن الكلاب الضالة فيبدو أن بلادنا الفقيرة بعد النكسة قد أصاب كلابها الهزال مثل ناسها، هكذا تحللت الجثة تدريجيًا وصار التعرف عليها شبه مستحيل في ذلك الزمان.

بعد شهور من الخوف قرر معوض السنيورا أن يريح أعصابه من ذلك التوتر المستمر فتزوج على الفور. لا شيء يجعلك مشغولًا عن العالم أجمع غير ترتيبات الزواج. اختار عروسًا شابة تدعى الجازية، تعمل في بيع البخور والكحل وأحيانًا تستجدي المارة من وقت لآخر، ظلَّ يطاردها لفترة، نهارًا بجوار جامع الميدان، حتى استسلمت لمغازلته.

t.me/qurssan

ـ أنا كبير عزبة القرود يا بنت الكلب.

بهذه الجملة السابقة اتضحت لها الصورة، كانت شابة ليس لها أصول معروفة أو عزوة (يقال إنها نصف غجرية، وكانت تُقْسِم أن لها أصولًا يونانية، إذ ينتمي جدّها إلى رعاياهم هنا في مصر قبل أن يهجر البلاد)، وعلى قدر متوسط من الجمال أمام رجل مكتمل الرجولة، على ذمته زوجة وحيدة ـ عبلة ـ وعدد لا بأس به من القرود، والأهمّ من ذلك أنها سترتفع معه درجة لا بأس بها، من شحّاذة إلى سارقة محترفة تعرف جيدًا كيف تدير أسرة.

هكذا تمت الزيجة بمباركة العزبة كلها، بل بمباركة عبلة نفسها، ليلة الزفاف دقت العروس الوشم وارتدت الملابس المزركشة وصبغت شعرها باللون الأصفر الرخيص ووقفت تحت الشمس بالساعات محاولة اكتساب اللون الأسمر المميز لنساء الغجر، لكن نساء العزبة كُنّ أكثر تحملًا، فجميعهن ينفقن على الزوج والأبناء منذ مراهقتهن، فما كان منها إلا الخروج للعمل مثلهن لإرضاء معوض الذي كان قد عاد للكسل من جديد.

سارت الأمور على الوجه الأكمل فترة لا بأس بها، تحديدًا حتى حملت الجازية، توقع النسوة أن تنجب توأمًا بسبب تضخم حجم بطنها، ودعا معوض السنيورا ربه أن يرزقه طفلتين في بطن واحدة عوضًا عن مستقبل ولديه المظلم، ستكونان هدية وإشارة السماء لرضا الله عنه.

أنجبت الجازية بالفعل توأمتين، جعلتا منها ملكة متوَّجة على قلب معوض، بل إننا لا نبالغ لو قلنا إنها أصبحت تُعِدّ لتكون ملكة العزبة بأكملها، كانت النسوة يأتينها من كل صوب ليباركن هذا الحدث قبل أن يسرحن، ثم يعاودن للاطمئنان عليها آخر الليل.

بدأت الغيرة تنمو داخل عبلة، وتنثر توترها الاستاتيكي في الجوّ العام، خصوصًا وقت الإنجاب، دلع معوض للجازية بعد رؤية الطفلتين ـلم يُسمَح له برؤيتهما سوى بعد اكتمال فترة النفاسـ جعل من قلب عبلة شعلة أوليمبياد لا تنطفئ، تحرقها ببطء وتنتظر بدء حرب الضرائر الشهيرة.

قرّر معوض تسمية الابنتين «أمل» و«توبة»!

توبة؟! ما هذا الاسم؟ من أين أتيت به يا معوض؟ إنه لا يشبهنا ولم نسمع عنه من قبل؟ لكن الرجل كان مصممًا.

توبة معوض الظني، الاسم لا يشبه بعضه حقًّا لكنه أشعر معوض براحة نفسية عجيبة.

يوم ميلاد الطفلتين ارتدت عبلة أفضل قمصان نومها وأطلقت العنان لشعرها ووضعت الكحل المبالغ فيه وانتظرت أول صفعة من يد زوجها على جسدها المشتعل أو حتى جرّها من شعرها، أيّ فعل يجعل مؤشر ليلتها يرتفع، لكن مع الأسف تلمّس معوض شعرها وخدّها ومرّر أصابعه على شفتيها كأنه يراها لأول مرة، كان انجذابه تلك الليلة عاطفيًّا، بعيدًا عن ميولها الجنسية المبالغ في غرابتها، لم تجد منه أي خشونة في أدائه، فهتفت في دهشة: ما لك يا رجل؟!

t.me/qurssan

ضحك في سخرية ثم بدأ يقبّلها ويحرّك يده بخفة على خصرها، هنا فاجأته بحركة غير متوقعة، بصقت في وجهه وأخذت تنظر إليه في تحدٍّ لاستفزازه، لم تمرّ ثوانٍ حتى انفجر ضاحكًا بشكل هستيري، ثم نام على طرف السرير وجذبها ناحيته حتى استلقت على جنبها بجواره. لم يحركا ساكنًا لمدة نصف ساعة فغلبهما نعاس السكون. في الصباح تأكد له أنه تاب بالفعل، تاب حتى عن الأخطاء التي لا يعاقب عليها القانون.

بعد فترة النفاس توقعت الجازية أن السيئ قادم، نظرات عبلة تؤكد لها أن السيئ قادم، ورغم ذلك لم يحدث شيء. عام كامل وزاد عليه ستة أشهر أخرى لم يحدث بها شيء، قالت الجازية لنفسها: يبدو أنني ظلمت عبلة، امرأة طيبة هي، ولا تقوى على جلب الأذى لعائلتها.

هكذا سمحت للطفلتين بممارسة الحبو ثم المشي المتعثر أمام الدار، الأخ الأقرب إلى التوأمتين كان الغضبان، كان يحب مشاكستهما دون قسوة، أما الظني فلم يكن يشغل باله مطلقًا بإخوته سواء الشقيق منهم أو غير الشقيق، كانت الجازية تلمح في عينيه القسوة والشراسة ونظرات الكراهية لها دون مبرر، صحيح أن زوجة الأب هي المثل الأكبر لتجسد الشر على مر العصور، لكنها لم تعامله يومًا بحدّة، وفي عزبة الغجر لم يكن هناك داعٍ للكراهية من الأساس؛ الجميع يعاني والجميع ينام ليلًا أسفل سقفٍ من البوص، مدى أحلامهم واحد، والخطر المجهول واحد.

t.me/qurssan

عادت تؤنب نفسها قائلة: الظني ولد صغير لم يتعدَّ السادسة من عمره، لا خطر من ناحيته.

نعرف أنّ ترقُّب حدوث السيئ من ضعف الإيمان، لكن من قال إنّ الجازية تملك من الإيمان شيئًا؟ دون سبب نُبتلى بالمصائب بعد حسد الآخرين، فلا نفرّق وقتها بين فواجع القدر وقول علي بن أبي طالب «كل متوقَّع آتٍ». لو أن الفاجعة أتتها من قِبل عبلة لعرفت مَن تحاسب، لكن ما حدث لم يكن ذنب عبلة أو غيرها، لقد جاء الأمر بصورة أبسط من ذلك، بعد أن قامت الجازية بتغيير ملابس الصغيرة توبة بعد الاستحمام في غرفتها، خرجت لإلقاء الماء المتسخ أمام الدار فوجدت ابنتها أمل قد سقطت بوجهها داخل الطست الكبير فاقدة الحراك، دقائق غابتها الأم عن طفلتها لتعود فتجدها قد صارت جثة هامدة، هكذا ببساطة؟! في البداية ـربما بسبب تفاهة سبب الوفاةـ تخيَّلت الجازية أنّ ابنتها قد شربت كثيرًا من الماء فقط، نادتها غير مصدقة وكأنها ستستجيب للنداء حتى وإن كانت حية، ضغطت على صدرها المبلول بالماء، وضعت فمها على شفتَي الصغيرة وأخذت تنفخ بجنون.. لا فائدة.

ـ أمل، ردي يا بنتي.

في نفس الوقت عادت عبلة من الخارج لترى المشهد جليًّا أمام عينيها. شهقت بالطبع، ثم أخذت في الصراخ حتى اجتمعت العزبة بالكامل حول المنزل، وصل الخبر بالطبع إلى الغرزة،

t.me/qurssan

ففزع معوض وأخذ يجري كالأبله في الشوارع المتربة وهو يردد كالمجانين: وما ذنب ابنتي يا رب؟!

لم يلحظ أحد ما قاله واعتبروه في عداد المجاذيب ذلك الوقت، لكن الجازية لم يمرّ عليها الأمر مرور الكرام رغم حالتها المزرية، كان جلبابها قد شُقّ نصفين وأخذت تلطم وجهها وتحضن ابنتها الفقيدة في هيستريا، أما عبلة فكانت في أشد الاحتياج إلى هذا الحشد، أخذت تقبّل رأس ضرّتها وتربت على ظهرها في رفق، ثم وقفت أمام عتبة الدار صارخة: بنتي، بنتي ماتت يا ناس.

الجميع كان يتساءل داخل المنزل: «كيف ماتت أمل؟». كان الجميع قد أدرك أن مياه الاستحمام هي السبب، وأن صغر سنّ الطفلة وعدم قدرتها على التحكم في توازنها هو السبب، وأن غياب الأم لدقائق معدودات عنها هو السبب، لكن لماذا إذًا قبّل معوض السنيورا جثة ابنته وهو يردد: «أنا الذي قتلتك يا أمل»؟ والأهمّ من ذلك، لماذا كانت تنظر إليه الجازية تلك النظرة الملأى بالغضب؟

***

ظَلَّ الشكّ والحيرة يأكلان جسد وعقل الجازية وكذلك الباقي من رُوحها، مَن فعلها؟ القضاء والقدر؟ الجازية لم تكن تؤمن بالقضاء والقدر، لا بد من وجود سبب حتى تهدأ. جاءها السبب كاللعنة وتمنّت أنها لم تعرف بعدها.

t.me/qurssan

في أثناء التسوّق سمعت حديثًا دائرًا بين امرأتين عن اختفاء طفلة في العام السابق، تذكّرت فجأة حلَقًا صغير الحجم أشبه باللعبة، حاولت عبلة بيعه عدة مرات في السوق لكن دون فائدة، وأخيرًا تلك الجملة التي نطق بها معوض ليلة وفاة ابنتهما: أنا الذي قتلتك يا أمل.

هكذا اكتملت الصورة في ذهنها، لم تكن واقفة أمام منصة القضاء كي تحتاج إلى الأدلة، يكفيها أن الشك صار له هيئة متجسدة تنهش في رُوحها، لم تتحمّل هذا الصراع لأكثر من نهار يوم، توجّهت الجازية إلى قسم الشرطة ووشت بجريمة معوض السنيورا، قالت إن زوجها هو قاتل طفلة القرية.

- لا يوجد دليل يا حضرة البك، إنّ قلبي هو الدليل، ألا يكفيكم قلبي والصغيرة أمل التي تسكن داخله؟ أنا لست شريفة يا بك، لكنني لم أعُد أطيق النظر إلى هذا الكلب، تبًّا له ولعبلة وللشيطانين ولديها.

بالفعل تحركت الشرطة ووجدت الحلَق الصغير بحوزة عبلة، لكن معوض لم يعترف أمام النيابة، وبعد الضغط عليه أقر بالسرقة فقط، الأمر الذي خفّف عنه الحُكم إلى خمسة عشر عامًا، خصوصًا مع عدم وجود الدليل الأهمّ في القضية، جثة الطفلة. ادّعت الجازية المفاجأة بالقبض على معوض في البداية، لكن انكشف السر سريعًا وجاء انتقام عبلة بنفس السرعة.. أصدر معوض فرمانًا قاسيًا، لن ترى الجازية ابنتها توبة مرة أخرى للأبد. لم تكن عبلة بحاجة إلى

t.me/qurssan

من يوصيها بالتأكيد، قامت بإخفاء توبة عند واحدة من الجيران وجمعت بعض النّدابات لزفّ الجازية وطردها من العزبة. كانت عبلة تضرب ضُرّتها بكل قسوة وعنف كأنها تُخرِج حنق سنواتها العجاف القادمة، أفلتت الجازية منها أخيرًا عند مدخل العزبة بعد أن صُبغت ملابسها باللون الأحمر وسباب النسوة يلاحقها.

حاولت الجازية الاستعانة بالشرطة لكن مع الأسف، لم يُعِرْها الضباط أيّ اهتمام، لن يقتحموا عزبة الغجر بسبب كيد النساء، تكفيهم قضية القتل التي اقتنصوها من فم الأسد، صحيح أن الجازية هي مَن مكنتهم من القبض على السنيورا، لكن ما حدث في النهاية هو قَدَرها.

هكذا رحلت الجازية عن العزبة ولم يُعرف لها طريق بعد ذلك أبدًا، ربما قُتلت أو انتحرت أو حتى أصابها الجنون وعاشت تهيم في الشوارع بجلباب مقطّع واللعاب يسيل من شدقيها، كل ما عرفناه أن الجازية حاولت أن ترتقي درجة وسط الغجر لكنها لم تفلح قط.

أمّا عبلة فقد عاشت مع الأطفال الثلاثة حياة ملأتها الصعوبات في البداية حتى اعتادتها، كانت تفكر طَوال الليل في من سيُكيل لها الصفعات والركلات، منَ سيقذفها بأبشع الشتائم والإهانة والنَّيْل من كرامتها؟ ثم من سيعاشر زوجة معوض السنيورا حتى لو سمحت هي له؟ كانت تحدِّث نفسها أحيانًا بصوت عالٍ

t.me/qurssan

قائلة: يا للشؤم، إما غول مصاب في خصيتيه، وإما غول يرقد مسجونًا في «أبو زعبل».

الحياة ثقيلة على الجميع، لكنها كانت تسير رغم كل شيء..

بعد عدة سنوات نشأت بين عبلة وتوبة -ابنة ضُرّتها- عَلاقة وُدّ بسيطة، لم تعُد الأخيرة تعاملها معاملة زوجة الأب المعتادة، صحيح أنها لم تحضنها أو تداعبها يومًا، لكن من قال إنّ عبلة كانت تمارس الأمومة مع ولديها نفسيهما؟ لا وقت لتلك الرفاهية عند تلك السيدة، سواء كانت أمًّا أو زوجة أب.

أمّا الولدان فحاولا -رغم صغر سنّهما- المساهمة في تخفيف قسوة الحياة على الأم، استخدما عقلهما الشيطاني، فتارة يسرقان الذهب -كما رأينا- وتارة يسرقان الأحذية، كانا يخرجان كذلك بقرود والدهما ويعودان بما تحويه جيوب الأطفال في العيد، ناهيك بألعاب الورق وانتقاء المسامير من صناديق القمامة وبيعها مرة أخرى للورش. تكررت السرقات وصار الظني والغضبان صبيَّيْن يُعتمَد عليهما طَوال الوقت.. عندما كانت عبلة تزور زوجها في السجن بصحبتهما، كانت تقف في نشوة أمام الحاجز الحديدي وهي تدقق النظر إلى يديه وعضوه الذكري، أما هو فيستمع لبطولات ولديه المخيفة فيشعر بالنشوة هو الآخر.

صراحةً، لم يكن بين شخصيتَي الصبيَّيْن اختلاف كبير، الظني كان الأكثر ميلًا إلى العنف والتخريب دون داعٍ، الأكثر

t.me/qurssan

ذكاءً والأقسى جلدًا والأسوأ بين أقرانه، حتى إنّ المرء ليتعجب كيف تشكلت تلك الطباع على وجهه لترسم ملامح شيطانية في جسد صبيّ لم يتعدَّ الثانية عشرة من عمره. الغضبان لم يكن يحمل هيئة كيوبيد بالطبع، كان من زمرة الأطفال الأشقياء المبهورين بعالم الجريمة لكن دون وعي لمساوئه.

طبيعة توبة كانت تشبه باقي أطفال العزبة، فقط ملامحها كانت مختلفة نوعًا ما بسبب الأم، فكانت بشرتها أفتح بعض الشيء من بشرة الغجر السمراء، لها أنف أدقّ قليلًا، عينان واسعتان كنافذتين تطلّان على العالَم في شكّ وريبة، وعلى رأسها ضفيرتان صفراوان ورثت لونهما من والدها، أما جسدها النحيل فكان بسبب سوء التغذية.

تسير الصغيرة خلف الغضبان والظني في وقت فراغهما، وتسأل: رأيت عُلبة خشبية تعرض صورًا اليوم في الزقازيق (تقصد التلفاز)، تقول أمي إنها لا تعرف عنها شيئًا. هل تعلم عنها شيئًا يا غضبان؟

ينتظر قليلًا خشية أن يكون الظني على وشك الإجابة فيقاطعه، لكنّ أخاه لا يعلّق بشيء فيردّ قائلًا: ربما تخرفين كعادتك يا توبة.

أما الظني فينتهز الفرصة ليقول: عبلة ليست أمّك.

ثلاثتهم حفاة، ثلاثتهم لا يلعبون البلي ولا بالحجارة، ثلاثتهم لا يهتم بأمر التلفاز لأنهم.. لأنهم من الغجر، لا تنسَ أرجوك.

t.me/qurssan

لكن الصغيرة تنسى سريعًا، في الليل بعد أن ينام الظني وعبلة، تسأل الغضبان، الذي تُفضِّل الحديث معه، في حيرة حقيقية: أين أمّي يا غضبان؟

- لا أعلم، يقولون إنها تركت العزبة منذ سنوات، ربما ماتت.

تسرح بخيالها وتقول: أتمنى أن أقابلها يومًا.

يحاول مواساتها فيقول بلهجة صارمة كي تظهر حقيقية: لن تختلف حياتك كثيرًا وقتها، أمي نائمة معي في نفس الغرفة كما ترين وحالي مثلك تمامًا.

هنا لا تجد توبة ما تقوله فتنهي حوارهما سريعًا قائلة في براءة: على الأقل أنت عرفت.

في الصباح كانت تسير وسط البيوت المتهالكة والعشش، تتأمل النسوة الجالسات أمام العتبات، ينقّين الأرز أو يفلّين الأطفال ويتبادلن الحديث الجنسي. تصل إلى صنبور الماء الوحيد في العزبة فتجد زحامًا حوله كالعادة، تضع الطست -الذي ماتت أختها فيه غالبًا- فيفسح لها الكلّ خوفًا من بطش الظني أو الغضبان، يحاول أحد الصبية مساعدتها فتمسكه أمه من تلابيب كتفه مع نظرة صارمة فينظر إليها ابنها متسائلًا، تميل الأم على أذنه وتهمس في صوت يسمعه الجميع: توبة ليست مِنّا، ليست من الغجر.

***

t.me/qurssan

المكان: عالَم الأبدال

الزمن: غير معروف

رسول السماء قادم، أكاد أشعر بخطواته تقترب من بيتي..

مَرَّ وقت طويل على زيارته الأخيرة لعالمنا، لكن هذه المرة هو قادم من أجلي دون شك، غالبًا كي يقتلني، أو ربما للانتقام أولًا بقسوة وبطء، ومِن ثَمّ قتلي. أفكر في الانتحار طيلة الوقت، لكنه تصرُّف بشريّ مقزِّز. غريب أمر هؤلاء البشر حقًّا، ينتاب البعض منهم من آن لآخر أفكار لا يفهمها العقل، أغرب تلك الأفكار هو قتل النفس! والأغرب أنني صرت أستسيغ تلك الأفكار، المشنقة، طعن القلب بالسيف، أو قطع الشرايين، ثم لا شيء بعد ذلك، يختمون حياتهم البائسة بإرادة فولاذية، ومِن ثَمّ ينتقلون من حياة بائسة لأخرى أشد بؤسًا. يعتقد البشر أن الانتحار بمثابة الخلاص من شقاء الحياة وشرورها، تبًّا لهم ولشرور أعمالهم، هم يتألمون من فكرة الموت أكثر مما يتألمون من الموت نفسه. كيف ذلك وهم لا يلتقون به أبدًا؟

أما عن حياتي فصارت بلا جدوى، لم يمسّني الجنون لكنني على وعي كامل بخطئي، لقد اخطأت، لهذا أنا خائف، وعندما خفت لم أفقد صوابي، بل استغفرت وحاولت تصحيح الخطأ بالتحايل، فصار الخطأ خطأين، لهذا راهنت نفسي على حياة جديدة أو خلود في النار. صراحة لا أقوى على الاحتمال الثاني، لا

t.me/qurssan

أعلم، لا أحد يعلم، والأهمّ من ذلك أنه لا يوجد حولي من يثنيني أو يعضدني أو حتى يقتلني لأستريح.

أنا وحيد بشكل نادر، ربما لن يتكرر مرة أخرى، وحيد بعد أن قتلت آخر بدل هاجمني. لقد مرّ زمن طويل على ذلك ولم يعُد يهاجمني أحد منهم. حينما يقتل الإنسان فإنه يسعى جاهدًا كي يكون وحيدًا، هاربًا، لا أحد يعلم عنه شيئًا، ثم تمرّ نفسه بمرحلة العجز، فيبحث عمن يحكي له، أو عمن يفشي له السرّ، أو يبرر له أفعاله. الآن فهمت هذا الشعور جيدًا، أنا وحيد يا الله، فحمدًا لك أنك أرسلت من يقتلني أو يهب لي شجاعة الانتحار بهذا السيف. وحتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، يجب أن أجيب عن أهمّ سؤال: مَن نحن حقًا؟

يطلق على عالَمنا اسم «الأبدال»، أقصى عدد عاش هنا في عالمنا كان سبعمئة بدل فقط، عرفنا ذلك بسبب عدد البيوت الكائنة من قبل أن نكون، رقمي كان ٣٠٨، أما الآن فلم يعُد لتلك الأرقام قيمة، فعلى ما أظن لم يعُد هناك سواي.

قالوا إنّ سبب التسمية هو قدرتنا على تبديل أنفسنا والتشبّه بالإنسان، كذلك سرعة انتقالنا الرهيبة في عالمنا دون النظر إلى الحواجز.

قد يبعد عالمنا عن الأرض ملايين السنوات الضوئية، وقد نعيش بينهم في عالم موازٍ له أبعاد مختلفة، لا نعلم، لكن الأكيد

t.me/qurssan

أن الانتقال إلى عالم البشر يحدث في ثوانٍ معدودة إذا ما تَلَوْنا دعاء لوح المهامّ.

في البداية سأصف لكم عالمنا مقارنة بالعالم الذي تربطنا به عَلاقة خاصّة، الأرض، لكن قبل البدء يجب العلم بأن مغزى الحياة بأشكالها المختلفة في هذا الكون الفسيح لا عَلاقة له بتعقيدات عالم البشر. إن كان التطوّر بالنسبة إليهم هو الحياة الرغدة وتجنب صراعات الحياة ـوهذا خطأ فادحـ فهو يعنى لبقية الكائنات العيش في سلام والبعد عن الآثام واتباع ما قالته الأديان.. الحقيقة أن التطوّر ذاته هو المرجوّ بالفعل منذ بدء الخليقة، ولكنه تطوّر النفس حتى تصل إلى ما يعرف بالذوبان في الذات الإلهية ثم الانتقال إلى جوار الرفيق الأعلى والتآنس برؤيته.

أما علوم الأرض فأمرها غريب حقًّا، ٩٩٪ منها يعتمد على الخوف من الآخر، يسخّرون العلوم للاستعداد للحروب، يحاولون الوصول إلى الثقوب السوداء ـولو بالرؤية فقطـ للسيطرة على الآخر، في حين أن البشرية لا تحتاج إلى هذا كله، هي فقط تحتاج إلى التنقل من حال إلى حال أفضل وهكذا حتى تصل إلى ربها خاضعة، مستنيرة، راجية قربه والنظر إليه. أقول هذا لأننا هنا في عالم الأبدال نستطيع القيام بما لا يقدر عليه الإنسان، وفي النهاية ينتظر كل منا دوره للقيام بمهمته ومِن ثَمّ الانتقال أيضًا إلى ذات النقطة، الذوبان في الذات الإلهية، ومن بعدها نراقب ضاحكين

من جنّتنا أحوال العباد القادمين وصراعاتهم وأحوالهم وبحثهم المستمرّ عن الأذى والشرّ.

فلنبدأ إذًا الشرح حتى أثبت لكم صحة كلامي..

مَن نحن حقًّا؟ لا أحد منا يعرف، نحن كائنات تشبه الإنسان إلى حدٍّ كبير، لكن الإنسان جميل الملامح، مثاليّ الخلق. لنا جناحان للطيران، نمتلك عينين واسعتين سوداوين، شعر أسود طويل حتى المنكبين، قامة فارعة وبنية قوية ووزن لا يزيد ولا ينقص، مع عدم وجود جهاز تناسليّ، فقط إخراج بعض الإفرازات الزيتية الزائدة من الجسم وقت الضرورة. عالمنا أصغر من الأرض قليلًا، نعيش هنا حول نهر يلفّ عالمنا كالحزام دون انقطاع، يشبه خط الاستواء في كوكب الأرض لكنه ليس وهميًّا مثله. النهر به مادة ثقيلة نوعًا ما، بها بعض اللزوجة، بيضاء اللون، تشبه الشمع المذاب. لا يوجد شموس وأقمار، بل نجوم كالمصابيح المشتعلة، وهي أكثر عددًا وقربًا من تلك التي تزين عالم الأرض فتشعر أن سماءنا مضيئة دائمًا بوهج خاص.

بيوتنا جميلة محفورة في الحجر الرملي الملون في الجبال، تشبه كثيرًا بيوت مدينة البتراء الأثرية، التي تجعلك تسأل: مَن صنع تلك البيوت لاستقبالنا؟ والأهمّ: كيف تشتاق نفس كل بدل إلى بيته منذ يومه الأول كما يشتاق الولد إلى أمه؟

هنا أشجار عملاقة تنمو بشكل دوريّ حول النهر، هذه الأشجار وظيفتها توفير المأكل، والأهمّ التنفُّس، تتغير ثمرتها ـ دون تدخُّل منّا ـ مِن آنٍ لآخر، وأحيانًا نضع كامل رؤوسنا داخل تجويف بجذعها لملء أجسادنا بالهواء كلما شعرنا بالاحتياج إلى ذلك.

حيوانات عالم الأبدال لا تختلف كثيرًا عن الأرض سوى في الحجم والشراسة، فمثلًا الفيل على كوكبنا صغير الحجم أقرب إلى الخنزير لكنه أكثر شراسة، بينما الحمار الوحشي يصل طوله إلى طول زرافة الأرض، أمّا القرود فهي تحمل رؤوسًا تشبه رؤوس الأرانب، الزواحف لديها أرجل قصيرة، لا توجد لدينا أسماك على الإطلاق، بالنسبة إلى البعوض والحشرات الطائرة فهي لا تقترب منّا أبدًا ولا نستطيع نحن الإمساك بها رغم سرعتنا، أما الطيور فكأنها طواويس أرضية مضيئة.

عالَم جميل بالفعل، وخصوصًا عند رؤيته من أعلى، لكنها صورة جميلة للغاية تنتظر من يمرّ أمامها ويقرّ بهذا الجمال كي تصبح ذات قيمة.

ميلادنا يختلف قليلًا عن البشر، هم يولَدون ولا يعرفون شيئًا عن حياتهم السابقة، ثم يصبح لهم أو لكل واحد منهم هُويّته وأفكاره ومعتقداته، أمّا نحن فنولَد فجأة من رحم العدم، كأنك استيقظت لتوّك من النوم، تقوم لتجد نفسك على ضفاف النهر،

t.me/qurssan

مكتمل النموّ، قادرًا على الطيران وأكل الطعام، ويداخلك حاجة إلى التنفس ومخالطة باقي الأبدال. لكم حاولت تذكُّر حياتي السابقة كثيرًا، دون جدوى.

الزمن لم يكن يَعنينا هنا كثيرًا، خصوصًا في البداية (لاحظت أن البشر يعرفون الوقت بحركة الشمس والقمر في البداية، ثم معرفة التوقيت والسنوات بالأحداث الهامّة مثل ميلاد المسيح وهجرة النبي المصطفى، أما نحن فليس بيننا نبي ولا فوقنا شمس ولا يوجد حدث يمرّ سوى زيارة رسول السماء)، عرفنا أن الإنسان قبل الحضارة عاش مثلنا، لكن آفته كانت الموت، زمنه قصير متكرر، الفارق بيننا وبينهم يشبه الفارق بين مشاهدة عرض ضخم من عروض كمال الأجسام وآخر من المصارعة الرومانية القديمة، الأول ستملّ منه رغم جماله، وستمنّي نفسك بحدوث معركة بين اللاعبين، أما الثاني فأنت تستمتع بتنافسهم دون شكّ لكنك تعرف أنهم هالكون لا محالة.. ما أقسى هذا الكون على البشر، بل ما أقسى الكون على نفسه حتى يتابع تلك الكائنات البائسة باهتمام غريب.

في البداية، عشت زمنًا طويلًا في الحديث مع الأبدال علّنا نصل إلى شيء ذي قيمة، نسأل العديد من الأسئلة وبعدها نقضي وقتًا طويلًا في تفنيد الإجابات وتحليلها وإثباتها، لا نكتفي بتلك الإجابة، بل نطير ونرى ونقارن، ونجلس متجاورين بعد أن اكتشفنا الحقيقة السخيفة: لا يوجد اختلاف بيننا، والاختلاف هو سرّ

الكون، اختلاف الطعام هو الذي يجعلك تستمتع به، اختلاف الأديان هو الذي يهديك لأفضلها، اختلاف الأعمار هو الذي يعمّق خوفنا، اختلاف الأجناس هو الذي يكسبنا العاطفة، أمّا الاختلاف الأعظم فهو اختلاف الربّ، ليس كمثله شيء، وهو ما يجعلنا نتقبل فكرة العبودية، حتى رقم ١ لم يكن يختلف عنا في شيء سوى الأقدمية، لعله أتعسنا حظًا بسبب الوحدة التي عانى منها حتى ظهر رقم ٢ ، هذه كانت مأساتنا في السابق، العيش في هدوء بلا صراعات.

بعد فترة لا أستطيع تحديدها صار لكل منا هوايته، من يرسم على جدران الكهوف، من تعلّم السباحة في النهر، من يقضي أوقاتًا في الطيران متمنيًا الوصول إلى السماء، والأغلبية اكتفوا بصيد الحيوانات، أما عنّي فقد أحببت الطيران كثيرًا، لن أنسى نظرة أحد الطيور إليّ في أثناء ممارسة هوايتي كأنه يقول لي: ما الذي أتى بك إلى هنا؟ ثم ابتعد محلقًا في سربه.

في تلك الفترة عرفت رقم ٣٠٩، جاري العزيز في هذا العالم. بطبيعة الحال لم يكن هناك جديد كي يقدمه أيٌّ منّا للآخر باستثناء الطمأنينة بالأنس، هناك من يشاركني هذه الحيرة ويبحث عن سبب للوجود مثلي، بل وقريب من مكاني، المسافة بيننا تشبه المسافة بين بلدين متجاورين لكنها يسيرة بالنسبة إلينا، توأم صغير بسيط العقل ترعاه الطبيعة في حماس دون داعٍ.

t.me/qurssan

الجميع يتمنى مقابلة نفسه وجهًا لوجه، أليس كذلك؟

أصدُقك القول، الأمر مرعب في بدايته، ستجد نفسك تحتقر ذاتها لوجود نسخه منك، ثم إليك المفاجأة بعد ذلك، ستمتلئ نفسك بالحقد إذا ما ظهر اختلاف -ولو طفيف- بينكما.

لم تكن دهشتي تغيب بتكرار اللقاء، بل كانت تزيد عند مقابلتنا لأكثر من شخص، مقابلة شبيه لك أمر مرعب، سبعمئة شبيه أمر يجعلك تسارع في البحث عن هذا الجار. الميزة الأهمّ في التعوّد هي نسيان التساؤلات وعدم الخوف من التغيير. حياتنا كانت مستقرة لدرجة الملل؟ لا يهمّ، أي تغيير قادم اعتبرناه بمثابة حياة جديدة.

هل مللتم من هذا الجمال الصامت لمجرد حديثي عنه؟ اغفروا لي إذًا شحنة الانفجار التي خلّفَها هذا الملل بداخلي -حتى بعد تحرُّك الأحداث- ولنبدأ الآن الحديث عن قوانيننا.

***

الجمعة ٥ سبتمبر ٢٠٠٨

الحادية عشرة مساءً

هل شاهدت أحدث أفلامي؟ متى كانت آخر مرة قرأت فيها عن مغامراتي النسائية؟ هل لديك بوستر لي معلّق على حائط غرفتك؟ الشعر الأسود المصفف للخلف بعناية، العيون العسلية المليئة بالنشاط دائمًا، والأنف المدبب كملوك الرومان.

t.me/qurssan

اطمئن؛ لن يختلف البوستر عن الواقع كثيرًا، ما زلت شابًا في نهاية الأربعينيات، يرافقني الحظ في مشواري السينمائي كبطل لأفلام الأكشن. بالتأكيد أنت تعرفني، سواء كنت مهتمًا بهذا النوع من الفنون أو لا.

السينما، تجسيد الخيال، الفن الذي أخذ من الفنون أجمل ما فيها، الصورة، الكتابة، الصوت، الغناء. الفن السابع المسيطر على قلوب الجميع، لن تجد فردًا - مهما كانت ثقافته- يكره السينما أو لا يفهمها، شعاع في قاعة مظلمة يستحوذ على تفكيرك حتى بعد الخروج منها، كان لا بد من الاتجاه إلى هذه الشعبية بأي شكل. انظر حولك، لاعبو الكرة وأبطال السينما ورؤساء الجمهورية هم من تُذكر أسماؤهم دائمًا بين العوامّ، الأولى لم تكن موهبتي، أما الثانية فتحتاج إلى جهد مضاعف عمّا يمكنني بذله، لهذا صار التفكير بها هو ما يشغلني طَوال الوقت منذ الطفولة.. عمر الشريف، محمود ياسين، رشدي أباظة، وغيرهم، نجوم اعتمدوا على الوسامة، لهذا نفرت نفسي من التكرار واتجهت إلى الأكشن. السنّ؟ أنا في كامل لياقتي الآن، أمّا إن كنت تقصد سنواتي القادمة والتقدم في العمر فإنّ السينما -حتى العالمية منها- لا تعترف بتلك الأمور الثانوية، ما دامت لديك موهبة وما زلت قادرًا على الحركة فالمخرج يستطيع أن يجعلك نجمًا بسهولة، ولك أن تسأل سلفستر ستالوني وأرنولد عن قصة السن هذه، سيُجيبانك بجملة واحدة: إيرادات الشباك هي التي تقرر يا عزيزي.

t.me/qurssan

هناك صالة الألعاب الرياضية، النظام الغذائي القاسي، الخمور يجب التوقف عنها، والنساء كذلك يجب... لا، النساء تطيب بهم الحياة وتسعد، إنهن إكسير الحياة حقًا، أنا من أنصار القفز بين النساء لاستنشاق رحيقهن، أما عن الحب فهو مُرهِق للغاية، فكرة الحبّ لا أعلم مَن اخترعها، الحب رزق لا يد لك في الحفاظ عليه أو السعي إليه، لهذا اسعَ إليه لكن لا تحافظ عليه. النساء سواء يا عزيزي إلا في الجنس، عندما تكون مثقفًا ذا قيمة اجتماعية ضخمة ستجد آلاف الرجال جاهزين لمشاركتك النقاشات والسهرات والرحلات، فما الذي يجعل حب امرأة يزاحم جميع الرجال في قلبك؟ الجنس بالتأكيد، لهذا يجب أن يعرف كل شخص قدره. لن تضيف سيدة أي رأي يثري العقل غالبًا، لكنها تعرف جيدًا كيف تثري روحك، إما بمدحك بشكل مباشر طَوال الوقت، وإما بممارسة الجنس معك فتشعر أنك أقوى الرجال، طاقة الغرور التي تشع منك وقتها لا يعادلها شيء.. أراك خبيثًا تردد أن كلامي يناقض بعضه بعضًا، كيف للحب أن يوجد وألا يوجد في نفس الوقت؟ سأكرر وللمرة الألف، إن كنت بتولًا فسيكون الحب موجودًا، أما إن كنت متعدِّد العَلاقات فلن تميز الحب من الأساس لأن شهوتك هي التي تحركك. ستسأل بخبث أكبر: لماذا يقع بعض الرجال المهووسين بالنساء في الحب؟ الأمر يشبه الاشتياق إلى الطهر بعد العصيان.. كنت رجلًا متعدِّد العَلاقات وما زلت حتى الآن، وأردد للجميع، سمية هي الأولى والأخيرة.

الأولى تختبر مشاعرك معها، لكنك لا تنضج إلا مع الثانية والثالثة... إلخ. هكذا الأمر إذًا، يجب أن تبتعد عن نساء كثيرات حتى تدرك أن لحظات العشق هي تلك اللحظات التي توقن بها أن شريكك هو توأم روحك، هكذا شاركتني سمية في كل شيء وصارت توأم حياتي، سمية كانت تغسل همومي حرفيًا، تراني قائدها في الحياة رغم أن كلينا في نفس العمر تقريبًا وعملنا معًا بماسبيرو في السابق. صحيح أن مبنى الإذاعة والتلفزيون مليء بكل سبل تفريغ الشهوات التي تخطر ببالك، لكن باختصار سمية كانت ثمرة طازجة في وجبة مليئة بمكسبات الطعم والمواد الحافظة، تأكلها على مدار اليوم. كنا يوميًا، طيلة خمس سنوات هي مدة زواجنا، نجلس عصرًا في الشرفة فتسألني هي عن يومي وتهوِّن عليَّ بكلماتها الناعمة مشقة العمل، وأظل أنا أدللها بحبٍّ صافٍ وليس من باب الواجب فقط.

- أريد أن أصبح أشهر إعلاميّ في مصر يا سمية.
- ستكون أشهر إنسان في مصر وليس إعلاميًا فقط، أشعر بذلك يا سامح، صدِّقني، لكن ادعُ لنا في كل صلاة أن نُرزَق بطفل.
- حاضر يا جميلة.

بالطبع لم أكن أصلي، ولم يكن حلم الأبوة هو ما ينقصني، كانت الشهرة هي ما يدفعني للبقاء حيًّا وليس شيئًا آخر.

t.me/qurssan

بعد مطبّ أكثر عنفًا من عدم الإنجاب انفصلتُ عن سمية، وجدتها حينئذ فتاة عادية لا يميزها شيء، هناك بعض المساحيق المثيرة والشقاوة الزائدة وبعض التصالح مع النفس، فقط!

لكن كيف ذلك؟ هناك كيمياء بيننا، هكذا كانت تردد دائمًا، أخبرتها أن الحياة بيننا صارت مستحيلة وأن العشق أكبر دليل على أن صاحبه ما زال على قيد الحياة، لكن الحب مثله مثل أي شيء آخر، له مدة صلاحية، الشغف ينتهي، الأجساد تعتلّ، حتى الروح يصيبها الضجر بعد سنوات الزواج الأولى. أذكر أول فتاة عرفتها في مراهقتي وكيف تخيلت الحياة من دونها ـ رغم عدم وجود حديث بيننا في أي وقت ـ الآن نسيت كل لهفة لي عند رؤيتها.

وقت الطلاق صاح بي أحد الأصدقاء المشتركين: أنت لم تحب يا أستاذ، لماذا أحببتها إذًا من الأساس؟ أعتقد يا سامح أنه كان اضطرابًا عاطفيًا لا أكثر، أما لو أخلصت حقًا لكانت قصتك مع سمية حديث ماسبيرو. قل لي، هل هناك امرأة أخرى؟

- بالطبع لا يا صديقي، وإلا كنت اكتفيت بالخيانة. أنا لست من النوع الذي يتزوج مرة ثانية أبدًا، هذه قوة أعصاب وقدرة على المواجهة لا تتوفر لمن هم على شاكلتي.

عاد لتذكيري قائلًا: سمية شاركتك لحظاتك السعيدة في النجاح وواستك عند الأنين، سيكرهك الله يا سامح، صدقني، القلوب المجبورة سيجبرها الله دائمًا.

قبل الخوض في الأسباب الحقيقية للانفصال، قُل لي: ما الإخلاص؟ الإخلاص هو أن تقترب دون تردد، أن تخشع دون ميل، أن تسعد دون تأنيب، وأن تنتشي دون عودة، لكننا بشر، وآفة البشر النقصان، لا أحد منا يملك كنز معرفة النهايات، أليس كذلك؟ لهذا اجعل رحلتك سريعة ورابحة.

الانفصال كان عتبة الخير عليّ، ابتعدت عن ماسبيرو وبدأت العمل في أدوار ثانوية في السينما، سرعان ما صارت أدوار البطولة في خلال عامين فقط. زاد النجاح لكني لم أنسَ سمية يومًا، الدليل الدامغ على أن الحب يلزمه مغامرات عديدة ومئات السنين كي تحنّ إليه من باب الفضيلة، وهو دليل كذلك على أن الله يحبني، لكن مع الأسف، دون إخلاص.

أي نعم أنا محاط الآن بأجمل النساء والفتيات وحتى القاصرات، لكنني أشتاق دومًا إلى سمية. مربط الفرس هنا أنني أشتاق إلى الفضيلة أو ما شرعه الله عز وجل، أشتاق إلى تلك الأيام التي أعرف فيها الوجه الذي سينام بجواري تحديدًا، لكن للأسف، رحل هذا الوجه ولم يعُد لي ثانية بعد انفصالنا رسميًّا. تخيَّل أنها الوحيدة التي أخلصت لها، سمعت أنها استقالت من عملها في ماسبيرو واتجهت لزوج وحياة جديدة من بعدي، هل تتخيَّل هذا؟!

سامح داوود نجم أفلام الأكشن في مصر يحبه الله والجميع، يحبني الجميع بالفعل بسبب النجاح وتعاطف الجمهور عندما أحكي عن زوجتي السابقة، لكن هل يحبني الله حقًّا؟ لطالما

رددت ذلك أمام الجميع لإثبات أن هذا النجاح يعود إلى رضا الله عني. ما أجمل أن تقرن النجاح برضا القدير عنك، هذا المعنى يعمق معنى النجاح ويمنحه عمرًا أطول، أطول من عمرك أنت شخصيًا، ويمتد إلى النجاح الأعظم، دخولك الجنة. سمعت كثيرًا عن وزير الإعلام الألماني الشهير جوزيف جوبلز وجملته الأشهر عن تثبيت الأفكار داخل العقول: اكذب حتى يصدِّقك الناس.

تُرى هل كان جوبلز نفسه يستطيع التفرقة بين الأكاذيب والحقائق؟ بالتأكيد سينال بعضًا من سمومه وتعشش الأكاذيب داخل عقله حتى يصدِّقها هو الآخر، لكن لماذا لم تعشش الأكاذيب داخل عقلي إذًا؟

أنا لست سعيدًا يا الله، وأعترف لك بذلك، خطاياي تطاردني طَوال الوقت، قبل نومي، في أثناء التصوير، بعد مضاجعة النساء، وقت الاستحمام، حتى بعد تجرُّع الخمور تهاجمني تلك الوساوس. حياتي مزيفة إلى أقصى حدّ، الشهرة ليست عن إتقان التمثيل، المال تذهب زهوته في دقائق، الحب يقتلني يا الله، الشك يقتلني، الأضواء تعمّق من ظلمات نفسي، ما أقرره من قواعد العشق أجده يتسلل بالشك داخلي ناحية أي أنثى، لا أثق بأي شخص، الضحكات تبكيني والبكاء -حتى المصطنع منه- يفزعني، أريد التخلي عن كل شيء، المال، الشهرة، النساء، لكن الشهوات السابقة لها أنياب مسنونة تترك علامات فاضحة على وجهي، بالإضافة إلى كون الزاهد

فيها يستيقظ كل صباح على توبيخ الفضوليين المرير: لماذا صرت دميم الوجه هكذا؟ عُد إلى سابق عهدك أو اغرب عن وجوهنا.. هكذا أقرر العودة إلى الأضواء حتى من قبل تركها في عقلي.

رغم تحقق الآمال التي كانت تنفخ لهيبها في روحي، كان هناك شرط يجعل من النجاح مسخًا مشوّهًا وهو الكيفية، لم أكن بالطبع من أولئك الذين يدّعون الشرف، أردّد دومًا أن الحظ كان حليفي، بل ولن أخجل من الجهر بسرقة بعض الأفكار وقتما كنت مذيعًا أو حتى بعض التدليس وقت الحديث مع المنتجين، لكن تلك الأخطاء كانت تقلب حياتي جحيمًا مهما تناول ضميري من عقاقير منوّمة.

اليوم كان مختلفًا، لقد قابلت عُلا للمرة الرابعة تقريبًا، مَن عُلا؟ فتاة مرحة من المستوى الثاني للوسط الفني واللاتي يتعشمن في التوسط لهن عند المنتجين. لا أعرف عنها الكثير، لكنني ارتحت كثيرًا لجسدها، جميلة بلا شك، لكن الارتياح الجسدي هو الفيصل بالنسبة إليّ كما قلت في السابق. قلت لها بشكل مفاجئ وأنا ملتصق بها وفخذاها مفتوحتان واللذة تغمرنا: برأيك، لماذا لم أتزوج إلى الآن يا حلوة؟

نظرت إليّ في استنكار وعلت وجهها الدهشة من غرابة السؤال في ذلك الوضع، وقامت بسحب نفسها إلى الوراء قليلًا حتى صارت العملية الجنسية مستحيلة، ثم وضعت خدها الأيمن على المخدة

وسرحت بعينيها في اللاشيء.. قالت بعد ثوانٍ في اهتمام ممزوج بالغضب: لأنك كنت تحب المدام منذ أيام المعهد، وعندما قررت الانفصال عنها لم تفكر في تكرار التجربة، أليس كذلك يا فندم؟

تعجّبت من إجابتها صراحة، وردّ فعلها كذلك، لا توجد عاطفة بيننا، ومع ذلك تشعرك أنها في شدة الغيرة عليك. اعترتني طاقة الغرور التي حدثتك عنها من قبل، تلك المرأة تعرف ما تفعل جيدًا.. سألتها في اهتمام حقيقي: وكيف عرفت؟ لم أتكلم من قبل عن هذا الموضوع!

اعتدلت في جلستها ثم بحثت حولها عن سجائرها وعلبة الثقاب التي تفضّلها عن القداحة، وأخذت نفَسًا عميقًا احتبسته في رئتيها قليلًا ثم حرّرته قائلة في لذة: لا أتوقف عن القراءة عنك وعن أخبارك وعن ماضيك، لكن ما جعلني متأكدة مما عرفته أنك لا تتحدث عنها أبدًا، سواء في البرامج أو معي أو حتى مع نافورة النساء التي تنام مكاني هنا.

للمرة الثانية تداعب ذكورتي وتجعلني شهريارًا بشكل غير مباشر، لعمري هذه المرأة لديها موهبة في التحكم بالرجال. سألتها هذه المرة في مرح مصطنع: وما الذي تقوله الجرائد يا قلبي؟

ردّت في دلال وقد بدأ الغرور يتسلل إلى نفسها وشعرت بأهمية دورها في حياتي: الجرائد تقول إنه كان بينكم قصة حب رائعة ثم اقتحم الشيطان حياتكما، بالتأكيد لأنكما انفصلتما دون سبب واضح. أين الحقيقة؟ يعلمها الله بالتأكيد، ثم أنت.

ـ الله!

نظرت في ترقب تنتظر تعقيبي بعد أن اشتعل فضولها لمعرفة ما حدث بيني وبين سمية، اتجهت ناحية ثلاجة الغرفة عاريًا تمامًا، وأخرجت زجاجة خمر ماركة «فودكا» وشربت منها مباشرة، شربت نصفها أو يزيد قليلًا.

ـ شيطان دخل بيننا، شيطان دخل بيننا.

رددتها منتشيًا كأني على وشك تفجير مفاجأة، وقلت في سرعة: أنتِ على حق مئة بالمئة، هناك شيطان دخل بيننا بالفعل، هل تصدقين ذلك؟ في تلك الأمور أقصد؟

قالت في شك: ماذا تعني؟

قلت وقد بدأت الخمر تلعب برأسي: هل لديكِ تصوير اليوم؟

ـ لا.

ـ إذًا فرصة، أحكي لك وأستمع إلى رأيك في ما سأحكيه.

سألتني في عدم فهم: هل تقصد طلاقك من سمية يا فنان؟

ضحكت في سخرية وقلت في بساطة: لا، بل الشيطان الذي دخل بيننا.

بدأت الحكي قائلًا في أريحية: أنا من مواليد مدينة كفر شكر، تلك المدينة التابعة لمحافظة القليوبية، درست في كلية التربية، جامعة بنها، الأب كان يعمل مقاولًا والأم ربة منزل، أسرة متوسطة لكنها أنجبت نجمًا كبيرًا الآن، بعد التخرج عام ١٩٨٢ لم

t.me/qurssan

تكن الأمور معقدة مثل الآن لكنني، وأصدقك القول، لم أكن راغبًا في العمل بمجال التدريس أو حتى مع والدي بالمقاولات، كنت أبحث عن التميز، يجب أن يعرفني الناس، ولكن كيف السبيل إلى الناس؟

كانت تتألق في عقلي أحلام كتألق الجمرات في تلك المجمرة، مذيع، ممثل، مخرج، عضو مجلس شعب... إلخ، هكذا كانت أحلامي، أعيدها على مسامعي كل يوم كالبائس، ثم جاء المصير كما يأتي دائمًا منذ قضم آدم للتفاحة وما زلنا نتعجب له، قرات إعلانًا عن احتياج التلفزيون المصري لمقدمي برامج، كان مطلوبًا وظائف أخرى لكن تلك التي جذبتني إليها، هكذا سارت الأمور، بعد تقديم الطلب والمقابلة المبدئية خضعت لبروفة كاميرا ثم اقتنعت اللجنة بموهبتي.. هكذا بدأت رحلتي في أروقة ماسبيرو، كانت سمية على قائمة المقبولين في هندسة الديكور العام التالي، شعرها الذهبي ـ دون صباغة ـ ووجهها المستدير ذو القسمات الصغيرة التي تشع بهجة، والنبرات الموسيقية من مخارج حروفها، تجعلك أمامها مهزوز الأوصال، مجبرًا على التفكير في صفة من يستيقظ على طلة هذه العصفورة، أأب؟ أم ـ لا قدَّر الله ـ زوج؟ بعد نظرة خاطفة حمدت الله أن يديها خاليتان من القيود الاجتماعية، ثم خلال شهرين كنت أسير معها على الكورنيش أحدّثها في براءة عن طموحاتي الجمة.

t.me/qurssan

تزوجنا، وشعرت أن القدر قد ابتسم لي مرة ثانية خلال شهور بسيطة، أتعلمين يا صغيرتي ما يفعله القدر عندما يبدأ معك حياتك بالابتسام؟

نظرت إليّ في تساؤل فأجبت نفسي: سيستمر في فعلته تلك حتى يضحك ويقهقه في النهاية، لكن عليك.

***

«العمر مجرّد رقم».. مَن قائل تلك العبارة؟ لا نعرف، لكننا نعرف يقينًا أنه لم يكن يقصد أصحاب المهن غير التقليدية مثل البلطجة. في تلك المهن لا شكَّ أن عنفوان الشباب وقوّة الجسد هما ألف باء النجاح، وعندما يأبى جسدك التصديق فيجب أن تستمع له جيدًا وإلا صرت أضحوكة أو قتيلًا، أما الروح فهي تصدّق وتكذِب دون الخضوع لقواعد ثابتة.

صار أمامنا شابّان يسيطران على عزبة الغجر ويشعران أنهما ملكا الحياة وما فيها، جسداهما وروحاهما يصدّقون ذلك، لا مشكله إذًا، المشكلة كانت تخصّ توبة، المراهقة التي تأبى روحها التصديق وتهمس لها كل ليلة: «ستموتين عمّا قريب، روحك في أزمة يا عزيزتي».

الأزمة أنها لم تكن تعلم سببًا لذلك، قد يكون غياب الأمّ، أو زواج الأب بأخرى، أو عنف الأشقاء، أو المعيشة في مكان يسمى عزبة الغجر أو عزبة القرود، كلها أمور واهية بالطبع لا ترتقي

t.me/qurssan

إلى أن تكون سببًا كي تشيخ روحك. أمّا جسدها فكان يمرح كما يشاء، صارت جميلة، هناك رأي شائع ـ لا نعلم مصدره ـ يؤكد أنّ مزج جينات الشرق بالغرب ينتج لنا بشرًا فائقي الجمال. ستراجع هذا الرأي غالبًا بعد رؤيتك لتوبة، فمزج الغجر بأيّ حضارة يولد لنا الإنسان الأجمل على الإطلاق، لقاء هادئ بين ماء معوض الغجري ونصف بويضة من رحم الجازية ذي الأصول اليونانية كشف لنا عن معجزة جديدة للخالق، لا تعرف من أين يأتي سحرها، التغييرات الجسدية لتوبة تمت كما يجب أن يكون، فازداد الجمال جمالًا، لكنه جمال من نوع خاصّ، فالإبهار البصري لم يكن جزءًا من الإعجاب بتوبة، ربما السرّ هو أنك لا تملّ أبدًا من النظر إليها كأنها جزء منك، كأنها طفلتك أو أمك أو سرّ من أسرارك، إذ تشعر أنها تخصّك، وفي نفس الوقت تخصّ الجميع، كأنها الجبال والسماء والبحور، كأنها الطبيعة.. لكن مع الأسف، أنت لا تملّ من النظر إلى الطبيعة لكنك لن تتزوجها، هكذا شعرت عبلة بالخطر لأن الفتاة صارت في الخامسة عشرة من عمرها ولم يتقدم لخطبتها أحد، ندبت عبلة حظها بالطبع، حتى الفتاة التي أفنت عمرها في تربيتها كي تتزوّج وتحصل من ورائها على مهر مُغرٍ أوشكت أن تكون عانسًا. بعد الندب حاولت نصب شباكها حول شباب العزبة ممن يملكون المال، لكن بلا فائدة. ولأن المصائب لا تأتي فرادى، اكتشفت أنّ هناك زيجة عليها الاهتمام بها عوضًا عن زيجة توبة..

t.me/qurssan

لقد عاد معوض السنيورا فجأة، عاد مهيبًا قويًا كعادته.. بعد أن خسر سنوات عمره ـ الشيء الوحيد الذي كان يمتلكه تقريبًا ـ صارت توبته نصوحًا، بعد غياب إحدى عشرة سنة تقريبًا لم تتغير ملامحه، عاد إلى عزبة الغجر ليجد أن الأحوال قد تبدلت. صحيح أنه كان متابعًا أوّلًا بأوّل لحياة عائلته، لكن من رأى ليس كمن سمع، لقد صارت العزبة صالحة للمعيشة نوعًا ما، صحيح أنه لا توجد وسائل ترفيه أو بنية تحتية متماسكة للمياه والكهرباء، لكن هذا الكمّ من البيوت المبنية من الطوب الأحمر هو تغيير سلَب عقله بالطبع.. لقد عاد الرجل وقد أدرك أنه لم يكن مدركًا لقيمة الحياة وملذاتها العديدة. من أين عاد؟ من السجن طبعًا، لم يرضَ الدخول على أسرته خاليَ الوفاض، كانت هناك شابة في نهاية العشرينيات ممسكة بيده في سعادة وتسأله عن مكان غرفتها بالمنزل.

لم تعترض عبلة، وانتظرت حتى خلت بزوجها وقالت في عتاب لطيف: ذيلك نجس لكني أحبّك، ماذا أفعل بنفسي؟

قال في صرامة: أخت زميلي في السجن، وحقه علَيّ أن أحفظ عِرضه.

لم تعترض عبلة بالطبع، رفيق السجن لا يقلّ قيمة أبدًا عن رفيق العمل، وشقيقاته أوْلى بالجماع من غيرهن بالتأكيد.

قالت في دلال كي تذكّره بضعفها: كما ترى.

قالتها ثم تركته يبيت ليلته الأولى مع العروس الجديد.

t.me/qurssan

بعد فترة هدأت العروسان وعادت عبلة للتفكير في زواج توبة من جديد، هذه المرة كان لديها سبب مقنع لتأخر هذا الحدث السعيد المريح.

ـ هناك بومة تعيش معنا بالتأكيد.

تقولها ثم تمصمص شفتيها وتنظر ناحية الزوجة الثالثة، لكن الأخيرة لا تسكت أبدًا، في الغالب كانت تشكو لزوجها في الليل فينادي معوض على عبلة لتقف أمامه كالتلاميذ وتقول: أمرك.

هنا تهوي صفعة على وجهها ويبدأ سيل من الشتائم ينتهي بـ«أنا راجع من السجن تعبان يا مرة».

وقتها تشعر بالنشوة الجنسية وتكتشف ـفي دورة المياه الملحقة بالدارـ أنها أغرقت نفسها، هنا ينظر معوض إلى زوجته الجديدة قائلًا في فخر: عارف علاجها.

يقولها ثم يضحك، لكن الزوجة الجديدة لم تكن تقوى على معاملة عبلة بهذه الطريقة، إذا حاولت إهانتها فسينتهي الأمر بالتهام عبلة لها.

رغم غرابة طريقة عقاب معوض لعبلة، فإنّ الأخيرة كانت تشعر بتفريغ لرغباتها الجنسية، لكن ماذا عن معوض السنيورا نفسه؟ الرجل لم يعُد كسابق عهده، صارت روحه ثقيلة وجسده مؤيدًا لروحه، الرجل يقترب من الخمسين عامًا بسرعة جنونية. ورغم أن هيئته ـكما نعرفـ هي هيئة رجل في الأربعين، فإنّ

t.me/qurssan

الرجال لا تمارس الجنس اعتمادًا على هيئتها. صحيح أن العقد الخامس ليس بالكارثة الجسدية، لكن شغفه صار ناضبًا، كان يعيش أزهى عصوره الاجتماعية مستندًا إلى ولديه اللذين يعيثان في العزبة فسادًا وتجبرًا، لكن مصدر قوّته هذا لن يقف بجانبه في العَلاقة الحميمية، هذا ضرب من الجنون بالطبع، أم تراه يقف؟ لا نعلم تحديدًا.

لكنه عندما سافر لزيارة أخيه حمدان للاطمئنان عليه وعاد في منتصف الليل تقريبًا، وجد ابتسامة جزلة على شفتي زوجته الجديدة في أثناء نومها، ظنّ أنها تحلم، لكنه وجد نفس الابتسامة ظاهرة على شفتي ابنه الأكبر عند عودته من الغرزة. استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وأقنع نفسه بأن هناك مصادفة تحدث في بيته فلا يجب أن يظن شرًا.. مع الأسف، عاد الغضبان بعد شقيقه حاملًا نفس الابتسامة.. «يبدو أن حربًا طاحنة كانت دائرة هنا في أثناء غيابي»، قالها لنفسه بعد أن بات متيقنًا وبدأ يفكّر في الانتقام.

تعلمون جيدًا دور عبلة في ما حدث، لقد وضعت قطرتين من الدواء المنوّم لتوية ثم تظاهرت هي بالنوم كي تعرف ردّ فعل ضرّتها إزاء ما تضمره لها. حضر الشقيقان وبداخلهما النية، فكان حفلًا من نوع خاص مع زوجة الأب، بختامه قالت الزوجة الجديدة في براءة: اخرجوا بسرعة، سيأتي أبوكم في أي وقت.

زوجة الأب ليست بالبشاعة التي تظهر في الأفلام إذًا، لقد خمّن الأب ما حدث غالبًا، لكنه ظلّ محتفظًا بتلك الشعرة التي تقع بين الملامسة وفعل الزنا، تلك الشعرة التي ترجمها الشاعر الأمير عبد الله الفيصل في افتتاحية قصيدته «ثورة الشك»: «أكاد أشكّ في نفسي لأني أكاد أشكّ فيك وأنت مني».

انتظرت عبلة أن يخرج زوجها كي ينفرد الشقيقان بضرّتها من أجل فضحها، لكن عبلة لم تكن تعلم بأنّ الزوجة الجديدة قد نسيت أمر عضوَي الشقيقين تمامًا، وصارت تقف طويلًا مع وافد جديد على العزبة، رجل في نهاية الثلاثينيات، يسرح بعربة ويدفع صندوقًا خشبيًّا تبرز منه قوالب الثلج ويضع طرطورًا وينفخ في صفارة، بائع جيلاتي في عزبة القرود هو أعجوبة، لكن بائع جيلاتي قوي البنيان وتظهر عضلاته بشكل لافت هو صيد ثمين بلا شك. الوافدة الجديدة لبيت آل السنيورا حاولت إشباع شهوتها ومراودته عن نفسه، كادت أن تفشل خطة عبلة حتى شاهدت توبة مقابلة طويلة بين زوجه أبيها وبائع الجيلاتي فخمنت ما يدور بينهما، حكت لعبلة لأنها تحبّ أباها ولا ترضى لتلك المهاترات بالحدوث، نقلت عبلة ما قالته توبة فوضع معوّض خطته، أبلغ زوجته الجديدة أنه رأى حمدان في الحلم يناديه، فلا بد أنه مات، لهذا يجب أن يتأكد بنفسه، أما عبلة فستتظاهر بالنوم كعادتها، وأمرت الشابين بالابتعاد عن المنزل ومراقبة زوجة أبيهما حتى يتأكدا من اتفاقها مع العشيق.

t.me/qurssan

صبرًا، هل قالت والدتهما كلمة «عشيق»؟ عشيق ثالث لهذه الخائنة؟! منذ أيام قليلة كانت تعاشرهما، ثم تفكّر الآن في إحضار رجل آخر!! هل هو فان دام أم ماذا؟

للمرة الثانية أصبح مصير الخطة في مهبّ الريح، إذ قررت الزوجة الجديدة ألّا تمارس تلك الفاحشة بالمنزل خوفًا من الظني والغضبان، لن تغامر مرة ثانية أبدًا، أنقذها ـ الخطة لا الزوجة ـ هذه المرة بائع المثلجات، قال لعشيقته في لهجة آمرة عند مدخل العزبة: سأحضر ليلًا وسنغلق باب الغرفة، إذا حدث شيء ما سأهرب من الشبّاك.

الأدرينالين لعين حقًّا.. هذا أقلّ ما يوصف به هذا الهرمون الذي يجعلك قادرًا على فعل أي شيء مهما كانت درجة خطورته.. الزوجة كانت واقعة في غرام الرجل مِن قبلِ حتى أنْ يلمسها، فوافقت على مضض.

في الليل تركت الزوجة اللعوب باب البيت مفتوحًا بعدما تأكدت من نوم عبلة، ثم دخل بائع الجيلاتي ليجدها في انتظاره. كان هادئًا بشكل مثير للإعجاب، يبدو كمعتادي تلك الزيارات الليلية، قابلته بالأحضان والقبلات كأنه عاد من الهجرة، وأغلقت الباب من خلفها.

كانت الجميلة توبة ـ التي لا تعرف شيئًا عما يُدبّر من خطط ـ نائمة في سُبات عميق، ومثلما لا نعرف كيف يأتي النوم،

لا نعرف أيضًا كيف تأتي الأحلام، إذ وجدت المراهِقة نفسها فجأة داخل حلم، تحاول فيه ضرب عبلة وأمامها جهاز تلفاز يعرض صورة لعمها وهو متوفًى، لم تَرَهُ من قبل لكنها عرفته في الحلم، بعدها رأت والدها يرتدي زيًّا عجيبًا وهو ينظر إليها في حنين غريب. فجأة استيقظت من هذا السبات ثم هرعت لتشرب من القلة المتروكة بجوار الباب، هنا سمعت صوتًا يحمل تأوّهات من غرفة الزوجة الجديدة، ربطت ما سمعته بسفر الأب في الصباح، وبدأت تتلصص من ثقب الباب، هنا رأت زوجة أبيها عاريه تمامًا، كانت جالسة على ركبتيها ووجهها أمام خصر الرجل تحاول فكّ زرّ بنطاله، فجأة التفت الرجل بكامل رأسه ناحية الباب ونظر إلى عينَي توبة مباشرة، لوهلة شعرت أنها رأته من قبل، أبعدت رأسها عن الباب بسرعة وعادت إلى غرفتها سريعًا.

ألقت بجسدها على السرير، قلْبُها كان ينبض في سرعة كالمطرقة، وجسدها كان باردًا كالثلج، فكرت في إيقاظ عبلة لكنها خافت من تحوّل الوضع من مجرّد خيانة إلى مجزرة، خصوصًا مع اقتراب عودة شقيقيها. الغريب أنها فكرت في الوضع الجنسي الذي كانت تفعله زوجة أبيها، شعرت بنشوة لكنها قامت على الفور وأخذت تجوب الغرفة ذهابًا وجيئة كي تطرد هذا المشهد من خيالها، حاولت أن تصفو بذهنها لاتخاذ قرار بشأن والدها، لم تمرّ دقائق حتى سمعت صوت والدها جهوريًّا وهو يقذف زوجته الجديدة بأفظع الشتائم وهي تصرخ في هلع، خرجت مهرولة من

الغرفة فوجدت عبلة أمامها، كانت الزوجة الجديدة تتلوى عارية وزوجها ممسك بشعرها في قوة بيده اليمنى، أما اليسرى فتقوم بدور منفضة المراتب.

ـ فاتحة له قدميك يا واطية؟ مَن هو؟ ومَن قَبْله؟ آه لو أطوله هذا الكلب.

تذكّرت توبة شيئًا لكنها لم تتفوّه به، عاد الظني والغضبان فطلب منهما معوض سرعة البحث عن عشيق زوجته، نظر كل منهما إلى الآخر ثم انطلقا يبحثان عن ذاك الوغد وهما يشعران بالإهانة، لم يعُد مهمًا استرداد شرف والدهم الآن، الثأر صار شخصيًا بعد هذا الجرح الغائر في رجولتهما.

لم يعثرا على أحد، قلبا العزبة بحثًا عن رجل تفوح منه رائحة الجيلاتي ويرتدي جلبابًا أسود لكن دون فائدة، لم يجداه ولم يظهر في العزبة بعد ذلك قط.

تعلمون بالطبع ما الذي حدث لتلك الخائنة، لا مجال للخوف في العزبة، تلك المخاوف التي تحمل صبغة دينية، ماتت هناك منذ زمن بعيد، حتى الخوف من الفضيحة أو كونك محط نظر الآخرين لم يعُد له مكان، لا أحد يعاير الآخر، الجميع هناك يستبيح مال وشرف الآخر حتى نفسه، لهذا أمَر معوض السنيورا زوجته عبلة أن تخلع ملابس تلك الفاجرة وتربطها لحين الاعتراف بهوية هذا المعتدي.

t.me/qurssan

لم تقُل شيئًا بالطبع، الوغد ليس له مكان محدّد بالعزبة ولا أحد يعرفه، فقط تعرف أنه أوقعها في حباله بسرعة شديد. أخذ الكل يضربها بعنف شديد حتى رأت توبة أن تنهي تلك المهزلة، قالت لمعوض: هذا الرجل الذي كان يبيع الحلوى مع عمّ غريب منذ زمن، رأيته مرة أو مرتين من قبل.

توجّه الأب والشابان إلى عمّ غريب في الصباح وسألاه، في البداية كان الرجل خائفًا، قال إنه لا يذكر أحدًا بهذا الوصف، ثم تكلم بثقة وأقسم أنه لم يرَ هذا الرجل من قبل، وأنهى دفاعه بجملة مقنعة قائلًا: يا عمّ معوض، هل أنا فاتح معرض سيارات كي أستعين بمساعد؟ القليل من البسبوسة والبسطة ونحمد ربنا على هذا.

لا فائدة إذًا، هكذا عاد الرجال الثلاثة دون نتيجة، همس الظني لوالده: اقتلها يا معوض.

لكن الأب كانت كلمته واحدة: لن تُراق دماء في بيتي مرة أخرى بعد خروجي من السجن.

كانت جملته قاطعة، وأمَر بعدها بصبّ الشمع في العضو التناسلي لزوجته الجديدة. لا داعي لوصف المشهد الجنسي أو الدموي أو أيًا كان، لا نعلم تصنيفًا لهذا الفعل تحديدًا. لم يفكر أحد ـ على قدر علمي ـ في طريقة تعذيب كهذه من قبل. هكذا قامت عبلة بمأموريتها المفضلة، التلذذ بالفضيحة، التلذذ برؤية امرأة معذبة جنسيًا، التلذذ بالطرد، كان يوم التلذذ العالمي

بالنسبة إليها، طردت العروس الجديدة غير مأسوف عليها، والدم يسيل منها، ثم عادت لحياتها بشكل طبيعي وكأنّ شيئًا لم يكن.

***

إنّ أفكارك الشريرة مثلها مثل قدراتك الإيجابية، تختنق حتى تخرج بأي شكل.

ها هما الشقيقان يسيران كل منهما بقامته المتوسطة النحيلة، والوجه المائل إلى السمرة، والأعين البراقة البنية، والشعر القصير المفلفل، وسط القمامة وكميات هائلة ـ دون تفسير ـ من أحشاء الدجاج. الوغدان عادة ما كانا يبحثان في الصباح عمن يقلّبونه في رزقه، يستخدمان أصوات استهجان تأتي من الأنف والحلق نعرفها جيدًا، وأحيانًا بعض من اللكمات تحتاج إلى عزيمةٍ طَوال الوقت.

وقت العصر كانا يتناولان الخبز والجبن وأحيانًا بعض الحلوى الرخيصة، ولا يزيد حظهما من الدجاج عن نصف دجاجة أسبوعيًا، أما في الليل فهناك كثير من أكواب الشاي وكراسي المعسل، يقولان إنها للحبس بعد الطعام، لكن أي طعام؟ هذان الشيطانان كانا مصابين غالبًا بالأنيميا بسبب نقص الغذاء.

في تلك الآونة كان الملل قد سيطر عليهما تمامًا. أنت تعرف تلك اللحظة جيدًا، عندما يصل بك هذا الشعور إلى هاوية الفكر أو شطحاته، لا نتكلم هنا عن أدباء أو شعراء كي تتحوّل الإحباطات إلى شطحات عبقرية، بل عن شابين أوصلهما السأم

t.me/qurssan

إلى هاوية الفكر.. فرض السيطرة على عزبة مربية لا تأكل الدجاج لكنها تحتفظ بأحشائه هو أمر يجلب الإحباط بالتأكيد، هذه القوة ـبسبب تدفق الهرموناتـ لا أكثر كانت تدفعهم دفعًا إلى حافة الجنون.

قال الظني لشقيقه وهما جالسان بالمقهى دون سبب غير غزو التيستستيرون لجسده: توبة ليست أختنا.

ـ كيف هذا؟

ـ هل تذكر أمّها؟

ـ بالطبع، الجازية، الله يجحمها.

ـ كانت رفيقة أبيك.

ـ لا، بل كانت زوجته.

ـ أيًا كان، لقد أدخلته السجن.

ـ ما الذي تريد قوله؟

ـ أنت تفهمني.

نظر إليه الغضبان نظرة طويلة ذات مغزى ثم قال في جدية: لا لا، معوض سيقتلنا.

ـ إنها تعجبني يا غضبان.

ـ ولماذا تقول لي إذًا؟

ـ لأنك ستشاركني الفعل.

ـ لا.

t.me/qurssan

- الأفضل لك أن تفعل.

- هل جُننت؟ الأمر ليس بهذه البساطة، هي لن توافق، ثم إنّ زواجها قادم إن لم يكن عاجلًا فآجلًا، أتريد لنا الفضيحة؟

- لا توجد فضائح هنا، أنت تعيش داخل فضيحة كبيرة أصلًا.

لعبت الشهوة برأسه فقال: دعني أفكّر يا ظني.

إنّ جُرم زنا المحارم يفوق القتل اجتماعيًا بشكل أقوى بكثير من تجريمه قانونيًا، وحاز على تلك الخاصية في التحريم دون سواه، فما دافع البشر في تجريم زنا المحارم غير هوَس البعض به؟ الموضوع بيولوجي في المرتبة الأولى، ثم اجتماعي ونفسي، إذ يبقى الإنسان نفسه حبيس أطوار النموّ الأولى، سيتكلم فرويد عن السمة الطفلية في جوهرها واستبدال عقدة أوديب بالأنا الأعلى، وأنّ هناك غريزة طبيعية تجاه المحارم وإلا ما حُرّمت، والمجتمع الطوطمي... إلخ

سيتكلم كثيرًا وسيستشهد بقدسية الفعل في حضارات الفراعنة والانكا واليونانيين، إلا أن هيئة الظني والغضبان وهما في طريقهما لارتكاب هذا الجرم هي الأدعى لأن يسيل لها لُعاب فرويد، هناك جريمة ما على وشك الحدوث، صحيح أنها غير مجرمة اجتماعيًا

t.me/qurssan

هنا في العزبة ولن تصل إليها أيدي العدالة، لكنها مجرمة قانونيًا بشكل آخر، قانون معوض السنيورا.

دخلا غرفتها في الليل، أيقظاها بلمس ذراعها وفخذيها فقامت كالملسوعة قائلة: ما بكما؟!

قالا في صوت واحد كأنهما يريدان الانتهاء سريعًا من تلك المهاترات: نريدك.

تراجعت بجسدها خطوتين إلى الوراء حتى التصقت بالخشب أعلى السرير بعد أن ألجمتها المفاجأة، قال الظني في برود: لقد نمنا مع زوجة أبيك وأنتِ تعلمين، لِمَ الاعتراض؟

وجّهت حديثها إلى الغضبان لأنها تعلم عدم جدوى المناقشة مع أخيها الأكبر: ما بك يا غضبان؟ أنتم إخوتي!

شهَرَ الظني سلاحه الأبيض فبدأت هي بالبكاء، قال الغضبان في تردد: سنتركك حتى الصباح تفكّرين في الأمر، وبعدها تلبسين أفضل ثيابك وسننتظرك بعد نوم معوض.

هنا زجره أخوه قائلًا في حدّة: لا، الليلة.

قالها ثم ألصق المطواة برقبتها قائلًا: أم لك رأي آخر؟

هزت رأسها والدموع تنهمر من عينيها ثم بدأت في خلع ملابسها، نظر الظني إلى أخيه نظرة آمرة بمعنى «اخرج أنت الآن»، فابتسم الغضبان في خجل في البداية ثم ضحك في بلاهة وانصرف.. لم تنتظر توبة كثيرًا، في اللحظة التي فُتح فيها باب

الغرفة وَثَبَتْ ضارية يد أخيها الملعون بقوّة وغلّ ثم قفزت على ظهر الغضبان فأسقطته أرضًا، وقامت مسرعة لتدوس بقدميها العاريتين فوق ظهره، وبعد ثانيتين كانت واقفة عند رأس أبيها في الفراش تناديه في صراخ.

***

بعد طرد الشقيقين من البيت ومبيتهما عند حلاق العزبة لمدة يومين، حاولا استرضاء أبيهما، بل استرضاء توبة نفسها.. علّلا تصرفهما بامتلاء صدريهما بالدخان وأن الشهوة داعبتهما في لحظات السطل التام، إلا أن الأب ظلّ متمسكًا برأيه: لن يبيتا هنا مرة ثانية.

تدخّلت عبلة للتوسّط لولديها فنالها سيل من الشتائم واللكمات على وجهها، شجعها ذلك أكثر حتى إنها نسيت القضية نفسها وصارت تفعله من منطلق جنسيّ بحت.. يبدو أن الأب لم يسامح ولديه على خيانتهما له من قبل، ثم محاولتهما الأخيرة مع ابنته الحبيبة توبة، هكذا قرر الظني ومعه الغضبان حزم أمتعتهما البسيطة والرحيل إلى البلدة الوحيدة التي سمعا عنها ولهما بها قرابة من الدرجة الأولى، وإن كانت قرابة مشوهة الخصية.. إلى كوم السمن طبعًا.

العزبة لم تتغير بالطبع، عزبة القرود التي لا تعرف القانون ومملوءة بالغجر الريفيين، العزبة الملأى بأحشاء الدجاج وأهلها لا

يأكلونه، العزبة التي يلهو أطفالها مع القرود في تناغم مدهش، لم يتغير بها بيت، ذرة تراب، لم يحدث أي تغيير في مهنة أحدهم. عزبة القرود لها جرائم خاصة بها أو بالأحرى جريمة واحدة، وهي فرض السيطرة، لهذا سادت العزبة حالة من الملل بعد غياب الظني والغضبان، حينما هدأ الرتم اللاأخلاقي لدى أسرة معوض، هدأ سير الأحداث داخل العزبة بشكل مبالغ فيه، الظلم مثير كما نعلم، لكن العدل مملّ ولا نشعر به. مع الأسف، لم يعُد ما يدعو للحكي بالعزبة سوى مرض معوض السنيورا.

لا يوجد أيضًا ما يقال عن حالته. يكفي أن نقول إنها المرة الأولى التي لم يبدُ فيها معوض السنيورا في الأربعين من عمره، صار يحمل كرشًا منتفخًا لأقصاه ويتقيأ دمًا من آنٍ لآخر وعيناه صفراوان. بعد شهور، اضطر إلى أن يسافر إلى الزقازيق ليعرف أن الوقت قد أزف، بعد أن تأمّل الطبيب الأشعة وقرأ التحاليل عرف معوض أن الأمر جلل، لن تنطفئ لمعة عينَي الطبيب إذا ما كان مرضك يحتاج إلى علاج مطوّل أو أنّ حالتك متدهورة، وإلا ما سبب زيارتك له من الأساس؟ هذه اللمعة تنطفئ غالبًا بسبب اقتراب اللحظة التي يخشاها الجميع.. لحظة الموت.

كتب له الطبيب أدوية عديدة يعلم جيدًا ـبل ومعوض نفسهـ أنه لن يشتريها، اعترضت عبلة وأقسمت بأغلظ الأيمان ألا يشغل باله بثمن الدواء، لكن زوجها ـمع الأسفـ لم يكن يتجاوب معها، صار وعيه كالرضيع، إن سمع لا يفهم، بل إنه لم

يكن يراها في رقدته بسبب ضخامة كرشه، فصارت عبلة نفسها خارج مجال رؤيته.. عرفت أن الباقي له في الدنيا ليالٍ معدودات، هنا لجأت لعَلاقتها الوحيدة بالعالم الخارجي، الظني والغضبان، ربما لن يساعدا معوض أو يخففا عنه، لكنها لم تكن راغبة في أن يترك الدنيا وهو غاضب عليهما. قالت لتوبة: ابحثي عنهما في كوم السمن.

غضبت توبة من طلب زوجة أبيها وقالت في تحدٍّ: لا، بعد الذي فعلاه لن أذهب إلى أي مكان.

وفي محاولة لاسترضائها قالت السيدة: أتوسل إليك يا توبة، لا تخافي من شيء، لن يقتربا منك مرة ثانية، أعدك بذلك.

تنهدت توبة وظهر تأنيب ضمير جليًا على وجهها، لم تعرف له سبيًا لكنه كان يمزق روحها. هتفت في سرعة: الطريق وعر، ثم إنّ كوم السمن بلدة مليئة بالأقذار، الأمر مرعب يا عبلة.

حركت عبلة ذقنها لأسفل في بطء مع نظرة ذات معنى: لن يستطيع أحد منهما الاقتراب منك.

ابتسمت توبة في سخرية بعد هذه الجملة العبثية ثم قررت إنقاذ المشهد، قالت لنفسها: سينتهي الأمر سريعًا.

هكذا ودّعت عبلة قبل أن توصيها الأخيرة بشكل درامي قائلة: لا تقولي شيئًا عني لعمّك حمدان إن كان حيًّا، أخواكِ يحفظان السرّ منذ أوصيتهما بذلك، أنا متأكدة.

إمّا أنّ هذه السيدة لا تعرف شيئًا عمّن أنجبتهما للبشرية، وإمّا أنها تعتبر توبة إلهة للسذاجة.

وقفت توبة تنتظر الميكروباص وسط الوجوه الحائرة. القيادة السياسية الجديدة بعد مقتل السادات، التي لم يمر عليها سوى بضع سنوات، أشاعت تلك الحيرة المفعمة بأمل البدايات كما نعرف. تنقلت بين وسائل النقل مختلفة حتى وصلت إلى مدينة بنها ومنها إلى مركز شبين القناطر، أخبرها الجميع أن السبيل الوحيدة للوصول إلى كوم السمن هي عربات الكارو فانزعجت من الفكرة، ثم ظهرت أخيرًا عربة من نوع الربع نقل يسمّونها «كبّوت» متجهة إلى هناك. هيئة السائق كانت تدعو للتفاؤل، يبدو نظيفًا على غير هيئة السائقين والمكان نفسه، نظر إليها بعين ثاقبة وقال في ثقة: أنت غجرية، أليس كذلك؟

- بلى، كيف عرفت؟

لم يُجِبها، وسألها في دهشة: لا يوجد غجر في شبين! من أين أنت؟

- من الزقازيق.
- أتعرفين أحدًا هنا؟
- إخوتي.
- تقصدين الظني والغضبان؟

يبدو أن مستوى الذكاء عالٍ في محافظة القليوبية، هكذا قالت لنفسها.

أجابته: نعم، كيف عرفت؟

- لا يوجد غجر هنا غيرهما، ولهما صيت كبير.

قالت في كبرياء ساخرة: طبعًا بالتأكيد، أليسا شقيقَيَّ؟

ابتسم لها في رقة على غير عادة السائقين، ثم نظر في شرود إلى الطريق الترابي، وقال: عيناك جميلتان، لكني أرى بهما ظلامًا، لِمَ يا تُرى؟

قالت في سرعة: ربما لم أدفع فاتورة الكهرباء بعد.

ضحك من أعماقه رغم سخف الدعابة ونظر إليها في ثقة وقال: أتكلَّم بجدِّية.

هرشت في رأسها مصطنعة التفكير وقالت في مرح: أعرف، لكنني لا أملك إجابة.

قالتها ثم تفحصته لثوانٍ وقالت: أشعر أن وجهك مألوف، هل رأيتك من قبل يا اسطى... ما اسمك؟

***

t.me/qurssan

الفصل الثاني
المنبوذان

هناك أسطورة أخرى.. هي أنَ الغجر جاؤوا من مصر بعد معجزة النبي موسى، إذ نجا اثنان منهم من حادث غرق فرعون، وأُطلِقَ عليهم «فرعون» و«فرعونة»، ويُعتبران آدم وحواء الغجر، تناسلت منهما سلالات غجرية، ولذلك يخاف الغجر من البحر ويفضّلون عبور الصحارى لأن الماء يعتبر نذير شؤم في معتقداتهم، فالماء عندهم للشرب وسقي الحيوانات والطبخ فقط، ولا يستحمّون إلا القليل منهم، ونادرًا ما يعمل أحد منهم في صيد الأسماك.

***

t.me/qurssan

قُرى كوم السمن والجعافرة والقشيش جعلت من القليوبية قبلة الخارجين على القانون، هذا المثلث الذهبي الذي يقع بمركز شبين القناطر صار منذ أول الثمانينيات خارج السيطرة الأمنية بسبب العصابات وقُطّاع الطرق وجرائم الخطف والسطو المسلح. لم يكن العمّ حمدان من أباطرة عالم الإجرام في كوم السمن، لكنه كان من مؤسسيه، صحيح أن إصابته المقشعرة للأبدان أصابت حياته العملية والعاطفية في مقتل، وتخطاه كثير من تلاميذه، لكن بقي منهم من يودّونه ويحاولون التخفيف عنه.

بعد أن وصل الظني والغضبان إلى كوم السمن باتا ليلتهما الأولى في أرض فضاء بها بعض مخلفات البناء، وفي الصباح عرفا طريق عمّهما، وصلا إليه مجهَدين، رحّب بهما بعد أن عرّفاه بدرجة قرابتهما.

قال حمدان: كيف حال أخي؟

ـ بعد خروجه من السجن تدهورت حاله.

ـ وحال أمّكما؟

نظر بعضهما إلى بعض في تساؤل، هل هو فخ أم أن العمّ حمدان يعرف حقيقة أمّهما؟

قال الظني في توجس: حزينة منذ زواج معوض الأخير.

سألهما في لامبالاة: وما الذي أتى بكما؟

تنفّس الشقيقان الصعداء وأجاب الغضبان: نريد العمل.

t.me/qurssan

- في البلطجة؟

قالا بصوت واحد: أي شيء.

توسط لهما في البداية للعمل في أعمال شريفة، لكن الشريف في كوم السمن يحتكّ أغلب الوقت بغير الشريف، لهذا لم يفلحا. تنبأ لهما الجميع بحذو عمّهما بسبب أسئلتهما المستمرة عن تجارة المخدِّرات، عيونهما كانت تبحث عن الجريمة أغلب اليوم مما جعل من ظهور شرّهما مسألة وقت. لم يخيب الشقيقان ظنهم فكانا أسرع من الكل.

عادا إلى العمّ حمدان مرة أخرى وطلبا منه أن يجد لهما عملًا مربحًا، فَهِمَ مقصدهما، لكنه رفض التوسط لهما في تلك الأعمال، رغم المحايلات الطويلة بقي الرجل العاجز صامدًا في الدفاع عن رأيه، في النهاية عرفا طريق حافظ دون مساعدته.

حافظ خليل.. مسجّل خطر وينتمي إلى عائلة «الدكش»، اعتُقل عام ١٩٨٢ ثم هرب من سجن القناطر عام ١٩٨٦ بعدما استغل أحد رجال الشرطة حالة الهرج والمرج التي وقعت عقب أحداث الأمن المركزي، إذ أخفى الشرطي سلاحًا -حصل عليه من والده خليل الدكش- داخل سيارة الترحيلات مقابل مبلغ ضخم جدًّا وقتها، وهو عشرون ألف جنيه. هكذا هرب حافظ إلى بؤرة إجرامية جديدة عنه وهي الإسماعيلية، منطقة السحر والجمال تحديدًا. أظهر حافظ هناك جرأة غير معتادة، بالإضافة إلى واقعة

t.me/qurssan

الهرب التي أضفت على شخصيته سمت البأس، فوجد تجار الإسماعيلية أنه يتمتع بذكاء حادّ، وأنه ذو عَلاقات مذهلة، خصوصًا مع بدو سيناء، فصار محبوبًا من الجميع، ساعدوه على الوقوف مرة ثانية على قدميه وزوّدوه بالمخدِّرات والأسلحة والذخيرة الحية.

بعد أن عاد حافظ مرة ثانية إلى كوم السمن، مسقط رأسه، استطاع تجنيد أخطر العناصر الإجرامية في القليوبية في خدمته، وفي خلال أشهر قليلة أعاد قريته إلى صدارة عالم الجريمة. صحيح أن ولاءه ونصف أرباحه كانت تذهب إلى الإسماعيلية لكنه كان يربح الكثير. بدايته المخيفة هي التي أجبرت الجميع على احترامه، بشاعة الجرائم، تجارة السلاح، القتل، سرقة السيارات، وجلب المخدِّرات بكميات تكفي الآلاف، كل هذا جعل منه أسطورة محافظة القليوبية كاملة.

بنى حافظ قصرًا وسط الزراعات بالقرية، فوق سطحه كانت جلسته المفضلة، كان ينظر إلى ساحته الملأى بكلاب الحراسة والرجال المدججين بالأسلحة وسوره المحاط بدواليب المخدِّرات التي تبيع الكيف والسلاح للمترددين على البلدة، فيشعر بالفخر.

بعد وفاة والده أيقن حافظ أنه لن يهنأ بسنّ الشيخوخة في الغالب، إما بسبب مقتله وإما لملازمته للأدوية ومصحات علاج الإدمان، لهذا اتبع الحكمة الشهيرة التي تقول: «اعمل لآخرتك».

t.me/qurssan

بنى مسجدًا داخل الزراعات وفاءً لوالده خليل الدكش، لكن الغريب أنه لا يركع به أحد ولو ركعة واحدة، حتى قامت مديرية الزراعة بإزالته ـبعد سنوات ـ لمخالفته قانون البناء على الأراضي الزراعية. صراحة لا نعرف اسمًا لتلك الفلسفة أو تحليلًا لعقلية أهل القرية، لكن يبدو أنّ هذا العزوف كان من باب ترك خيط أخير يربطهم بالله حتى اللحظة الأخيرة، لا يجب أن ننجس حياتنا بالكامل، سنبني المساجد ونصلي بها بعد توبتنا كي تُقبل الأعمال، لكن بالمال الحلال. هكذا قالوا.

بعد شهور انتهزت الشرطة ترك حافظ لقصره ومبيته داخل عشة حقيرة من البوص بسبب حالته النفسية السيئة بعد هجر أهل القرية للمسجد، وقامت بالهجوم، لكن الظني والغضبان كانا بالمرصاد، حشدا الأهالي للتجمهر من أجل التصدي لأفراد القوة وتخليص حافظ منهم.

فضلًا عن السمة المشتركة بينه وبين الظني وهي حبّ الشرّ من أجل الشرّ، وجد حافظ أن الشقيقين يستحقان المساعدة بالعمل معه.

ـ هل تجيدان قيادة السيارات؟

ـ لا.

ـ هل تعرفان أمين شرطة يعمل بالمركز؟

ـ لا، نحن من الزقازيق.

- هل لدى أحدكما رفيقة؟
- لا.

هتف منزعجًا: يا ساتر يا رب. لا عمل لكما سوى ناضورجية إذًا.

هكذا حاول ردّ دَينه الثقيل كي لا يموت مدينًا لأحد، هذا مبدؤه.

لم يرتقِ الظني والغضبان رغم شراستهما لحجز مكان إلا بذيول العصابات، فالناضورجي يشبه جامع الكرات حول الملعب، لا يعلم كيف تدار الأمور الفنية ولا يرتقي للَعب داخله.

سكن الشقيقان حدائق الموالح في النهار، وفي الليل كانا يتابعان الطرق المؤدية إلى شبين القناطر من ناحية كفر شكر، ممسكين بسلاح آليّ. صارا يسمعان فقط عن بطولات حافظ الدكش ومعاونيه دون السماح لهما ببيع السلاح أو سرقة السيارات بالإكراه، أي دون مشاركة حقيقية في جرائمهم.

فضلًا على قلة المال، بقيت طاقة الشرّ بداخل الظني والغضبان نابضة، غير معترفة بالتهميش، لم يستهلكاها بعدُ بالنساء والإدمان أو حتى الخوف من الشرطة، تلك المراهقة الإجرامية التي تستطيع دفعك لأن تكون «هولاكو»، تقتل وتسرق وتعتدي على الحقوق، ليس مجرد ناضورجي حقير.

t.me/qurssan

اقترح الغضبان على أخيه العودة إلى العزبة؛ أن تكون اللاعب الأول في عزبة القرود أفضل من أن تكون لاعبًا احتياطيًا في كوم السمن. لكن الظني نهره وطلب منه إغلاق فمه وعدم الحديث في هذا الشأن.

ـ سوف تتغير الحال بالتأكيد.

بعد شهور كانا قد وصلا إلى ذروة الإرهاق النفسي والجسدي معًا، بركانان ترى الأبخرة تتصاعد من فوهتَيهما طَوال الوقت، وتعرف جيدًا أن الجحيم على وشك الخروج منهما في أي لحظة، لكن الحق يقال، خمد البركانان في ثوانٍ عندما وجدا توبة مقبلة عليهما بابتسامتها الساحرة.

***

كان اللقاء فاترًا كما توقعت توبة، استقبلاها في توجُّس وقد شعرا بأنّ هناك خطبًا ما. بعد السلام رأت نفس النظرة القديمة في عيونهما فاستنتجت أن شقيقيها يعملان هنا في البلطجة لكنهما غير راضيين.

قالت في خجل كأنها اخطأت في شيء ما: معوض مريض ويحتاج إلى رؤيتكما.

صاح الغضبان: ما به؟

قالها ثم أردف كأنما تذكَّر شيئًا: أليس هو مَن طردنا؟

أما الظني فبقي صامتًا تعلو وجهه علامات اللامبالاة كالعادة.

قالتْ في وُدّ: في النهاية هو والدكما، وعلى وشك الموت، أرجو ألا تردّاني خائبة.

ـ لن أذهب.

قالها الظني كطفل يلقي تهديدًا، وابتعد خطوتين معطيًا لها ظهره، معلنًا انتهاء الحديث. نظرت إليه توبة في اشمئزاز للحظات، ثم وجهت حديثها إلى الغضبان قائلة في استعطاف: والدك سيموت يا محمد، ألقِ عليه نظرة ثم عُد، الأمر لن يستغرق يومًا على الأكثر.

كانت تعلم أنه أكثر لِينًا من أخيه ولو بمقدار لا يُذكر، لكنه لم يرُدّ، أشاحت بوجهها ودمعت عيناها وتهدّج صوتها وهي تقول في محاولة أخيرة لاستمالة أيّ منهما: والله ما أريد منكما شيئًا، الرجل يموت يا عالَم.

هنا صار المقدار الضئيل بحرًا، جعل الغضبان يهتف في شقيقه: أنا ذاهب يا ظني، إن أصرّ على قدومك سيكون لنا حديث آخر.

ثم صاح وهو يدير رأسه ناحية توبة: هيا بنا.

هنا التفت الظني وهتف بهما في غموض كأنه يخبئ غرضًا ما في نفسه: انتظرا؛ سآتي معكما.

نظرا إليه في دهشة ولم يعلّقا.. وهكذا عاد الأشقاء الثلاثة إلى بيت والدهم.

قابل معوض ولديه بابتسامة خاصّة، كأنه عاد إليه الوعي مرة أخرى، ثم قال في وهن وهو يشير ناحية الغضبان: اخرج يا غضبان.

t.me/qurssan

نظر الغضبان إلى والده في دهشة وإلى أخيه في حيرة ثم انصرف. لسببٍ ما شعر الظني بالخوف، فقال لوالده في توتر: سلامتك يا معوض.

نظر إليه الرجل في عينيه وقال: أنت مَن أسقط أمل في الطست، أليس كذلك؟

جَفَلَ الظني وبدا العرق على وجهه واضحًا في لحظات، ثم قال محاولًا إظهار رباطة جأش: كلام فارغ طبعًا.

ثم صاح بصوت المظلومين: ربما كانت عبلة.

- لا، أنا متيقِّن من أنها ليست عبلة، أنا أعرف هذا الشرّ جيدًا يا سيّد، كأنه وُلد معك دون سبب، أعرف أنك لا تحبني، بل لا تحبّ أحدًا على الإطلاق.

قالها ثم بكى فجأة، وقال: لي رجاء أخير عندك يا سيد.

تأمّله الظني بعض الوقت ثم سأله بحذر: ما هو؟

- أن تدفنني واقفًا؛ أريد أن أقابل ربي مرفوع الرأس.

تعجّب الظني من طلبه، لكنه قال على الفور: ربنا يطيل في عمرك يا معوض.

ثم عاد يسأله: لكن لماذا توصيني أنا بالذات؟ قلت إنني لا أحبّك.

- لأنك مَدين لي بالسجن إحدى عشرة سنة بدلًا منك.

t.me/qurssan

ابتسم الظني ابتسامة ثقيلة وقال: أنت والدي، ولك عليّ الطاعة، أمرك.

سافر الظني والغضبان إلى كوم السمن للاستئذان من حافظ، ثم عادا مرة ثانية إلى العزبة للبقاء مع والدهما في أيامه الأخيرة.

كان مقدّرًا لعزبة القرود أن تشعر بالإثارة في أثناء زيارة بطلَيها، لكن مع الأسف اتخذ القدر منحنى آخر، فعند مدخل العزبة وجد الشقيقان نساء العزبة يتشحن بالسواد والأصابع تشير إليهما، أما عبلة فعدَت ناحيتهما وهي تبكي بحرقة، والنساء يحاولن إثناءَها عن لطم الخدين. صرخت أمامهما الأرملة وأخبرتهما أنّ معوض قد شهق شهقته الأخيرة وقام الرجال بدفنه منذ قليل.

ـ أبوكم مات، سيد العزبة مات.

بكى الغضبان والده في حرقة، أما الظني فارتسم شبح ابتسامة خافتة على شفتيه حاول مداراتها قدر الإمكان.

يبدو أن العزبة كُتب عليها الملل بعد أن اتفق الشقيقان على ألا تطول إقامتهما، كما كُتب على معوض السنيورا العيش والموت منكس الرأس.

***

t.me/qurssan

بعد العزاء دار نقاش بين الشقيقين وأمّهما خلف باب مغلق، بدأه الظني قائلًا بلهجة من ينهي النقاش من قبل أن يبدأ: سنأخذ توبة معنا لكوم السمن.

ضربت الأم صدرها بيدها في قوة هائلة وهي تردّد في ذهول: توبة؟! لا طبعًا، لم أتحمّل تربيتها كل السنوات السابقة لتأتي أنت وتأخذها، إنها كنز.

لم يعلق الغضبان منتظرًا وجهة نظر أخيه الذي قال في ثبات: سنبعث لك المال شهريًّا.

انقضت فترة صمت للاستيعاب والهضم، إذ لم تجد عبلة سببًا قاله ولدها، فكرّرت متسائلة بصورة أخرى: وكيف ستقنعانها؟ حياتها هنا، ومن حقي أن أرتاح.

نظر الظني إلى أخيه نظرة غامضة وحسم الموضوع قائلًا: سنوفر لها سكنًا بجوارنا ولن نضايقها، صرنا نحتاج إليها يا عبلة.

كان جادًّا لدرجةٍ أخافتها قليلًا، لكنها ابتسمت وسألته في مكر: كم ستدفع؟

- ما يجعلك تعيشين مستورة.

ثم مال على أذنها المتدلي منها حلق ضخم كعادة الغجر، وأضاف: وتتزوجين.

t.me/qurssan

ابتسمت في مزيج من الخجل والرضا ثم أخرجت سيجارة من دولاب قديم يخصّ الجازية، وقالت وهي تشعلها بعود ثقاب: سأقنعها.

ثم رفعت إصبعها محذرة واستطردت: لكن إن عادت غاضبة منكما لن أجبرها على شيء.

ـ اتفقنا.

***

لم يشغل بال الظني والغضبان ذلك الفراغ الأسريّ بالطبع بعد وفاة معوض السنيورا، ومن بعده مباشرة العمّ حمدان، شغلهما كيفية الاستفادة منه. بعد هذا الفراغ لم يعُد هناك ملجأ لتوبة غير السفر بصحبتهما. أدركت أختهما جيدًا أن عبلة ستتزوج عما قريب، لهذا اختارت تحرُّش أخويها بدلًا من تحرُّش رجل غريب.

ذهب الشقيقان إلى حافظ مرة أخرى وقالا له: هذه المرّة لا تكسفنا يا معلّم.

لم يلتفت إليهما وسألهما وهو يلتهم بعض المكسّرات: هل تجيدان قيادة السيارات؟

ـ لا.

ـ هل تعرفان أمين شرطة يعمل بالمركز؟

ـ لا، نحن من الزقازيق.

ـ هل لدى أحدكما رفيقة؟

قالا في نفَس واحد: نعم.

يبدو أن اختبار الهيئة عند تجّار سلاح القليوبية لا يتغيَّر ولا يخضع للمجاملات.

أكمل أسئلته: جميلة؟

هتف الغضبان: جدًّا، إنها شقيقتنا.

ابتسم في سخرية وقال: وكيف لشقيقة تلك السحنة أن تكون جميلة؟ لا بد أنكما تكذبان.

هنا قال الظني في غلظة: ما الذي تريده؟ قل لنا وسننفذه فورًا.

بالتأكيد اشتهاها حافظ في خياله، وتعجّب من هذا الاشتهاء الغريب لكونه لا يعرفها، لكن قواعد السيطرة منعته بقوة من الجهر به. كان يحاول دائمًا ترسيخ تلك الجملة التي تتردد بين عشيرته: الدكش يحافظ علينا.

صحيح أنه لو اغتصبها فلن يستطيع أحد الاقتراب منه حتى الظني، لكنها ستكون وصمة عار دنيئة ستهدم صورته في عقول أهل كوم السمن.. قال في هدوء كأنه يلقي محاضرة: ستقف أختكما على طريق جامعة بنها، وتشير للسيارات الملاكي التي يبدو من هيئة أصحابها أنهم يملكون المال، لا يهمّ السنّ. أما أنتما فستقومان بتثبيت السيارة أسفل الكوبري وأخذ كل ما يصلح للسرقة. ممنوع سرقة السيارة نفسها، لأن ذلك من اختصاص آخرين. هل فهمتما؟

t.me/qurssan

لم يكن الظني والغضبان يصغيان فقط إلى التعليمات، بل يتذوقانها في تلذُّذ، صار لهما نصيب من كعكة كوم السمن الشهية أخيرًا، بل صار للحياة ذاتها هدف بعد أن كانت هادئة كمستنقع. أفرطا في الشكر لحافظ وخرجا يسرح كل منهما في دوره.

لم يخبر الشيطانان أختهما بنيّتهما في البداية، طلبا منها شراء ملابس جديدة غير تلك المميزة للغجر، غسْل شعرها الخشن من فرط إهماله، تقليم أظافرها المتسخة الطويلة، دعك كعبي قدميها وإزاله شعر جسدها. توترت في البداية لكنها كأي مراهقة أحبّت الاهتمام بأنوثتها. هناك علامات تدل على أنيميا واضحة بجسدها، لكنها -ويا للعجب- ما زالت جميلة للغاية. عندما رأت شكلها في المرآة بعد ارتداء الملابس الجديدة -كانت رخيصة لكنها أحبتها- خفق قلبها كالطبل وهزت شعرها المغسول جيدًا بالصابون في دلال، فأطلق الشقيقان صافرات الإعجاب، ثم فتح الغضبان لفافة وأخرج منها شطائر ووضعها أمامها.

- بسم الله، عيش وملح.

هتفت معترضة في مرح ورائحة «قسمة والشبراويشي» تفوح من مسامها: نحن إخوة.

أخذت تلتهم الشطائر في نهم وتشكرهما، تركا لها نصيبهما من الطعام، وفي أثناء انهماكهما أخبراها بالخطة التي أملاها عليهما حافظ. قالت بفم مليء بالطعام في عدم ثقة: لا تقحماني في عملكما.

t.me/qurssan

بادرها الظني قائلًا: دورك هو الجلوس بجوار الزبون فقط، وإن زاد انزلي فورًا.

أطرقت برأسها وقالت في خيبة أمل: موافقة.

فتنفّسا الصعداء.

***

مدينة كفر شكر

أبريل ١٩٨٨

في الساعات الأولى من الصباح التي تنعش الروح وتمحو ما خلّفه الليل من عبث، يختلط الهواء البارد مع زقزقة العصافير فيتسرب شعور بداخلك بأن الملكوت نائم. قد تظن أن الشياطين نفسها لم تبدأ عملها بعدُ في ذلك الوقت، لا غبار، لا عوادم، لم تكشر الشمس عن أنيابها بعد. نحن في أبريل الآن، شهر الغبار والأكاذيب، كما قال عنه نجيب محفوظ.

بأحد الشوارع الرئيسية بمدينة كفر شكر، وتحديدًا أمام بيت المقاول عبده داوود، هدر محرك سيارته التي يقودها ابنه سامح، الشاب الممشوق القوام، والمذيع بالقناة الثالثة، ذو الأصول الريفية ـ كما نرى ـ والذي لا ينافسه أحد في اللهاث خلف طموحه سوى عدائي سباق الماراثون في الثواني الأخيرة.

جلس بسمرته الهادئة وقسماته الرشيقة خلف مقعد القيادة يفكر في رحلة العمرة المقبل عليها، بعد فوزه في القرعة التي نظمتها الشؤون الإدارية بماسبيرو، محل عمله. أخذ يسابق الزمن،

عاد إلى مسقط رأسه الليلة الماضية لطلب المال اللازم من والده، وإحضار جواز سفره الذي كان قد نسيه قبل الانتقال للعيش في القاهرة بعد زواجه بزميلته سمية الراسخ.

ابتسم لنفسه في المرآة مزهوًّا بخطواته الناضجة في الحياة، ثم ندت منه قهقهة رغمًا عنه، فنظر يمينًا ويسارًا كي يتأكد أن أحدًا لم يرَه. خرج من المدينة إلى الطريق السريع المتجه إلى القاهرة، وجد بعض الفلاحين النشطاء على جانبي الطريق يعملون منذ الفجر تقريبًا، ضغط على زرّ الكاسيت ليشدو محمد منير بأغنية بثت البهجة بداخله، دندن معها مرددًا الكلمات: «كانت صغيرة بضفيرة وكان هو صغير.. ساعة ما تضحك مع اخوها تلاقيه بيغير».

المطبات الأرضية العجيبة كانت تمنحه فرصة التركيز مع حركة الفلاحين، الأرض، رش البذور، الصديري، والسروال الواسع الواصل إلى الركبتين، وتلك النظرة الملأى بالبلاهة للغريب واللؤم للقريب.

فكَر في فرضية أن يكون مصيره مثل هؤلاء، ثم هزّ رأسه بقوة محاولًا طرد تلك الوساوس من رأسه، وعاد للتفكير في رحلته الروحانية، عمرة بيت الله الحرام كانت فرصته الذهبية، لم يكن قاتلًا أو سارقًا بالطبع لكنه كان مستعدًّا لارتكاب أي جريمة في سبيل أن يصبح مشهورًا، بيّت النيّة لاستغلال فرصة الوقوف لأول مرة أمام الكعبة والدعاء بنعمة أو نقمة الشهرة، أيًّا كانت.

t.me/qurssan

«زمانه ماشي بخطوة يضُمّ.. زمانها كبرت وبقت أُمّ».

هدايا لرؤسائه؟ بالطبع، الهدايا لها مفعول السحر كما نعرف حتى لو قضت على ميزانيته، وستكشف...

لحظة! هناك فتاة بارعة الجمال تشير له بالتوقف.

هدأ من سرعة السيارة ونظر إليها بعينين مدققتين.

- رباه! ما هذا الجمال؟!

لم يلحظ بشرة الفتاة الحنطية في البداية رغم عشقه لها، فأول ما لفت نظره هو عيناها الواسعتان وحاجباها الثقيلان وشعرها الأصفر الغجري الملتوي. إنها هي، توبة السنيورا، مَن سِوَاها تملك شعرًا غجريًا وتشير لقائدي السيارات المتجهة إلى بنها؟ كان قد تخطاها قليلًا فأوقف السيارة بعد عدة أمتار ثم ركن على جانب الطريق، لمحها في مرآة السيارة تعدو كالغزال ناحية الجانب الأيمن للسيارة، نظر سريعًا إلى المرآة الداخلية وعدّل من وضع شعره، ومسح بعضًا من آثار النوم ما زالت عالقة بعينيه رغم غسلهما قبل نزوله.

- ممكن توصلني إلى جامعة بنها؟

تفحّصها بدقة هذه المرّة، فتاة في العشرين من عمرها أو أقل قليلًا، وبارعة الجمال، وملابسها تدلّ على ضيق الحال. نظر إلى الخلف محاولًا التأكد من عدم وجود فخٍّ ما يُعَدّ له، لكن لا شيء، حتى إنّ قائدي السيارات من حوله لم يلتفت إليه أحدهم.

- تفضّلي يا قمر.

فتحت باب السيارة مستقلة إياها في سرعة.

«يبدو أنها معتادة على ذلك»، قالها لنفسه ثم نظر إليها بجانب عينيه وقال في رقة: هل أنت طالبة جامعية؟

قالت في سرعة: نعم.

- أي كلية؟

- الآداب.

ضحك في خُبث ثم تمتم: يا لطيف.

قرأ في وجهها نذيرًا خفيفًا بالغضب دون اتخاذ ردّ فعل سخيف، آثرت الصمت. أمّا هو فهمس له إحساسه بأنّ هذه الفتاة تحتاج إلى المال، وغالبًا ترتمي في أحضان سائقي السيارات الملاكي من أجله يوميًّا. أذعن لهذا الإحساس وقرر تأكيده، فسألها: ما اسمك؟

ردّت في اقتضاب: توبة.

أخرج صفيرًا من فمه دلالة على الدهشة، ثم ارتبك قليلًا بعدما ربط بين اسم ضيفته ورحلته الروحانية المنتظرة، لم يعلق على الاسم واكتفى بالابتسام.

«سيكون آخر ذنب لي قبل السفر»، هكذا خاطب نفسه قبل أن يوجُه حديثه إليها قائلًا في سماجة: أنت جميلة جدًّا يا توبة. هل صارحك أحدهم بتلك الحقيقة من قبل؟

ابتسمت ابتسامة باردة وقالت بسخرية: كثيرون.

كان ردّها بما يحمله من إهانة مشجعًا له على التمادي؛ كثيرون انبهروا بجمالها لكنها تجلس بجواره هو، اختاره القدَر من وسط العالم بأسره ومنحه الفرصة للتحرش بها. ضحك لهذا الخاطر، ودون أي تمهيد قبض على ساعدها وقال: لِمَ لا تتخذين مني رفيقًا هذه الليلة بدلًا من الذهاب إلى الكلية؟

نظرت إليه في تساؤل ممزوج بالحنق قائلة: ما هذا الذي تفعله؟

- معي مال، زوجتي في عملها هذا الصباح، لا تقلقي، أنا أعمل في جهاز حساس ولن أغامر بـ...

قاطعته معنِّفة إياه وهي تصرخ: ماذا تقصد يا حيوان؟

هنا غلى الدم في عروقه وبدأ في سبِّها وسبِّ آبائها وأجدادها، فأخذت تبكي بشكل هستيري دون توقُّف. وقف محرك السيارة وهتف: انزلي.

الغريب أنها رفضت، رغم الدموع التي تنهمر من عينيها، فعاد لحديثه الليِّن قائلًا: يا توبة، يا ست البنات، أنا معجب جدًّا بك، وكل ما رغبتُ فيه هو أن تصلي إلى بنها وأنت متأكدة أن هناك شابًّا قابلتِه هذا الصباح ومعجب بك.

لم تجد ردًّا مناسبًا، كان عقلها يعمل كخلية نحل دون هوادة، بداخل رأسها طنين -حرفيًا- يعلو فوق أيِّ صوت خارجيّ، الفتاة

t.me/qurssan

كان لديها أمر من زوج الشياطين ـ الظني والغضبان ـ بضرورة الوصول إلى كوبري بنها، خوفها من إفشال الخطة كان يوحي للأوغاد من أمثال سامح داوود برغبتها في المتعة وادعاء الشرف. عندما تكون طعمًا في يد الشياطين للإيقاع بالأوغاد فتأكد أن الجميع سيتنصل منك، حتى الفضيلة.

فجأة انحرف سامح بالسيارة ليدخل طريقًا ترابيًّا بين الأراضي الزراعية متفرعًا من الطريق الرئيسي، ونظر في المرآة للتأكد من عدم وجود أحد يتابعه. وقف محرك السيارة للمرة الثانية ثم قال في هدوء: لا وقت للدموع يا حلوة.

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد رؤية ما تخفيه هذه الملابس غير اللائقة بجمالك.

قالت في رعب: مثله مثل باقي أجساد البشر، أقسم لك.

ـ يبدو أنك في كليه الآداب قسم الفلسفة الفارغة.

قالت في توسُّل: أنا لا أطلب إلا الستر، أرجوك.

أمسك بالتنورة الذي ترتديه وحاول رفعه لأعلى، أمّا هي فقاومت في استماتة، دارت عيناها بسرعة باحثة عن أخويها دون جدوى، حاولت الخروج من السيارة فلم تستطع، سامح شاب في الثلاثين من عمره تقريبًا، قوّته الجسمانية وشهوته ستمكّنانه من الإجهاز عليها في دقائق، كان كالثور الهائج مستمرًّا في قطع ثوبها وصفعها، هنا لجأت إلى الحيلة النسائية الأشهر، صرخت من

t.me/qurssan

أعماقها، لم تفلح أيضًا هي الأخرى، فكرت في التظاهر بفقدان الوعي لكنه لن يفيدها بشيء، بل على العكس، كان استسلامها هو المطلوب.

دعنا من هذا المشهد الآن، لعلّ القدَر يوصل استغاثات الشقيقة الصغرى مثلما حدث مع المرأة التي أمسك رجل من الروم طرف جلبابها في السوق، فصرخت تنادي الخليفة المعتصِم، وعندما نُقل إليه هذا الحديث وضع قدحًا كان في يده يريد أن يشرب ما فيه، ونادى بتجهيز جيش ضخم حتى حرّر تلك المرأة.

لكن الظني والغضبان ليسا كالمعتصم بالطبع، كانا واقفين بجوار درّاجتَيهما البخاريتين وبأيديهما علب السجائر، وقد سرح كل منهما في الحصيلة المتوقعة من الزبون القادم.

طال انتظارهما أسفل كوبري بنها، وتعبت العيون من الحملقة في السيارات، ولم تظهر توبة.

قال الغضبان: يجب أن نتحرك يا ظني؛ أختك لم تتأخر هكذا من قبل.

ثار الظني ثورة في غير محلّها قائلًا: ليست أختي يا غضبان، قلت لك هذا ألف مرّة.

تنهّد الغضبان في نفاد صبر وقال متنهِّدًا: طيّب يا سيدي، أختي أنا لم تتأخر هكذا من قبل.

t.me/qurssan

رمقه الظني بنظرة ممتعضة ثم قال في برود: اهدأ يا غضبان.

لكن الوقت مرّ ولم يحدث شيء، لم تقف أي سيارة أمامهما ـحسب الاتفاقـ في حال حدوث شيء.

أخيرًا قال الظني في ضيق: هيّا بنا.

استقلّا الدرّاجتين وانطلق الظني في المقدّمة كالعادة في اتجاه العودة إلى كفر شكر. كان الطريق ـوقتهاـ حارَة واحدة، لكن من حسن الحظ أنهما كانا يتحركان في الصباح والحركة المرورية خفيفة. فحصا كل سيارة في المقابل دون أثر، كأنّ الأرض انشقّت وابتلعتها.

ظهر من بعيد رجل يلوّح لهما، اقترب منه الظني في شراسة غير مبررة وسأله: خير يا حاج؟

كان الرجل في العقد الخامس من العمر لكنه محنيّ القامة، يتكئ على عصا ويبدو عليه المرض، ابتلع الرجل ريقه من الخوف وقال في وهن: هناك فتاة تصرخ بتلك السيارة.

قالها وأشار بيده المعروقة إلى نهاية الطريق الترابي الذي دخله سامح منذ قليل. ضغط الظني مقوَد البنزين مرتين متتاليتين واندفع إلى حيث أشار، أمّا الغضبان فنظر إلى الرجل من أعلى إلى أسفل وصرخ في وجهه: ولماذا لم تنقذها يا رجل يا وسخ؟

نظر الرجل في عدم فَهْم وقال في بؤس: أنا يا بني عندي انزلاق غضروفي وغير...

t.me/qurssan

لم ينتظر الغضبان أن يكمل الرجل جملته وبصق على الأرض ناحيته ثم انطلق خلف أخيه، تاركًا الرجل وهو يحاول كبح دموعه بعد هذه الإهانة، مرددًا: «خيرًا تعمل شرًا تلقى»، ثم أكمل طريقه دون الالتفات ناحية الدراجتين مرة أخرى، وعصاه تسبقه.

عندما وصل الشقيقان إلى السيارة كانت توبة قد فقدت ثوبها الخارجي وحمالة الصدر فصارت عارية تمامًا في ما عدا اللباس الداخلي السفلي. في البداية ظن سامح أن الشابين سمعا صراخ توبة، لكن عندما طلبت من الظني باسمه أن يناولها ملابسها، فطن إلى أنّ هناك خدعة في الموضوع.

رعب! خضة مرعبة بالطبع، لك أن تتخيل أن توضع رقبتك أسفل نصل مُدية بسرعة خاطفة، ونظرات الظني والغضبان الشرسة التي غلفتها رغبة الانتقام تتوعدك بدقائق مرعبة.

ألم!.. ألم بشع بالطبع، أن تتلقى اللكمات والركلات والضربات غير النافذة في جسدك كله هو الألم بعينه. في الواقع كان سامح يتلقى غضب الطبقة الفقيرة من الطبقة الغنية ـ هكذا ظنوا ـ والتي تعتبر الفقراء عبيدًا لديهم، أو غضب الشرفاء الذين يسرقون حافظة نقود ـ على أقصى تقدير ـ من الفاسدين الذين يستبيحون كل شيء من المناصب وأراضي الدولة حتى شرف القاصرات.

هيئة! هيئة مزرية بالطبع، لك أن تتخيل أن الضربات جعلت من جسد سامح لوحة سريالية لفنان يهوى اللونين الأزرق والأحمر،

t.me/qurssan

لدرجةٍ أجبرت رئيس اتحاد الإذاعة والتلفزيون على التدخُّل شخصيًّا والتواصل بشكل مباشر مع مدير أمن القليوبية، قائلًا له بالحرف: حقّ الأستاذ سامح إذا لم يعُد، فسيكون تثبيت المواطنين حديث البرامج.

خسارة!! خسارة مادية فادحة بالطبع، عندما تتجرّد من مالك وسيارتك، والأهم جواز سفرك، قبل رحلتك بأيام إلى الحجاز، هي قمة الخسارة. دفتر صغير من الأوراق شبه الفارغة حرمك من جائزة كبرى، ناهيك بتوتر العَلاقة بين سامح ووالده لفترة غير قصيرة، خصوصًا بعد اختفاء السيارة، لم يقوَ على الجهر بتلك الواقعة المخجلة في البداية، وادّعى أن السيارة سُرقت من أمام شقّته في القاهرة. حمدت والدته الله على نجاة ولدها، أما والده فلم يصدِّقه، كان دائمًا ما يشكّ في سلوكه ويتوقع منه أيّ فعل مشين كالسرقة.

إهانة!! إهانة بالطبع، ألم ترَ بقعة البول الكبيرة التي انتشرت في بنطاله بعد العلقة الساخنة؟ نعرف جميعًا مصدرها جيدًا، ولم يستطع هو نسيان هذا الأمر تحديدًا.

«بريء لكن غريب.. مع أحلامي اللي جاية.. بريء بريء بريء.. ومين مالهوش خطية؟».

أمّا الظني والغضبان فواجهتهما حالة من خيبة الأمل، بعد أن أشبعا سامح ضربًا وتركاه يفرّ هاربًا كشاةٍ سُلخت. وقفا ينظران إلى السيارة، ثم ينظر بعضهما إلى بعض، ثم يحومان حولها في شغف منقوص بسبب عدم قدرتهما على قياده السيارات، لم تكن تلك

السرقة مخططًا لها لكنها حدثت، صار معهما سيارة دون سائق، كأنك وجدت مبلغًا ضخمًا من العُملة الدنماركية هنا في مصر، تحتاج إلى جهد خرافيّ لتحويلها إلى عُملتك.

عادا إلى القرية ومعهما مفتاح السيارة والإطاران الأماميان لضمان عدم سرقتها، لكن الأمور لا تسير بهذا الشكل، ما حدث لسامح لم يمر مرور الكرام كما توقعتم، لقد أعطى مدير الأمن تعليمات صارمة لضباط البحث بضبط هؤلاء الجرابيع، هؤلاء في كفة وسمعة المديرية في الكفة الأخرى. انقلبت الدنيا على الأشقاء الثلاثة، حدّدت مكانهم بعد أن أدلى سامح بأوصافهم، لم يكن الأمر مستحيلًا، خصوصًا أنهم غرباء عن كوم السمن. لكن حافظ كان له رأي آخر، تفاوضت معه الشرطة على تسليمهم عند مركز كفر شكر مقابل عدم دخول كوم السمن وحدوث مجزرة، هنا انتشرت طوابير عساكر الأمن المركزي وتم اقتيادهم إلى مركز الشرطة في هدوء، ودون تعامل بالأسلحة النارية.

شهر أبريل، شهر الغبار والأكاذيب و... الفلسفة الفارغة.

***

بعد أن تعرّف المدعو سامح عبده داوود عليهم تحرّر محضر بالواقعة.

المدهش أن التعامل معهم كان قانونيًا جدًا، صحيح أنهم متّهمون لكن حقوقهم كانت مراعاة، بداية تلك الحقوق أن توبة لم يرِد ذكرها في المحضر، لهذا قاموا بصرفها من ديوان المركز.

سامح لم يذكرها البتة خوفًا من الفضيحة. قال بالحرف: لا أعرف هذه الفتاة، لقد قام هذا الشابان بتثبيتي وسرقة سيارة والدي، هذا هو كل شيء، وعندما حاولت المقاومة قاموا بالتعدي عليَّ بالضرب بمطواة.

ـ ما ردّكم على تلك الاتهامات؟

التعامل كان مختلفًا، هكذا لاحظ الظني من اللحظة الأولى، أما الغضبان فكان يفكر في الانتقام من سامح مهما طالت مدّة حبسه.

ـ لم نسرق شيئًا.

ـ هل تتهمان الأستاذ سامح داوود بشيء؟

عاد الظني للتفكير، هل تحولت أقسام الشرطة إلى مراكز حقوق الإنسان دون أن يعرف؟!

قال الشقيق الأكبر: بالطبع نتهمه، شقيقتي كانت في طريقها إلى الجامعة وطلبت منه توصيلها، لكنه وغد خسيس؛ حاول اغتصابها. بحثنا عنها حتى أرشدَنا رجل كريم إلى مكانها، وأنقذناها.

شعر سامح بشيء ما غير مفهوم يحدث، هاج وماج وهدّد بالاتصال برئيس الإذاعة والتلفزيون، لكن الإجراءات كانت قانونية مئة بالمئة، لقد تم العثور على السيارة بالأرض الزراعية،

وأكدت التحريات عدم معرفة الشقيقين بمهارة القيادة، فلا توجد نية لسرقة السيارة إذًا.

هكذا وجد أن موقفه عسير، فآثر احتواء الموضوع وطلب تغيير أقواله، سيارته سُرقت ورجال الشرطة أعادوها إليه، لقد حدث شجار عنيف بينه وبين الشقيقين بعد أن ظنّ سرقتهما للسيارة، فقاما بضربه، وأعادها رجال الشرطة إليه. هكذا تحرك الجميع للنيابة للتصالح هناك، وأصرّ ضباط المركز على ركوب سامح في الكابينة الخلفية لسيارة الشرطة، مثله مثل الظني والغضبان.

فَهِم الضباط سبب هذا الحياد بعد نقل ما حدث إلى مدير الأمن، قال لهم بصوت يملؤه الانتصار والرضا: ما عاش ولا كان من يهددني، قال رئيس الإذاعة والتلفزيون قال.

الصراع كان أكبر من الشقيقين وسامح إذًا.

بعد عودة الظني والغضبان إلى كوم السمن، أجبرهما حافظ على ترك البلدة بعدما ورّطاه في تلك القصة، طلبا منه الصفح لكنه اكتفى بالتوسط عند تاجر سلاح بمطروح ليعملا معه. قال حافظ: صار لدي شكوك بتجنيد الضباط لكما كمرشدين، لكنني لم أنسَ كذلك جميلكما عليّ.

أقسما له أنّ ذلك لم يحدث، لكنه بقي ثابتًا على رأيه.

t.me/qurssan

خرج ثلاثتهم عند الشروق في شكل سهم، الظني رأس السهم وتوبة والغضبان جسمه وذيله، لم يُرِد أحدهم الحديث مع الآخر، الظني والغضبان كانا يعرفان وجهتهما وكل منهما لا يريد دخول كوم السمن مرة أخرى، أما توبة فقررت العودة إلى العزبة، تعرف أنها ستبحث عن عمل ولن تجد، ستحاول أن تخطب وُدّ عبلة ولن تجده، ستحلم بالدفء الأسري ولن تجده، لكن لم يكن بيدها شيء.

عند موقف الميكروباص كان عليهم أن يفترقوا، استقل الشقيقان ميكروباص القاهرة ومنها إلى مرسى مطروح، وجدت توبة نفسها وحيدة، دمعت عيناها دون أن تشعر، ونظرت ناحية السيارة التي تقلّ شقيقَيها في أسى. الفراق لم يكن يخيفها، لكن الجفاء كان يمزّق قلبها، شعرت بنقرات على كتفها فالتفتت إلى مصدرها فوجدته، سائق الكبّوت. في ثوانٍ وجدت نفسها تبكي أمامه دون تمهيد أو تفسير.

ربت الرجل على كتفها وطالبها بالهدوء كي يفهم ما حدث، حكت له قصتها مع سامح فلم يعلّق على الأمر، وقال في وُدّ: يوجد مصنع في العاشر من رمضان يبحث عن فتيات للعمل.

- أيّ مصنع؟

- لا يهمّ، المهمّ أن هناك فرصة لكسب الرزق والمبيت في مكان آمن.

t.me/qurssan

قالت في تردد: معك حقّ، سأفكر في الأمر.

قال في ثقة: دائمًا معي كل الحقّ.

قبل السفر إلى العزبة، دفع ثمن وجبة إفطارها خلسة وهي تلتهم الفول من الطبق المعدني، استدارت لتشكر الرجل ـ الذي نسيَت أن تسأله عن اسمه ـ فلم تجده، شعرت تجاهه بالامتنان وهمست لنفسها: هذا الحياء هو ما يجعل للمعروف طعمًا على ألسنة المساكين دائمًا.

***

إنكم كائنات بطولية أيها البشر بممارستكم العيش على الأرض، لأنكم تقومون بما عجزت عنه الكائنات الروحية الأخرى.

(ما قاله كائن نوراني لأحد العائدين إلى الحياة عند بوابة الموت)

***

بعد زيارة رسول السماء، تغيرت حياتنا تمامًا..

اختفى الملل وظهرت للحياة قيمة، وصرنا نعرف الكثير عن الكون، أين نحن تحديدًا منه؟ وما دورنا فيه؟ الإجابة كانت تتلخص في الإنسان، هناك اهتمام خاصّ بهذا الكائن دون سبب واضح.

t.me/qurssan

بعد وصولنا إلى العدد سبعمئة، جاءت زيارة الرسول الأولى، لم نكن رأيناه من قبل، تمت المقابلة على مرأى ومسمع من الجميع، بدأ الأمر بنور قوي يغطي سماءنا بالكامل، ثم بدأ ينحصر تدريجيًّا حتى رأيناه يجتمع في المنتصف تمامًا ويهبط بشكل أسطوانيّ بجوار بيت رقم ١. انزعجنا جدًّا، وتوجّه الأبدال ناحية البيت، كان المشهد مهيبًا، خرج علينا الرسول. هو كائن نورانيّ له أربعة أجنحة، لم نستطع تمييز وجهه، هيئته من بعيد كهيئتنا لكنها أضخم كثيرًا، منظره يمنحك إحساسًا بالرهبة بسبب الجمال والقوة معًا، لا نعلم صورته الحقيقية، أتلك التي رأيناها أم أنه تشكّل بهيئتنا كي لا يخيفنا؟ في ما بعد عرفنا أن رقم ١ عرض عليه طعامًا لكنه رفض، بعد مقابلة دامت وقتا طويلًا لم نحدّده.

بعد أن اختلى الرسول برقم ١ ، الذي يبدو أن له مكانة خاصّة، أو على أقل تقدير كان الأصلح لدور الوسيط بيننا وبين تعليمات الرب، خرج علينا من بيته وصعد الرسول إلى السماء. عرفنا أن سبب الزيارة هو تعلُّم العبادات، وهي ببساطة أقرب إلى صلوات الأرضيين، بدأ الأول في تعليمنا اللغة العربية، لأن الجميع كان يتحدث السريانية التي لم نتعلمها من أحد، الأمر أشبه بمن فقد الذاكرة من بني آدم لكنه لم يفقد القدرة على التحدث بلغته الأم.. هنا فقط صار للحياة طعم، صار للكوكب معنى، صارت هناك ذاكرة، الأبدال بلا ذاكرة مثلهم مثل باقي البشر، بلا قيمة أو على الأقل بلا هدف، بعدها تقرّبنا للخالق بالذِكر، الكثير والكثير من

الذكر، في البداية نجلس في حلقة واسعة نذكر فيها اسم الله المفرد بشكل مستمر.

ـ الله.. الله.. الله.. الله...

وبالنفي والإثبات: لا اله الا الله.

وأحيانًا أخرى بالابتهالات، بل وحتى الغناء.

عرفنا أن هذا الكون من خلق الله، وسيّد الأكوان هو نبي يُدعى محمدًا صلى الله عليه وسلم، وأنه بُعث ليتمم مكارم الأخلاق، وأن استقامتها هي المطلوب، لكن الغريب أنه لم يكن هناك خصال سيئة بيننا لتصحيحها، لقد وُجدنا وحولنا كل ما نحتاج إليه، لم يكن هناك ما يستدعي السرقة أو القتل أو الخطايا الجنسية لأنها لا تعني لنا شيئًا.

طلب منا رقم ١ أن نتعامل بطيبة ولين بعضنا مع بعض، وأن نقضي أوقاتنا إما في النوم وإما في الذِّكر. ارتاحت عقولنا فترة بعد زيارة الرسول الأولى، لكن بقي ذلك السؤال الوجودي الذي لازمني منذ اللحظة الأولى، ولم يستطع أحد الإجابة عنه: لماذا كل هذا من الأساس؟ نحن لا نخطئ كي نتوب، لا نتصارع كي نخطئ، ولا يوجد تمييز لأحدنا على الآخر كي نتصارع، حتى رقم ١ لم يطلب القيادة أو أغرقنا بالأوامر كي ننفر منه.

عاد الملل يتسرب إلى نفوسنا مرة أخرى، لكن دون إخلال بالذكر أو حسن التعامل.

t.me/qurssan

في يوم سألت جاري، ورقمه ٣٠٩، السؤال الذي تجيش به نفسي: ما الداعي لهذا كلّه حقًّا؟

نظر إليّ في شرود وحزن غريبين ومتأصلين في كل الكائنات الحية دون سبب ولم يُجِب، لم أكن أنتظر منه الإجابة صراحة، لهذا أطرقت برأسي للأسفل وقلت في نفسي: أستغفر الله لي ولك.

هكذا استمرت الحياة، لكن كان لدينا دائمًا شعور بأن زيارة الرسول ستتكرر، تلك الزيارة كانت الإثبات لكوننا موجودين وهناك ما ينتظرنا في المستقبل، كنا عطشى لهذا اللقاء، ودعونا الله كثيرًا آملين في الاستجابة.

الزيارة الثانية طال انتظارها كثيرًا، كثيرًا جدًّا، شعرنا بالقلق لهذا الغياب لكنها جاءت بعد فترة، مشبعة، ثرية، مليئة بالإجابات والأوامر والوعد والوعيد.

بعد أن اختفى نور الرسول في السماء تدريجيًّا، خرج علينا رقم ١ -أو زعيمنا بأسبقية التجربة والعلم والمعرفة- من بيته وفي يده بعض الكتب الضخمة، ساد صمت مطبق لم يقطعه سوى صوت جاري العزيز رقم ٣٠٩ قائلًا بصوت جهوري لم أتوقعه منه أبدًا: يقتلنا الفضول يا أخانا العزيز، أرح صدورنا واقصص علينا ما سمعته من رسول السماء.

حدجه رقم ١ بنظرة لها معنى وغير مألوفة علينا، ثم قال في صرامة: الفضول يحرم عديمي الإيمان من التلذذ بحكمة السماء مثلما فعل بموسى مع الخضر.

كانت الجملة السابقة بمثابة إنذار قوي لانتهاء عصر الملل، ليس هذا فقط، بل نبهتنا إلى أنه صار هناك زعيم لعالمنا لا يقبل الجدال، كانت زعامته بأسبقية تلقي المعرفة من الرسول، وقوة الرسول تأتي من السماء، ومن يسكن السماء العليا لا بد أن يكون أكثر قوة، والأكثر قوة هو من يملك العقاب، ومن يملك العقاب هو من يحكم.

بدأ الأمر بشرح ماهية الإنسان وتاريخه، وكيفية تعميره لكوكب الأرض، ومدى أهميته لدى الخالق، والأنبياء والفرق بيننا وبينهم، ورغم قوّتنا وأننا الأذكى والأكثر تعبدًا فإنّ رقم ١ صارحنا بحقيقة غريبة بعض الشيء: لن يدخل أحدنا جنة الخلد ومجاورة الذات الإلهية إلا بعد تنفيذ مهمته على كوكب الأرض بنجاح.

في البداية انزعجنا للغاية وانهالت التساؤلات، فرق كبير بين السماع عن بني آدم والتعامل معهم وجهًا لوجه، فما طبيعة تلك المهام وكيف سيتقبّلنا البشر بهيئتنا المختلفة عنهم؟ والأهم من ذلك هو لماذا تقرن مصائرنا بكائنات ليست من جنسنا؟

بدأت المهام تتضح عندما فهمنا أن أجناس البشر سبعة، أو بمعنى أدق يجتمع ذوو العرق الواحد في مناطق قريبة بعضها من بعض، وهم: العرق الأسود ويتمركزون في قارة إفريقيا، والعرق الأبيض وهم الأوروبيون، والأصفر في مناطق ضخمة في آسيا، والعرق اللاتيني ولهم قارة منفصلة، والعرق الجديد في دولة تعرف باسم أمريكا، والعرق القوقازي في البحر الأبيض المتوسط والهند،

أما العرق الأخير فأطلقوا عليه عرق الأقليات مثل سكان الإسكيمو والسكان الأستراليين الأصليين، الهنود الحمر، إلخ.

أما نحن فتم تقسيمنا إلى سبعة فصائل، كل فصيل عبارة عن مئة من الأبدال، ليدرس كل جنس بشري على حدة. كنت أنا وجاري العزيز ضمن الفصيل المسؤول عن العرق القوقازي، دراسته لم تكن هيِّنة أبدًا، يعتبر من أعقد الأعراق وأهمها، يكفي القول إنّ الديانات السماوية الثلاث التي يدين بها البشر نزلت هناك، بل عرفنا أن صوت الله عز وجل قد تردد في منطقة هناك تسمى سيناء وتتبع دولة محورية للغاية تدعى مصر.

هذا الجنس شرس كذلك للغاية، يعيشون في الدول التي تتكلم العربية والفارسية والتركية ويتميزون باعتدال الشفة وبروز الفكين واستقامة العينين وكثرة شعر الجسم، تتراوح بشرتهم بين اللون البنى والحنطي إلى البياض المشوب بالحمرة. لا أعلم تحديدًا لماذا اصطفاهم الخالق بنزول الديانات الثلاث الرئيسية وفي مساحة محدودة للغاية، لعلها محنة أو اختبار لكثرة الصراعات الدائرة بتلك المنطقة.

هكذا بدأنا في التهام الكتب بنهم بعد نسخها من رقم ١. رأينا أشكالهم وقرأنا بشغف واهتمام أبويّ، صراحةً مشاعر هذه الكائنات غريبة حقًا، حب، كراهية، حقد، غيرة، شك، زهد، إلخ. كان الزهد من أكثر الطباع التي استوقفتني؛ إنهم يشبهوننا في تلك الحالة، الزاهدون في الأرض هم أكثر البشر ذكاءً.

يومهم قصير، ومتوسط أعمارهم لا يتعدى خمسة وعشرين ألف يوم، ومع ذلك يصرّون على ارتكاب كل الموبقات، أما صغارهم فمثيرون للشفقة، تلك الفترة هي الوحيدة في حياة الإنسان التي يكون محافظًا على نقائه بها، أمر غريب أن تكون صغير الحجم، بسيط العقل، مطمئنّ الروح، ثم بعد عدة سنوات تصبح كبيرًا، عاقلًا، لكن متمرد النفس، تميل معها إلى العصيان.

نعود إلى عالمنا، وأول تجرِبة لنا مع البشر على أرض الواقع، أول انتقال فعليّ إلى عالمهم المجنون والتغيرات العجيبة التي حدثت في حياتنا بعده، في تلك الفترة كان الجميع في انتظار المهمة الأولى، توقعنا أن تكون مع رقم ١ أو رقم ٧٠٠، وهو آخر الأبدال في فصيل العرق الجديد، وبدأنا نتخيل كيف ستكون الأوامر المطلوبة، عن نفسي توقعت أن يكون الانتقال إلى الأرض عن طريق الرسول، ربما سيحمل كل بدل ويذهب به إلى الأرض، وهكذا كل مرة.

شعرت بالرهبة عندما أضاءت السماء بقوة معلنة عن وصول الزيارة المنتظرة، الرسول جاء أيها الأبدال، جاء ومعه خطة من الرب تقربنا منه، ما أجملها من فكرة تخمرت في رأسي مسافة نزوله إلى كهف رقم ١، ثم تبخرت تمامًا عندما غادرنا الرسول بعد لقاء قصير. الاختيار وجدناه عشوائيًا، إذ يتم بمعرفة السماء دون غيرها من بين الفصائل السبعة، لكن المهام توزع بالترتيب من آخر بدل بالفصيل حتى أوله، عرفنا من رقم ١ أن الاختيار قد وقع على رقم

٥٠٠، آخر الأبدال في فصيل بلاد الصفر، في البداية ناداه رقم ١ وبدأ يتمتم بشيء ما وهو ممسك بلوح مضيء وطويل نوعًا ما، عرفنا أن اسمه لوح المهام.

قال لنا: هذا الدعاء المكتوب بالنور هو وسيلة انتقالكم إلى الأرض، سيحفظه أخوكم الآن عن ظهر قلب، ولن ينطق به أمام أحد منكم.

قالها ثم أمسك بجناحَي رقم ٥٠٠ من منبتهما وبدأ يتلو شيئًا ما حتى سقطا من فوق ظهره، كان حماسي قد اشتعل والجناحان يسقطان أرضًا كأنهما مخلوقان من الشمع، أما أثر سقوطهما على جسده فكان بسيطًا، فقط ظهر جزء من اللحم دون أن يظهر ألم على وجه رقم البدل المكلف. توقعت أن يكون شكل الجناحين مثيرًا للشبهة عند البشر، كذلك كان الإثبات الوحيد على نجاح البدل في مهمته بعد العودة هو عدم نموّ هذين الجناحين مرة أخرى، لا توجد وسيلة لمتابعة الأرض من عالمنا، جسدك هو الشاهد على نجاحك أو عدمه. عاد كل منا إلى بيته وعرفنا أن رقم ٥٠٠ قد انتقل بالفعل بعد أن تلا الدعاء، هنا لا بد أن نشير إلى أن البدل يتلقى طبيعة مهمته في إيجاز شديد، ويقضي في الغالب من عام إلى خمسة للاندماج مع مجتمعه الجديد بين البشر.

كانت المهمة بسيطة للغاية، سيجد رقم ٥٠٠ نفسه في عام ١٢٧٩ بعد ميلاد المسيح في منطقة تدعى الصين، في تلك الفترة كانت هناك مملكة صينية تدعى أسرتهم سونغ، تحكم البلاد،

وهناك غزاة مغول قادمون من الشمال تدعى أسرتهم يوان، تحاول تحقيق نصر تكتيكيّ ساحق لإسقاط مملكة سونغ نهائيًّا منذ فترة، ويحكم دوران كوكبهم حول نفسه وحول الشمس فإن معركة ضخمة ستدور بين المملكتين في يوم ١٩ مارس من نفس العام، هُزمت بها قوّات مملكة سونغ، وحاصرت سفن يوان إمبراطورهم صغير السن، فبادر مستشاره لوشيوفو إلى الإمساك به والقفز إلى المحيط حيث غرق كلاهما كي لا يقعا أسيرين.

كان دور رقم ٥٠٠ هو الهمس في أذن المستشار لوشيوفو بفكرة الانتحار قبل الإمساك بهما، الأمر لا يتعدى طرح الفكرة أمام المستشار والابتعاد عن المشهد سريعًا، ومِن ثَمّ العودة إلى الأبدال دون حتى النظر إلى مصير كليهما. الأمر يبدو هيّنًا للغاية في الظاهر، لكنه كان صعبًا لدرجة تصل إلى الاستحالة على أرض الواقع، فمثلًا كيف سيحافظ بطلنا على حياته في تلك الفترة الدموية من تاريخ بلاد الصفر؟ كيف سيلتحق بجيش مملكة سونغ والتقرب من مستشار الإمبراطور لدرجة عرض فكرة الانتحار عليه؟ والأهم من ذلك كيف لكائن في هيئته القريبة للعرق الأبيض بالاندماج داخل عرق مميز بعيونه الصغيرة وقِصَر القامة والجبهة العريضة دون ريبة من الجميع؟

صراحةً هذا ليس موضوعنا الآن، لقد مرت فترة طويلة بعد أول رحلة، لكن كي لا يقتلك الفضول فإنّ مدخل الانصهار داخل المجتمع الصيني كان عن طريق مكتب رئيس الشحن البحري في

ميناء البحر الجنوبي في مدينة تشونغ تشو أو مدينة الزيتون كما أطلق عليها العرب.

كان المكتب يدار من قِبل المسلمين في تلك الفترة، إذ ادّعى رقم ٥٠٠ أنه واحد من تجار العرب الذين جاؤوا من نسل ١٠/٠٠٠ عربي -ويطلق عليهم اسم الداشي- هاجروا عام ١٠٨٠م إلى الصين على ظهور الخيل واستقروا بجميع المحافظات هناك، تزوّج مسؤولون صينيون بنساء الداشي، وعندما غزت مملكة يوان مناطق تمركز العرب وأسروهم وجعلوهم جنودًا، ادعى رقم ٥٠٠ أنه هرب منهم لأن ولاءه لمملكة سونغ، وحبّه للكونفوشيوسية الجديدة وإبحاره في علمها قرّباه من رجال السياسة بالمملكة، بل إنّ هيئته المختلفة كانت سببًا في استدعائه كل فترة للتعرف عليه بشكل أفضل حتى وصل إلى المستشار ليشوفو وبدأ في كسب ودّه بعلمه وحكاياته التي يعرفها عن العرب.

رقم ٥٠٠ عاد إلينا أخيرًا، كان يرتجف، صراحةً هذه تجرِبة قاسية للغاية، وخصوصًا عليه لكونه أول من تطبَّق عليه هذه ال... صراحةً لا أجد وصفًا دقيقًا لما يحدث، الاختبار؟ هو اختبار بالفعل لكنه اختبار غير مريح إن فهمت قصدي، أيام وليالٍ طويلة على الأرض لمجرد أن تطرح فكرة أمام الإمبراطور فتصير الفكرة واقعًا، الأمر لا يخلو من خديعة أو عبث من غرابة الفكرة، ثم... ثم لم ينمْ جناحا رقم ٥٠٠ مرة ثانية، هكذا اطمأن لنجاح مهمّته ومرور الأمر في سلام.

بعد فترة قصيرة بدأت تظهر علامات عجيبة على رقم ٥٠٠ لم نرَها من قبل، صار رقم ٥٠٠ أقرب للكآبة والحزن، وبدأت ملامح وجهه تتغير، ظهر ما يسمى بالتجاعيد وترهُّل الجلد، انخفضت حدة بصره وسمعه، وظهر شعر الشيب برأسه، أما عن حركته فصارت بطيئة ومحدودة، ردود أفعاله عامة صارت متأخرة، فهمنا أن الأبدال يموتون بعد عودتهم من الأرض، لكننا لم نعرف أن الأمر بهذه السرعة والكيفية.

غريب أمر الموت حقًّا، المفترض أننا كائنات بعيدة عن السيئات والكبائر ونقضي حياتنا في الذكر، لكن بعدما نجح البدل في مهمته وأصبح مقبلًا على لقاء ربّه، وجدناه شاعرًا بالكآبة!

أعتقد أن المجهول له رهبته، ترك الأصدقاء له لوعته، والأهم من ذلك أن فكرة انفصالك عن جسدك ودخول روحك في وعاء جديد يثيران في نفسك الجزع، هكذا التففنا حول زميلنا في محاولة منا لبثّ الطمأنينة في نفسه، وبدأ يحدّثنا في غموض عن تجربته: أشد ما يميز حياة الإنسان إثارة هو الظلام الدامس، نحن لا نغمض أعيننا أبدًا إلا عند النوم، فلنجرب ذلك الآن.

أغمض الكل عينيه، وسمعناه يعاود حديثه في هدوء وحكمة: الظلام يثير في النفس ذكريات مبهمة، حياتك الأولى، أصلك، بئر سحيق لا يخيفك، بل تشعر بانتمائك إليه وتودّ السقوط فيه، أنت متعب من كل شيء ومن اللا شيء، وتود أن ينتهي كل ذلك، أن

t.me/qurssan

تعود إلى مرحلة ما قبل النوم في بيت محفور في الجبل، هل ترون تلك الخيالات؟ وجوه نساء ورجال من بني البشر لا نعرفهم، صفاء العقل مرعب أحيانًا لأنه يجعلك تفكر في أسباب ما نعيشه، أنا على وشك الموت أيها الأعزاء ولم أصِل إلى حلّ اللغز بعد، والذي جمعكم حولي الآن بهذا الشكل. صحيح أنني خضت تجرِبة ضخمة أخذت من عقلي سنوات، لكنها زادت من شتات فكري، وهذا السؤال يلحّ عليَّ يوميًّا هناك في أرض البشر دون إجابة، من نحن حقًّا؟ لقد كنت موفقًا بفضل الله في تلك التجرِبة، لكنني حزين جدًّا دون سبب، ربما لأن رسول السماء لم يخبرنا بمصير من يفشل منا، أظن أنه النار، لهذا كونوا حذرين، كونوا على وعي بأن مصيركم مرهون بحياة رجل أو امرأة أو طفل من بني آدم، لهذا أوصيكم بتنفيذ أوامر السماء دون تفكير أو محاولة بائسة للفهم.

عاد كل منا إلى كهفه، وبعد فترة مات رقم ٥٠٠، مات دون أن يعلم شيئًا أو يقول شيئًا ذا قيمة، مثلنا تمامًا.

التجرِبة الثانية كانت في بلاد الصفر أيضًا، تحديدًا في بلدة اسمها كيوتو عاصمة اليابان، ظننا في البداية أن الرحلة ستبعد عن بلاد الصفر هذه المرة وتنتقل إلى فصيل جديد، لكننا كنا مخطئين للمرة الألف، لم نستطع فهم السماء أبدًا.

أما التجرِبة الأولى للعرق القوقازي فكانت الخامسة على ما أذكر، وكانت لرقم ٤٠٠. كانت لتلك الرحلة أهمية خاصة بالنسبة

t.me/qurssan

إليّ، وتحدثنا فيها أنا وجاري كثيرًا، تلك الرحلة كانت في منطقة تدعى إسبانيا.

كان هناك طفل في بلدة صغيرة على وشك الإصابة بمرض الطاعون، المهمة كانت إبعاده عن أسرته، أو بمعنى أدق خطفه والهروب به حتى بلاد المغرب العربي، ثم تركه هناك دون تحديد الأسرة الجديدة التي سترعاه. كانت مهمة أقل صعوبة من المهمة الأولى نظرًا لأن البديل غير مجبر على الانصهار داخل المجتمع الإسباني، كانت مشكلته الكبرى في اللغة نظرًا للكنته الغريبة عنهم، الحل كان في ادعائه الفقر والمرض حتى يبتعد عنه الجميع، عاد إلينا ولم يختلف تعليقه عن رقم ٥٠٠ ومن تلاه.

- الإنسان لا يستحق كل هذا العناء من أجله بسبب سلوكه الدنيء المستفز. وبالطبع السؤال الأكثر استفزازًا: لماذا كل هذا؟

لم يعُد الأمر مدهشًا كما لاحظتم بالتأكيد، سيقول وصيته ثم يموت: لا تخالفوا تعاليم الرب.

لا أعلم تحديدًا ماهية المخالفة، عدم القدرة ليس دليلًا على تعمد الخطأ، الرب يعرف أنك تقدر، لن يرميك في النهر قبل أن تتعلم السباحة.

- بالإرادة تحقق كل شيء.

ثم استطرد باكيًا: كانت نظرات الطفل فردينان تقتلني رغم أنني مبعوث لحمايته، لكم تمنيت مصارحته بدوري في حياته، لكنني خشيت من غضب السماء عليّ.

الأمر يتلخّص في الصبر إذًا، ليس مهمًا أن تعرف حياتك كلها من البداية، يجب أن تصبر حتى تعرف المراد منها، لكن ماذا لو كان البؤس الذي تمرّ به هو مرحلة لإسعاد شخص ما، أو نجاحه في مهمّته هو كارثة بالنسبة إليك؟ إذًا الصبر ليس مقرونًا بالسعادة في آخره لأن آخره قد لا يأتي في حياتك، قد يأتي في الآخرة، هذا تفسير مناسب للبقاء حيًا وانتظار قيامتك كإنسان، أما عن قيامتنا نحن فهي أمامنا، نعرف وقتها، نعرف مصيرنا قبل أن نموت، وكنا حزانى رغم ذلك بشكل ما.

لماذا كل هذا؟ لا يهمّ، كنت أنتظر دوري لأقوم به بصورة صحيحة لأدخل جنّتي وليكن ما يكون. الله هو القائم على هذا الكون كله ودوري هو تنفيذ رغباته، أما عن الإنسان فليكن الله في عونه، قد تكون جنّته أكثر جمالًا وراحة من جنتنا، وربما لا، لكن المؤكد أننا نشترك في نفس التساؤل والجهل بالإجابة.

لماذا خُلِقنا من الأساس؟!

***

t.me/qurssan

اسمها خديجة هاشم فضل الله، وجه مصريّ جذاب مصبوغ باللون الحنطي المميز للمصريين، وتحمل شهادة دبلوم تربوي، لا نعلم تحديدًا اسم المعهد الذي يمكنك الحصول على تلك الشهادة منه، في الغالب كان واحدًا من تلك المعاهد التي تجمع المال ممن يرغبون في حمل شهادة ولا يملكون العقل. بعد تخرجها أغلق المعهد أبوابه لأن صاحبه لم يعُد يملك الضمير بعدما جمع المال.. أدركت بعد ثلاث سنوات من الدراسة أنها غير مؤهلة للتدريس حتى لرياض الأطفال. السؤال الذي قضى على كل محاولاتها في إيجاد عمل كان يخص شهادتها دائمًا: ماذا يعني دبلوم تربوي؟

لم تكن هي نفسها تعلم، وأصابها اليأس. وبعد وفاة والدها وزواج الأم بقريب لها، قررت خديجة تغيير مجال البحث، انتهى بها المطاف واقفة في خجل تنظف أحشاء الدجاج بأحد المحالّ. جمالها أقل من المتوسط، تعليمها أقل من المتوسط، وأسرتها أقل من المتوسطة، لكنها ـ لسبب ما ـ اعتبرت أن تلك المهنة لا ترقى إلى مستواها، الرائحة الكريهة الخاصة بالدجاج، والثياب الملونة بالدم طَوال الوقت، والزبائن التي لا ترحمها سواء بالسباب أو بالتحرش، كل هذا لا يليق أبدًا بأحلامها وفهمها للحياة. لم يكن لديها طموح أو حتى رغبة في الزواج، صحيح أنها متوسطة الثقافة أيضًا لكنها كانت تملك من الحكمة ما يجعلها تعزف عن الزواج، العالم مليء بالبؤس والدجاج، وقد نالت نصيبها من الاثنين، فلا داعي لرهان خاسر جديد. كانت في الحادية والعشرين من عمرها،

ولم يتقدم إلى خطبتها أحد رغم تأكيد الأم يوميًا: أنت أرشق فتاة في الدويقة، سيأتي نصيبك عما قريب.

لكن الأمر لم يكن يشغلها مطلقًا.

ذات يوم عرض عليها جارها فرصة عمل بمدينه العاشر من رمضان.

أحد المستثمرين السعوديين خطط لغزو سوق صناعة الزجاج وبدأ التنفيذ بالفعل، اشترى قطعة أرض ضخمة مسورة وبنى بداخلها مصنعًا على طراز حديث، استراحات للعمال المغتربين، عيادة في حالة حدوث مكروه لأحدهم، ناهيك بالتأمينات ووسائل الترفيه.

بعد أن التهمها الجار بعينيه وإلقائه للدعابات السمجة، قال في وُدّ: ما رأيك في العمل في هذا المصنع؟ أنا مدير حسابات هناك، أستطيع مساعدتك إن أردت.

هرشت في رأسها وهي تركل إحدى الدجاجات برفق، لم تكن تعلم المغزى من هذا العرض، حاصرها الشك وسألت نفسها: هل هناك من يهتمّ بأمري حقًّا؟ صحيح أنني رشيقة، لكن ليس لدرجة لفت انتباه أحدهم. هذا الرجل إما أنه يريد نسبة من الراتب بعد توظيفي، وإما أنه مهووس بمشاهدة دماء الدجاج على الجلاليب الضيقة.

قالت له بعين قلقة: متى أحضر أوراقي؟

أجاب بسرعة: من اليوم إن أردت.

t.me/qurssan

لم تكن تعلم شيئًا عن صناعة الزجاج بالطبع، لكن عن أي شيء كانت تعلم؟ لديها ميزة هامة، هي أنها لا تنسى شيئًا كالأطفال، مهما كانت الأوامر لديها ستنفذها بكل دقة.

بعد الإجراءات الإدارية استلمت الوظيفة، كان دورها في المصنع هو الوقوف أمام سير كهربائي لتعبئة لمبات النيون داخل الكرتون المخصص لها. العمل ليس شاقًا، وسألوها عن مضاعفة عدد ساعات العمل مقابل وجبات يومية وإقامة بإحدى الاستراحات فوافقت على الفور.

دعنا نصف لك الاستراحة، هي أقرب إلى استوديو، يوجد بها أريكتان متوسطا الحجم متقابلتان وطاولة صغيرة بينهما، هناك غرفة نوم وحيدة ودورة مياه منفصلة، أما المطبخ فهو في الصالة ومكون من موقد صغير بلا فرن وبجانبه أسطوانة غاز صغيرة. التلفاز مثبت بالحائط ويعرض مسلسلات فترة نهاية الثمانينيات الشهيرة مثل «الراية البيضا» و«ليالي الحلمية»، إلخ. الحق يقال، لا يوجد فرق ضخم بين أثاث البيوت العادية في ذلك الوقت وبين هذه الاستراحات، المساحة صغيرة، وهذا أمر بديهي بالطبع، كل الاختلافات الجوهرية بين البيوت ظهرت مع بداية القرن الحادي والعشرين.

خديجة كانت من قاطني مصر القديمة، تحديدًا في منطقة الدويقة، هناك يعيش مئات أضعاف سكان مدينة العاشر من

رمضان، المدينة شبه الخاوية كانت تحمل طابعًا جافًّا، والاستراحة كانت تشعرها بالوحدة دون سبب، لكن التجربة كانت تستحقّ.

بعد فترة أحسّت أنّ المعيشة صارت أفضل، تعمل وتوفّر المال شهريًّا، وأحيانًا تخرج للهواء الطلق وبراح الشوارع، كانت قلقة نوعًا ما من مدير الحسابات، لكنها وجدت نظامًا صارمًا داخل المكان، الرجل لم يكن يريد سوى التقرّب من مدير المصنع بتوفير عمالة جديدة، فقط كانت عيناه تلمعان كلما قابلها، أما عن التحرش والمخاطرة بمستقبله فكان مدركًا أن وليمة الطعام أهم كثيرًا من وليمة الفِراش.

لم تنسَ بالطبع أن تلقي نظرة على ذاك المستثمر، كان الرجل في العقد السادس من العمر، قصير القامة، ممتلئ الجسم قليلًا، سمعت كثيرًا عن أثرياء الخليج ورغباتهم المستمرة في التأكد من خصوبة نساء مصر، لكنها لم تسمع عن أي تجاوز قام به حتى في حياته الخاصة. كانت تبتسم بعد أن تسرح بخيالها للحظات في إمكانية زواجها به وحصولها على لقب «سيدة المصنع الأولى»، لم يدُر ببالها قَط أن المستثمر السعودي كان يبحث عن أمر واحد فقط يهمه في مصر، ألا وهو الاستثمار، جهّز استراحة له داخل المصنع ليتابع بنفسه مشروعه الجديد، دار بالطبع العديد والعديد من الأفكار برؤوس العمال عن تلك الاستراحة، لكن لم ينَل أحدهم شرف رؤيتها سوى مدير المصنع، وفي مرات نادرة. لم يحكِ بالطبع لأنه غالبًا لم يجد شيئًا ذا قيمة للحديث عنه، اللهم

إلا بعض الأجهزة الكهربائية التي كانت مصدرًا للفخر في ذلك الوقت، أما بخصوص النساء العرايا، والنمور الحبيسة، والغلمان البيضاء، والزئبق الأحمر، فلم يجد شيئًا مما سبق، هذا المستثمر كان مُصرًّا على أن يكون مستثمرًا فقط، والعمال مُصرّون على وجود شيء ما لكنه لن يظهر سريعًا، حتى الحكومة المصرية كانت تبعث له شهريًّا مناديب هيئاتها المرفقية مثل الكهرباء والضرائب والدفاع المدني لمعرفة سرّ تلك الخطوة الجريئة، هناك شخص راجح العقل ويرغب في الاستثمار حقًّا بمصر، يجب أن ينتهي هذا العبث بأي شكل. لكن الرجل ـ ويا للعجب ـ لم تكن تفوته فائتة.

قالت لنفسها: يبدو أنه خليجي محتشم.

تدريجيًا بدأت أفكارها تتغير وتصفو، تلك الأفكار الجمعية التي نكتشف عدم وجودها على أرض الواقع فنصبح أكثر حكمة، المصريات لسن راقصات، أهل الخليج لا يبحثون عن العهر الأخلاقي، المغرب العربي لا يمارس السحر في أوقات فراغه، والشعوب الغربية المرفهة لا ينتحرون بعد امتلاك كل شيء لأنه ببساطة لا أحد يمتلك كل شيء.. كانت أفكارها تتغير بالفعل.

كانت في الصغر كثيرة اللعب بشكل مثير للدهشة، وتوقّع لها الجميع مستقبلًا فاشلًا، وهو ما حدث بالفعل، لكنها شعرت أنّ الله يمنحها فرصة جديدة للتغير، الحياة بها العديد من التحديات والمزايا بخلاف الزواج والأطفال، هكذا كانت تنام كل ليلة وهي مفعمة براحة البال والسلام النفسي.

عالَم آخر جديد عرفت معالمه من زميلة السكن الجديدة، تلك الزميلة التي أحبتها خديجة بمجرد رؤيتها ومعرفة اسمها، توبة معوض السنيورا، اسم غريب جذبها إلى عالَم أغرب لم تكن تعلم عنه شيئًا، عالَم من الأسرار والقواعد واللهجات النادرة، عالَم تمنّت زيارته أو رؤيته بالعين في الواقع.. عالَم الغجر.

اسمها خديجة فضل الله، وتحمل شهادة دبلوم تربوي، لم تكن تعلم فائدته، لكنها تأكدت بعد عملها في المصنع أنَّ ثلاث سنوات قد ضاعت من عمرها.

***

محافظة مطروح

مدينة سيدي براني

هل سمعت من قبل عن خبايا عالَم تهريب السلاح داخل مصر؟

نبدأ بأسباب مَن يريدون اقتناء السلاح، الأسباب لديهم مختلفة، كالثأر مثل أهل الصعيد، أو الحماية من الانتقام، أو الاقتناء والتباهي بين العائلات ذات النفوذ القبلي والاقتصادي، وأحيانًا بهدف الحماية من الحيوانات الجبلية المفترسة، إلخ.

لا تتعجب عندما تجد عاملًا زراعيًا لا يزيد دخله اليومي على جنيهات معدودة ويتباهى بسلاحه الآلي الذي يتجاوز ثمنه

t.me/qurssan

آلاف الجنيهات، فالسلاح يعادل قيمة الرجولة، مثله مثل الشارب الصعيدي.

أما تجار التجزئة، وهم يلعبون دور الوسيط بين كبار المهربين ومن يريد اقتناء السلاح، فهؤلاء يتخذون من البؤر الإجرامية في كل محافظة وكرًا لهم، ولنا في حافظ الدكش خير مثال. تجار التجزئة يحصلون على السلاح من تجار محافظتي مطروح أو سيناء، أما السلاح فيأتي أساسًا عن طريق البرّ مثل السودان، أو البحر حيث تأتي المراكب بشحنات السلاح على الحدود المصرية من السلوم حتى أبي قير، حسب المكان المتفق عليه لتسليم الشحنة، وحجم المركب الذي ينقلها. المركب الصغير يفرغ حمولته على الشاطئ مباشرة بينما المراكب الكبيرة (الجرافات) تتحرك إلى أي مكان يريده المهرب. ينبغي بالطبع تغليف الشحنة بشكل محكم لمنع الماء من الوصول إلى السلاح، إذ يتم تغليف كل قطعة سلاح بمفردها ثم تجمع كل ١٠ أو ١٥ قطعة في صندوق كارتوني ويغلف بكيس أسود، ويغلف مرة ثانية بالعازل، ويتم ربط كل ٢٠ أو ٣٠ لفة بحبل معها حتى يتمكن الغواص من سحبها إلى الشاطئ، ويتكرر الأمر نفسه حتى تنتهي بها الحال إلى أحد مخازن السلاح، التي سنأتي على ذكرها بعد قليل.

يتم ترويج وتسويق السلاح على نطاق ضيّق جدًا لا يخرج عن أبناء القبائل، خصوصًا في ما يتعلق بالكميات الكبيرة، كل من يريد شراء السلاح لا بد أن يستعين بأحد أبناء القبائل الذي يضمنه

t.me/qurssan

ويثق به، هذا عُرف سائد عند تجّار السلاح، يرجع إلى أنَ القبائل يحكمها قانون العرف فلا يقدر أبناء القبائل على خيانة بعضهم بعضًا لأن العواقب ستكون وخيمة، إذا ما حدث ذلك فالخائن يتسبب في رحيل قبيلته بكامل أفرادها خارج المحافظة. على سبيل المثال، كان حافظ الدكش يتعامل مباشرة مع ابن قبيلة الحاوي ومَلِك تجارة السلاح في مصر، عدنان الحاوي.

نحن الآن في سيدي براني، مدينة صغيرة تقع بالقرب من مطروح يسكنها العرب البدو، وهي شبه خالية بسبب طبيعتها الرملية الصخرية الوعرة، تنتشر فيها العقارب والثعابين، ومياهها من الآبار الجوفية.. هناك مقهى بلدي يجلس فيه بعض أشخاص تجمعهم الطبيعة المختلفة للبلدة، يهمنا منهم الشقيقان، الظني والغضبان. بعد عشر ساعات قطعاها في السفر، جلسا ينتظران دخول عالَم تهريب السلاح بعد أن مهّد حافظ الدكش لهما الطريق. كان الإرهاق قد بلغ بهما ذروته، طلبا المشروب الوحيد الذي يقدم هناك، الشاي، وهما يقاومان النوم بشتى الطرق.

في التاسعة مساءً، أي بعد نحو ساعة من الانتظار، وقفت سيارة من فئة الدفع الرباعي يقودها سلمان العبيدي، وهو الساعد الأيمن لعدنان الحاوي، أمام المقهى، وهو المكان المتفق عليه مسبقًا. ركب الشقيقان دون حديث مع قائدها، الذي انطلق بهما على الفور. ساد الصمت والظلام، لا يشقّه سوى صوت المحرك ونور السيارة القوي، بعد نصف ساعة من التوغل في الصحراء

توقفت السيارة أمام سور من الخوص يتوسطه باب خشبيّ، وصاح سلمان بلهجة بدوية قائلًا: يا عرب.

فتح أحد الأشخاص الباب ليدخل ثلاثتهم، المكان عبارة عن حوش كبير يتوسطه بيت من ثلاث غرف وصالة استقبال، جميعها مفروش بما يسمى «قعدة عربي». جلسوا في إحدى الغرف، وبعد تناول التحية سألهم صاحب المنزل في حدّة كعادة البدو: شغل أم حماية؟

نظر الشقيقان إليه في حيرة رغم فهمهما للكلمة الأولى، فتدخّل قائد السيارة مجيبًا: شغل يا شيخ، الحماية لا نبغيها، الاثنان نظيفان.

يبدو أن الثانية تعني المحكوم عليهم أو الهاربين من قضايا. ردّد الرجل: شغل، طيب، على بركة الله.

خرج الأربعة تاركين السيارة لتبدأ رحلة الجِمال، كان الشيخ ـ وهو الدليل في نفس الوقت ـ يحفظ الطرق والمدقات عن ظهر قلب، مجرد بدوي يعيش في الصحراء لا تشغله أي رفاهية ورأس ماله هو ذاكرته.

بعد نحو ساعة أخرى وصلوا إلى مخزن للسلاح في قلب الصحراء، المخزن هو مجرد غرفة مضيئة في باطن الأرض، في تلك الفترة لم يكن هناك سوى هذا النوع من المخازن، ميزتها هي بساطة التكلفة وعيبها قِصَر فترة التخزين، إذ يتمّ إنشاؤها باستخدام

t.me/qurssan

لودر الحفر، وبعد رصّ السلاح بداخلها يقوم اللودر بالردم على سقفها الخشبي مرة أخرى لإخفاء معالمها.

فلنبدأ العرض إذًا.. الكلاشينكوف الروسي والكوري والشيشاني، الرشاش الجرانوف أبو ساقية، الأسلحة النصف آليه (أبو مسمار)، البنادق الميزر، الخرطوش أبو طيرة، جميع أنواع ذخائر الأسلحة الخفيفة، معرض ثريّ لكن عيبه الوحيد قِصَر فترة التخزين، والسبب في ذلك يرجع إلى تردد تجار التجزئة من المحافظات المختلفة عليه، فيصبح تغييرها حتميًا بهدف التأمين.

فغر الظني والغضبان فمَيْهما بعد مشاهدة العرض، وعرفا من الشيخ أنهما سيبيتان بجوار هذا المعرض حتى الصباح، لا مجال للسرقة طبعًا، اسرق ما شئت ثم تُه في الصحراء وجرب أن تبقى حيًّا بعد ذلك.. يبدو أنه الاختبار الأول للوافدين.

أخذ الظني يجوب المكان بينما تابع أخوه الدليل وعدنان حتى ابتلعهما الظلام، وجال بخاطره هذا السؤال: ماذا بعد الحصول على مال وفير مقابل الإرشاد عن أماكن تخزين السلاح؟ ماذا يعني له مليون من الجنيهات إذا كان جالسًا يراقب ثديي معزة يتأرجحان أمامه طيلة الوقت؟

سمع أحد تجار السلاح في إحدى جلسات البدو مع حافظ يردّ بها على وصف الأخير له بـ«المجرم» مازحًا: نحن في المحافظات الحدودية نعاني من التهميش والفقر، لا توجد لدينا

t.me/qurssan

دوافع سياسية لتجارة السلاح، لكنه مصدر رزقنا الوحيد، وامتلاكه جزء من ثقافتنا، هل تريدون منا الاتجار بالمخدِّرات؟!

لكن الإجابة لم تكن وافية بالنسبة إليه.

نعتقد أن السرّ يكمن في سيطرة العادات والتقاليد. جدّ هذا الدليل كان يعمل دليلًا، وأبوه كذلك، ولا شيء في الصحراء له ثمن إلا السلاح. إن أساطير الأولين مرعبة حقًّا، أساطيرهم الدينية، الأخلاقية، الاجتماعية، وحتى الثقافية. هل تبحث عن الكمال؟ انزع أساطير الأولين من قلبك ثم استفتِ عقلك، النتيجة هي أن جين الغرور في الإنسان سيتحول إلى زهرة تفوح منها رائحة الحب لأخيه.

في الصباح لم يأتِ أحد، شعرا بالقلق والعطش الشديد، انتظرا للظهيرة وهما موشكان على الإصابة بالجفاف، ثم وجدا الدليل أمامهما كالطيف يخبرهما بالاستعداد لمقابلة عدنان، لم يضع له لقبًا، كان من الواضح أنه نار على عَلَم، كانا مستسلمين تمامًا، لو أخبرهما أنهما سيقابلان الشيطان نفسه لما انزعجا أو اعترضا على الأمر.

أمام عدنان اختلف الأمر، قابلاه في بيت الدليل، كان رجلًا ضخمًا له نظرات حادة، يتحرك كأبطال المصارعة. الوقوف أمام تاجر سلاح أمر جلل، لكن الوقوف أمام تاجر سلاح بهذه الضخامة والهيبة وضع آخر. أخبرهما أنّ عملهما معه لن يقتصر على حماية مخازن السلاح، هناك خط أنابيب للبترول الحكومي يتجه من

t.me/qurssan

صحراء سيدي براني إلى محطات مرسى مطروح، سيعطيهما آلة للتنقيب والحفر وثانية لشفط البترول الخام ليتم تعبئته بتنك السيارة، بعدها سيتوجهان إلى معمل التكرير لتحويله إلى بنزين وسولار، باختصار سيتم عمل محبس يسرقان منه على مراحل كي لا يتم اكتشاف الأمر، أما عن محطة الوقود فهي مملوكة لعدنان طبعًا، أي إنّ «زيتنا في دقيقنا» كما يقولون.

وافقا بالطبع.

عام كامل قضياه في الصحراء لا يأكلان إلا الخبز المقدد وأحيانًا لحم الضأن، لا يستنشقان إلا رائحة المواد البترولية، لا سبيل للمياه أو النار للطهي، مواجهة العواصف الرملية وقتل العقارب والثعابين صارت هوايتهما، أضِف إلى ذلك ابتعادهما عن مبهجات الحياة وأهمّها النساء، صحيح أن الفرار إلى الطبيعة بعيدًا عن زحام الحياة وضغوطها رغبة مستمرة لدى كل إنسان، لكن ليس لدرجة العيش في الصحراء. الغريب أنهما كانا يمقتان حياتهما الأولى في العزبة، والآن صارا يتوقان إلى لحظة واحدة من ذلك الماضي.

كان هناك مقابل مادّي مُجْزٍ نظير تلك العيشة بالطبع، لكن بِمَ يفيد المال ـحتى الحرام منهـ وأنت عاجز عن الاستمتاع به؟ إن لم يرتبط المال ببال رائق سيصير وبالًا على صاحبه، فكيف بالمال الحرام دون بال رائق؟ سيفتك بك غالبًا.

t.me/qurssan

بعد فترة، تذمّر أصحاب محطات الوقود لأن حصة محطة عدنان صارت ضعفين تقريبًا، بالإضافة إلى ظهور خلل واضح في حسابات وزارة البترول ناتج عن سرقة ثلاثة آلاف طن في عام واحد، بعد شكوى الوزارة بدأ خناق الشرطة يضيق حتى تم اكتشاف التلاعب.

بعد دِكّ المعمل دكًّا بعد معركة قصيرة مع الشرطة، لم يعلم عنها الظني والغضبان شيئًا، طلبت الشرطة من العاملين بالمعمل إرشادهم عن باقي العصابة ومكان المحبس نفسه. لحسن الحظ عرف الدليل ما حدث بعد إثارة الشرطة للبلبة، فأدار مقود السيارة بسرعة تجاه مخزن السلاح ـ مقرّ إقامة الشقيقين ـ ثم فرّ ثلاثتهم هاربين. شرح لهما ما حدث في الطريق، حتى وصلوا إلى الطريق الاسفلتي، أشار لهم الرجل بنهاية الرحلة قائلًا: بعد أن تهدأ الأمور، تعرفان طريق العودة.

قررا العودة إلى العزبة آملَين في العودة بعد شهر أو اثنين، معهما المال لكن الخوف صار رفيقًا جائعًا، يبحث عن أي متعة ليأكلها قبل أن يعيشاها.. سفر لساعات طويلة مرة أخرى، مواقف ميكروباص، غفوات على القوائم المعدنية لأبواب السيارات، أتربة، إلخ.

قال الغضبان لنفسه: ربما كانت العزبة نعمة لا نعلم قدرها.

هكذا النعمة، بمجرد أن تألفها تصبح مرضًا صامتًا يهلك صاحبه، كذلك التعوّد على فعل الشرّ، يمهلك الله الوقت ويطلب منك التفكر دومًا في ما تفعله، هل هو يحييك أم يقتلك دون إنذار؟

العزبة أصبحت محببة إلى النفس، حضن عبلة صار محببًا إلى النفس، البكاء صار محببًا إلى النفس، لكن إلى نفس الغضبان فقط، أما الظني فكان يفكر في شقيقته توبة للمرة الثانية.

***

وصلت توبة إلى بيت والدها ـ رحمه الله ـ فوجدت رجلًا غريبًا جالسًا على عتبته، كان مرتديًا لباسًا داخليًا فقط ويدخن النارجيلة، استنتجت توبة أنه رفيق عبلة، لكن الأخيرة أقسمت أنه زوجها، صعب إثبات الأمر بالطبع، حكت لها توبة باختصار عما حدث في الشهور السابقة، ثم استأذنت لدخول غرفتها، وجدت معالم الغرفة قد تغيرت تمامًا، لقد باعت عبلة كل شيء يخصها تقريبًا، حاولت النوم على سرير زوجة أبيها لكن حركات الرجل كانت تخيفها، قامت لتجلس أمام الدار، هنا سألتها عبلة مباشرة ونظرات الضجر تطلّ من عينيها: ما الذي أتى بك إلى هنا؟

كان الهمّ يبثّ أفكاره بداخلها، لِمَ صارت حقوقها الإنسانية البسيطة عسيرة الوجود إلى هذا الحد؟ لم تتخيل يومًا أن يكون مصيرها هكذا، كان من المفترض أن تتزوج بعامل مشعر يدعى أشرف أو جمال أو السيد، يحسن معاملتها في البداية ثم يقوم بصفعها يوميًا بعد عودته من الغرزة، وبعد فترة ستصبح زوجة مع

وقف التنفيذ بعد أن يُزَجّ به في السجن غالبًا. أما واقعها فيطالبها بالعيش تحت سقف واحد مع امرأة بتلذذ بإذابة الشمع داخل أعضاء النساء التناسلية، ورجل يشبه الخنازير في سلوكه. الحاضر صار قبيحًا، أما المستقبل فأخرج لها لسانه من قبل أن يبدأ. دعت الله أن يخلصها من هذا الهمّ رغم شعورها بالخجل من فكرة البوح للسماء بأسرارها الذميمة. تذكّرت نقاشها مع سائق السيارة الكبوت ونُصحه لها بنسيان العزبة والعمل بمصنع العاشر، فقررت تجريب حظها للمرة الأخيرة، قالت لعبلة: سأبيت الليلة هنا، وفي الصباح سأترك لك العزبة كلها.

عند الشروق رحلت عن العزبة في صمت.

في المصنع، قابلها مسؤول التوظيف بابتسامة هادئة، قال دون تعقيدات: نحتاج إلى عمالة بالفعل، ما الذي تستطيعين تقديمة لنا هنا في المصنع؟

كادت تقول: «لا شيء يا سيدي، إلا لو أردتم مني إغواء العمال لسرقة رواتبهم بعد القبض».. قالت بعد صمت طال: لا أعرف القراءة أو الكتابة، لكن معي بطاقة.

ـ النظافة تناسبك.

ـ كما ترون.

هكذا وجدت نفسها تصارع القاذورات، المخلفات، الجرادل وعبوات التنظيف. بعد الانتهاء عرفت أنها ستشارك إحدى العاملات في الاستراحة، لكنها لم تهتمّ، حتى لو شاركها عاملات مدينة العاشر بأكملها فلن يشعرها ذلك بالضيق، كانت تعرف أن إدارة المصنع لم تكن تهدف إلى تعذيبها، يريدون الربح ويعرفون كيفية توفير النفقات، ليس ذنبهم أن الفقراء لا يعترضون على تدني مستوى الإقامة، لو تبادلت الأدوار معهم لفعلت الشيء نفسه أو أسوأ.

عند رؤيتك للقاء الأول بين خديجة وتوبة ستدرك مدى الاختلاف بين الشابتين، خديجة كانت من بيئة مستقرة وإن كانت فقيرة، أما توبة فكانت بيئتها مضطربة وتؤمن بأن الدنيا عبث بعد كل ما رأته، يكفي تحرش أخويها بها. خديجة قاهرية أبًا عن جدّ، وتوبة نصف غجرية. في البداية ظهر التوتر المعتاد للرفقاء الجدد، الفتاتان كانت كل منهما تعامل الأخرى في توجس، خصوصًا خديجة، ومعها الحق، لم تسمع من قبل عن الغجر سوى جُمل عابرة قيلت أمامها عن خطورتهم، أما توبة فلم يكن هناك ما تخاف منه، على العكس، حاولت أن تكون ودودة أكثر من اللازم، هذا الودّ الذي يجعلك متوترًا، هنا قررت خديجة سؤالها بعد أيام بشكل مباشر: ما قصتك يا فتاة؟ ومَن هُم الغجر؟ لماذا أرى أن لهجتك غريبة بعض الشيء؟ الريفيون لهم طابع معيّن في الحديث، لكنك تتحدثين بلكنة غريبة.

t.me/qurssan

حكت توبة قصتها في براءة، الحكاية تثير الشك في صاحبتها بالطبع، لكن جرت الأمور في سلاسة لدرجة أن خديجة بكت في نهايتها، العاطفة غالبة عند النساء، وهذا هو ما يحرك الأحداث دائمًا. غاصت خديجة في بحر المجتمع الغجري كمسلسل عن الصعيد أو البدو فتنك عند عرضه لأول مرة، ومِن ثَمّ بدأت ترى جوهر العظة التي يقدمها لك فلم يعُد غريبًا.

العامل المشترك بينهما كان عدم ارتباط إحداهما عاطفيًّا من قبل، الدبلوم التربوي لم يشفع للأولى في الحب ولا الزواج، بالنسبة إلى توبة فالأمر كان كارثيًّا بعض الشيء، الوحيد الذي شعرت معه بالألفة كان سائق الكبوت، ويبدو أنه متزوج ويرغب في الشعور بإحسانه إلى الآخرين لا أكثر.

ثقافتان مختلفتان وبيئتان لا تعرف أيّ منهما شيئًا عن الأخرى، لكن ما دامت وُجِدَت الأسرار والحكايات والفراغ العاطفي فلا بد من أن تتأصل الصداقة وتقوى بين الفتيات.

استغرق هذا كثيرًا من الوقت والجهد، لكنه ضخ في حياتهما الرتيبة سعادة لا حدّ لها، صارت توبة قبسًا من النور يضيء ليالي خديجة الطويلة، خصوصًا في ظل غياب الأسرة، أما خديجة فكانت مثلًا أعلى ومرشدة لحياة جديدة لتوبة، حياة سوية تحتوي على أنشطة جديدة بخلاف زنا المحارم والسرقة واستقبال الآباء العائدين من السجن.

كل ليلة تتحدثان بالساعات عن أي شيء، ذات ليلة قالت توبة وهي تريح رأسها على حِجْر صديقتها: هل تتوقعين أن أرى أمي يا خديجة؟

ابتسمت خديجة في رقة وتهدج صوتها قليلًا قبل أن تجيبها قائلة: لعل القادم أفضل يا صديقتي.

بعد عام جاء الأفضل بالفعل على هيئة شابين نحيلين يرتديان الجينز وحذائين من المطاط الرخيص، طرقا باب الاستراحة بدقات متتالية وقوية، ففتحت توبة مذعورة، هل نسيت تلك الشراسة التي تشع من عيون تشبه عيون الذئاب طَوال الوقت؟ بالفعل، كانا هما، الظني والغضبان.

بعد أن هتفت توبة باسمَيهما في دهشة عرفتهما خديجة، فلطالما حكت عنهما الأولى.

قالت أختهما الصغرى: كيف عرفتما مكان عملي؟

قال الغضبان في قلة حيلة: سألنا عبلة، لم يكن لنا ملجأ آخر.

ثم أضاف: تابعناك وأنتِ تنتهين من وردية النظافة حتى أتيتِ إلى هنا.

ملجأ! هذا يعني أنهما يريدان الاختباء معها في هذا الجُحر الصغير.. قالتها لنفسها ثم هتفت في رعب: يوجد أمن بالمصنع، سيطردوننا جميعًا، هذا إن لم تحضر الشرطة.

قال الظني في نفاد صبر: ثلاث ليال فقط حتى تهدأ الأمور.

t.me/qurssan

اعترضت توبة بشدة، أما خديجة فكانت تبحث في ذهنها عن أي حجة تعضد بها موقف صديقتها.

نظرت توبة إلى خديجة ثم إليهما بمعنى «ليس لدي ما يمنع لكن الوضع كما تريان»، ثم سألتهما: من أي تهمة هربتما؟

رد الغضبان في توتر: لسنا هاربين من شيء، قضية بسيطة وسنرحل بعد أن نتدبر أمرنا.

صرخت توبة في وجهه: ولماذا لم تذهبا إلى العزبة؟

رد الغصبان في توتر أكبر: نخاف أن تأتي سيرتنا في التحقيقات، والعزبة معروفة للجميع.

- وكوم السمن؟
- الشرطة تحيط بها من كل الجوانب.
- هل قتلتما أحدًا؟

هتف الظني بسرعة: لا لا، مجرد سرقة سولار، لكن من الدولة.

هدأت ثورة توبة قليلًا كأن جريمة غير السرقة لا تشكل خطرًا. كانت خديجة تتابع الموقف في صمت تام، هي تعرف مدى خطورتهما، الأمر جليّ حتى من الملامح. نطقت أخيرًا وكأنها تحاول استعادة ذاكرتها: من أنتم؟

ليتها لم تنطق، تمخض السكوت الطويل عن سؤال لم يهتم أحدهما بالإجابة عنه، انفرد الظني بأخته في ركن الصالة محاولًا إقناعها بأن المبيت معهما لن يضر أحدًا، أما الغضبان فأخذ ينظر إلى خديجة في تفحص كأنها صارت مشكوكًا به، حاولت تجاهل نظراته متعجبة من تغير الوضع بتلك السرعة، استمرت نظراته فسألته في ضيق: إلامَ تنظر؟

شعر بالخجل وقال بسرعة: آسف، لكن من أنت؟

ردّت بصوت مبحوح: اسمي خديجة.

ثم سألته: أنت الظني أم الغضبان؟

ابتسم بهدوء وسألها: هل تعرفيننا؟

- نعم.

شرحت له مدى قربها من توبة وطبيعة عملها بالمصنع، ثم تمتمت كأنها تخاطب نفسها: أتمنى أن يفك الله كربكما.

طلب منها إقناع توبة بالموافقة على البقاء في الاستراحة عدة أيام، قالت إن الوضع شبه مستحيل.. رفعت توبة من نبرة صوتها بشكل مفاجئ كأنها تخاطب الجميع قائلة: ستمكثان هنا ثلاث ليالٍ فقط، وستنتظرني خديجة حتى أنتهي من ورديتي، وستغلق كلتانا باب غرفتها بالمفتاح عند النوم.

سكتت لبرهة ثم عادت تكرر: ثلاث ليالٍ فقط.

t.me/qurssan

لم تعلق خديجة، بعد شهور طويلة قضتها مع توبة كان هناك ما يمنعها من الاعتراض، العيش والملح بالتأكيد..

صراحة لم تكن الموافقة بدافع العيش والملح فقط، وإلا لماذا ابتسمت في سرّها عندما دخلت غرفة النوم وأغلقت من خلفها الباب؟ خجلت من نفسها وهي تتحرك بغرابة في الغرفة الضيقة في نشوة. السلوك الإنساني يصعب فهمه، ربما كانت حياتها تحتاج إلى صوت خشن ترتاح إليه، إلى مزيد من الإثارة، أو مزيد من الحب. قالت لنفسها هامسة: لماذا تضحكين هكذا أيتها البلهاء؟ هناك غريبان في المكان!

***

ثلاث ليالٍ؟ منذ متى صدق الظني والغضبان في ما يقولانه؟ إن صدّقت وعودهما فهذه مشكلتك أنت وليست مشكلتهما، لقد امتدت الليالي الثلاث إلى ما يقرب من الشهر. لو كانت شقة خاصة بتوبة وخديجة وليست استراحة مصنع لبقيا بها إلى الأبد، وربما طردا صاحبتي السكن نفسهما.

كان الظني غارقًا في خواطره الحمراء مع خديجة مستفيقًا، وغارقًا في مخاوفه الزرقاء مع الشرطة نائمًا، كتلة خفيفة الوزن من العفن البدني والعقلي مكومة على الأريكة ـ بفعل المخدّرات ـ مع خيط من اللعاب يسيل على جانب فمه أغلب الوقت، رماد السجائر على شكل دائرة من حوله دائمًا، والكثير من الذباب اللعين يبحث عنه أينما وُجد.

t.me/qurssan

أما الغضبان فكان يدعو الله ألا يستيقظ شقيقه أبدًا كي ينعم بالحديث والنظر إلى وجه خديجة ولو لدقائق، في الصباح كان يجلس بجوار أخته وصديقتها لتناول الإفطار، ينظر إلى خديجة في رومانسية فيطرب قلبه دون أن يقول شيئًا. بصلة تدشها توبة وتعطيه نصفها، تفرك خديجة رغيفَي الخبز فركًا بعضهما ببعض فتتساقط الردة، يمسك هو بزجاجة الزيت ويصبّ منها في مهارة ثم ينظر إلى خديجة في مرح، أجواء ملأها الحماس أكدت له أنّ شيئًا ما كان يولد مع تلك اللقيمات، كان سلوكه اليومي يتغير، والأهمّ أن إحساسه بالآخرين يتبدل حرفيًا. بدأ الأمر عندما قصّ أظافره، هذا حدث جلل بالطبع إن كنتم لا تعلمون. ثم تطوّر الأمر فقام بغسل ملابسه الداخلية، صار الأمر مقلقًا، انتهى الحال إلى انخفاض نبرة صوته وصار لسانه ينطق بمفردات من نوع «شكرًا، تفضلي، لو سمحتِ»، صار مبتسمًا طَوال الوقت دون سبب، لا يعرف ماذا يقول.

خديجة أيضًا كانت غارقة تمامًا في الحبّ، ربما لم يكن يعرف القراءة لكنه قرأ أنها معجبة به، يبدو أن أخته قد وضعت اللبنة الأولى لهذا الحب منذ زمن دون أن تدري، لطالما حكت توبة عنه لخديجة قائلة في حماس: الغضبان ليس كالظني أبدًا، الغضبان يضرب ولا يقتل، يشرب البانجو ويخاف من البودرة، يزني مع مَن ترضى لكنه يتردد كثيرًا قبل الاغتصاب.

كما ترون فإن الرجل كان يمتلك من الصفات الحسنة ما يؤهله لبناء أسرة، تلك الخلطة العجيبة التي تفضّلها النساء، القاسي الذي يدافع عنها، الشرس الذي يحمي أهل منطقته، الوغد الذي يفتك بقلوب كل النساء إلا هي.

في هذا اليوم تبخرت أحلام العاشقين، وقفت توبة في منتصف الصالة بعد تناولها الإفطار، وقالت بنبرة تهديد موجهة حديثها إلى الغضبان: عند فجر اليوم تنتهي عَلاقتنا بكما.

غمر الوجوم وجهيهما، لم تعلق خديجة، وشعر الغضبان بالحاجة إلى إشعال لفافة تبغ.

كانت توبة تشعر من اللحظة الأولى أن ثمة عاطفة نشأت بين أخيها وصديقتها، لكنها لن تسمح بنضوجها مهما حدث، لم تكن مبالية بتحطيم قلبيهما لأن كل دقيقة كانت تحمل لها خطرًا يفوق الوصف، تلك الجثة المتحركة المسماة بالظني، لم يكن مأمون الجانب على الإطلاق.

قبل أن تغادر الاستراحة قالت في حدة: أكملي طعامك ثم اتبعيني يا خديجة.

توترت الفتاة بالطبع ولم تكمل المضغ ثم تحركت ناحية الباب، أمسكها الغضبان من كتفها بقوة لا تتناسب مع كلماته الهامسة: لا تقلقي.

قالها بعصبية، فنظرت إليه خديجة في حزن.

t.me/qurssan

ـ خديجة، أنا معجب بك.

كانت تعرف أنه سيقولها، لا تهم نتائجها. التفتت إليه وقد أخذ صدرها يعلو ويهبط بسرعة من الإثارة، وقفا هكذا لدقيقة كاملة كأن الزمن توقف، ثم ندت عنها حركة تنمّ عن نيتها في الخروج. كانت راغبة في الهروب والبقاء في ذات الوقت، البوح والترقب، اللهفة والدلال، الحب و... والحب.

جذبها بقوة إليه مرة أخرى فقالت بصوت مبحوح: اتركني، اتركني لحالي أرجوك.

طلب منها مقابلته خارج أسوار المصنع بعد انتهاء ورديتها.

ستذهب لمقابلته، نعلم جيدًا أنها ستفعل، وأن اللقاء سيكون مليئًا بالعواطف والبكاء غالبًا في نهايته.

تجرِبة عنيفة ستخوضها الفتاة ولا تعلم لها نهاية، بعد أن قذف الله في قلبها الحب صارت تتحدث عنه بصدق مثل شامة قديمة وُلدت بها، تعرفها وتحبّها رغم جهلها بكيفية تكوّنها. ما التفسير العلمي لتجمع خلايا الجلد وتكوين شكل ثمرة الأناناس مثلًا؟ يقولون إن الأم توحّمت عليه، لا أحد يعلم إن كانت تلك خرافة أو حقيقة جلية. هكذا هو الحب، نشعر به بارزًا في أرواحنا لكن دون سبب مقنع، وعندما نسأل يقولون إن لذته في عذابه، في عدم استمراريته. لقد توحّمت والدتك على الأناناس يا خديجة، فلا مفرّ من المغامرة إذًا. نصيحتنا لها فقط ألا تأكل الثمرة كاملة.

t.me/qurssan

قابلته ليلًا بعد المصنع بعدة أمتار، أخبرت توبة بتأخرها في العودة للاستراحة لمراجعة خطأ براتبها مع الحسابات، شعرت الأخيرة أن هناك خطبًا ما، لكنها لم تضغط عليها للبوح، فقط قالت لصديقتها: احذري يا خديجة مما أنت مقبلة عليه.

هزت خديجة رأسها وتمتمت بكلمات لا معنى لها دون النظر في عينيها، ثم انصرفت من أمامها بسرعة، أما الغضبان فلم يخبر الظني بشيء، كان موقنًا بأن أخاه لم يكن مدركًا كم لبث بتلك الاستراحة من الأساس، همس في أذنه: نتقابل عند سور المصنع الخلفي وقت الفجر يا ظني، وإن لم آتِ سافر أنت إلى عدنان وسألحق بك.

قالها دون أن يمنحه فرصة الرد، وقفز من شباك دورة المياه ـ كي لا تمنعه توبة ـ ثم إلى سطح المبنى عن طريق ماسورة المياه، حتى واراه الظلام.

كان الشارع خاليًا من المارّة تمامًا، من سيرتاد المنطقة الصناعية لمدينة العاشر في التاسعة مساء سوى هذين المخبولين؟! غمرت الإضاءة الصفراء الخافتة الشارع في مشهد يبعث على التوتر، الشاب النحيل ذو الخمسة والعشرين عامًا كان واقفًا أسفل عمود إنارة، فظهر ظله طويلًا كأبطال الأساطير، أما خديجة فكانت تسير ببطء في اتجاهه مشبكه يديها خلف ظهرها، ناظرة إلى أسفل طَوال الوقت، كان صوت حذائها يعلو كلما تسارعت خطواتها،

فأبطأت من مشيتها قليلًا. بالها كان مشغولًا بمئات الأفكار، رآها قادمة من بعيد فابتسم وتحرك لمقابلتها. الأدرينالين كان يغرق شوارعهما كليلة ممطرة، لم تسلّم عليه أو تتكلّم، لم تكن تعلم حتى وجهته، فقط تابعت السير بجواره، ثم بعد عدة خطوات تشابكت أيديهما دون تخطيط، وأخذت سرعتهما تتزايد. شابان في مقتبل العمر، لا يعرفان شيئًا عن قوة الحب، فقط يستخدمانها دون رقيب.. سألته في رقة: ماذا تريد؟ أعني إلى أين أنت ذاهب؟

لم يردّ، فقط استمرّ في السير، أمسك يدها بقوة كعادته، ثم قال مفكرًا: ما رأيك أن نسافر إلى القاهرة؟

نزل اقتراحه عليها كالصاعقة في البداية، ثم وجدت نفسها تزن الأمور بشكل آخر، القاهرة الساهرة هي الحلّ الأنسب بالفعل، هي أنهت عمالتها الشهرية بالمصنع، أما هو فكانَ قادرًا على اتخاذ قرار السفر وقتما يحلو له. موقف السيارات كان يبعد عن المصنع دقائق قليلة، وتحركا إلى هناك بالفعل، ابتاع الغضبان كوبين من الشاي عند وصولهما إلى حين اكتمال عدد الركاب، لاحظت هي أحد العمال كان يرمقها بنظرة فاحصة، لكنه حوّل بصرة إلى الناحية الأخرى عند مجيء الغضبان.

بعد ساعة ونصف من إحكام قبضته على أصابعها وتخيّلها لشكل الأحداث التالية في القاهرة، خرجا من النطاق المحصور نوعًا إلى البراح، إلى العاصمة المكتظة بآلاف من خديجة ومحمد.. عندما نشبه من حولنا يُرفع الحرج، هكذا طافا الميادين، تارة في

خجل، وتارة يسابق بعضهما بعضًا، ضحكتها كانت صافية، وعيناه مملوءتان بالحياة.. في المدينة، اكتشف الغضبان أنه يعشقها، وأن بيع السلاح وسرقة المواد البترولية لن ينفعه بشيء، قلب فتاة يخلص له هو كل السند، أما هي فتمنت الزواج به، بل سرحت بأحلام اليقظة في أكثر من ذلك، ستبيع ذهبها إن احتاج إليه، بل وكُليتها إن لزم الأمر، سيضربها ويسبّ أخاها ويلومها على (خلفة البنات) لكنه على أتم استعداد أن يتشاجر مع جنود الساموراي إن عاكسها أحدهم في السوق، لن يكون هناك مجال للفلسفة أو المصالح، الميزة الأهمّ في عَلاقات الطبقة الشعبية أنها راسخة دائمًا.

خديجة ساقتها قدماها إلى منطقة مصر القديمة، التي تحفظها عن ظهر قلب، كانت تريده أن يرى أين تسكن، المفارقة هنا أن الدويقة سُمِّيَت على اسم رجل معروف باسم «الدوق»، وقيل إنه كان قاطع طرق ولصًّا، ربما شعر الغضبان بالألفة بهذه المنطقة لهذا السبب.

سألها في حنان: أهذه منطقتك؟

هزت رأسها في فخر بالإيجاب

- تشبه عزبة القرود كثيرًا.

- عزبة الصفيح من عزبة القرود، يا قلبي لا تحزن.

الكثافة السكانية العالية، المنازل المبنية بطرق عشوائية، القمامة والكتل الصخرية المخيفة ليلًا، مياه الصرف الصحي التي تنخر في الجبل الجيري.. وقفا فوق هضبة المقطم يتأمل كل منهما الآخر في هيام. أن تختزل الحياة في شخص ما فهذا هو الحب، أن تختزل الحب في عين حبيبك فقط فهذا هو السموّ بعينه. زادت أنفاسهما وصممت على الوجود رغم الظروف كزهرة تبزغ من شقوق الجبل.

قالت وهي تشير في اتجاه نقطة ما: منزل أبي ـ الله يرحمه ـ هناك.

ـ الله يرحمه.

أمسكت هي بيده هذه المرة وسحبته خلفها كطفل يؤمن بصديقه.

كان المنزل عتيقًا، واحد من المباني السكنية القليلة الكائنة على قارعة الطريق، له واجهة كلاسيكية يميزها أنها لا تتميز بشيء. هناك شقة في الدور الأرضي، وهي شقة مخصصة لزواج أخيها بالمناسبة. أخرجتِ المفتاح من حقيبتها، أما الغضبان فكان واقفًا خلفها كالمسحور، لم تكن هذه أول مرة يختلي فيها بأنثى غريبة عنه، لكنّ قلبه كان يدقّ كغزال هارب من فكّي نمر. وجد الأثاث بسيطًا، يبدو أنه من كراكيب شقة والديها القديمة لأن الزمان أكل عليه وشرب.

t.me/qurssan

فلنغلق الآن باب الشقة ونترك فرصة لهذين العاشقين في التصريح بهذا العشق. إنّ الحوائط بالداخل هي رؤوس لها أعين وآذان، ستحكي لنا ما حدث بالتفصيل لأن العشق أوضح من أن نداريه، والمناطق الشعبية ـ كما نعرف ـ لا تقوى على الكتمان.

***

بقيت توبة وحيدة بعد أن غادر الظني مسكنها عند الفجر. كانت مرعوبة من تكرار تلك الزيارة، مرعوبة من أن تقع صديقتها في حب الغضبان فتتخذ قرارًا متهورًا، مرعوبة من ألا تعود خديجة إلى العمل. عطن الشك كان ينخر في روحها، كانت تعلم أن خديجة مع بعض الإرادة تستطيع بناء أسرة جديدة وحياة مستقرة، فلمَ تربط حياتها بهذا العاطل؟

انتظرت صديقتها ببالغ الصبر، تارة في الاستراحة، تارة أخرى تسأل عنها في المصنع رغم علمها بميعاد عودتها وهو الأول من كل شهر هجري (أصر المستثمر السعودي على استخدام هذا التقويم). سألت مدير الحسابات، جار صديقتها، فأخبرها بأنها ستأتي باكرًا. تذكرت ـ لسبب ما ـ لافتة شهيرة معلقة بأحد محالّ الكشري تعلن أن «الكشري غدًا مجانًا»، Marketing سخيف أقرب للكوميديا السوداء، لكنه حقق الغرض منه، ليلة أخرى طويلة لن تضر أحدًا.

t.me/qurssan

كان عملها في النظافة يبدأ في الثالثة عصرًا لكنها تحركت بمجرد الاستيقاظ في العاشرة صباحًا، بخطوات سريعة ورشيقة ـرغم قلة عدد ساعات النوم- وصلت إلى المدخل الزجاجي الأنيق، مكتب الإدارة على اليمين، وعلى اليسار ممرّ بنهايته سلّم رخامي يقودك إلى استراحة مالك المصنع، هنا رأت توبة صديقتها من بعيد جدًا تقف بجوار السير شاردة.

ـ بنت الكلب، لها وحشة.

قالتها توبة باسمة ثم رفعت يدها لأعلى وأخذت تلوح بها للفت انتباه خديجة.

درجة الحرارة في الخارج كانت عالية، أما بالداخل فالأمر كان مرعبًا بحق، العمل هنا في الصيف هو انتحار جماعيّ. تمتمت بشيء ما عن قوة تحمّل خديجة وهي مستمرة في التلويح دون جدوى، شعرت كأن المسافة بينهما صارت بحورًا ومحيطات، هناك تلك الأفران الخاصة بصهر الزجاج، أجهزة النفخ والتشكيل الآلي، عدة التبريد، ألواح الزجاج المختلفة في كل مكان، الزحام كان خانقًا وعطّلها رغم تقلّص المسافة. اضطرت إلى نداء صديقتها لكن ضوضاء العمل حالت دون وصول صوتها، هنا شعرت بأن هناك من ينادي عليها من الخلف، لم تُعِر الأمر اهتمامًا في البداية، تكرر الأمر بصوت أعلى تلك المرة فالتفتت لكنها لم تجد أحدًا، أخيرًا لمحتها خديجة، غمغمت الأخيرة بنفس طريقة توبة المرحة: أيتها السافلة، ما الذي أتى بك إلى هنا الآن؟

لم تستطع التحرك بسبب طبيعة عملها، لكنها ابتسمت في سعادة كأنّ غيابها طال لسنوات. الغريب أن خديجة لم تنزعج لمجيء صديقتها في غير مواعيد عملها، كانت متشوقة لرؤيتها بالفعل، أما توبة فعاد الصوت يطاردها مرة أخرى، هذه المرة توقفت لترى مصدره متأففة، فجأة دوّى صوت فرقعة يشبه صوت شكمان سيارة مثقوب، ثم... ثم أظلمت الدنيا تمامًا.

***

هل تعرف فائدة الأكسجين المستخدم في صناعة الزجاج؟ إن كنت لا تعلم فلا تجرّب الدخول إلى تلك النوعية من المصانع أبدًا. هناك تنكات للأكسجين تستخدم في رفع درجة الحرارة في أفران صنع الزجاج وتحسين عمليه الاحتراق، كل تنك هو بمثابة قنبلة صغيرة دون مبالغة.

الجملة السابقة ليست دقيقة تمامًا، الأدق هنا أن تنكات الأكسجين ـ الأصلية منها ـ باهظة الثمن ولا تنفجر أبدًا، لهذا قرر مدير التوريدات ـ كأي مسؤول يحترم نفسه في مصر ـ أن يتعاقد مع إحدى الورش غير المرخصة لجلب الأسطوانات المتهالكة ووضع فرق السعر داخل جيبه، كانت تلك المرة هي الأولى له، والأخيرة بالطبع بعد ما حدث.

كان الأمر سيمرّ لولا مرور هذا العامل حاملًا بكلتا يديه عدة ألواح زجاجية بجوار توبة، كان الأمر سيمرّ لولا ارتفاع تلك الألواح لدرجة حجبت الرؤية عنه، كان الأمر سيمرّ لولا وقوف

توبة لمعرفة مصدر الصوت المنادي عليها، كان الأمر سيمرّ لولا انفجار تلك الأسطوانة في نفس اللحظة التي تهشمت فيها كل الألواح الزجاجية، واقتحمت شظايا زجاجية لا حصر لها عينَي الفتاة بسرعة غير عادية، صرخت صرخة من التي تهزّ القلوب، ثم تلتها عدة صرخات لأصوات مختلفة.

نتج عن هذا الحادث وفاة عامل كبير السن بعد أن اخترق الزجاج رقبته، والعديد من المصابين، أهمهم شاب يبلغ من العمر ٢٢ عامًا ـ حامل الألواح ـ اضطروا إلى بتر يديه بعد أن نزف كمية كبيرة من الدماء، وإصابة توبة بتهتك في القرنية. لم تكن عيادة المصنع مجهزة بالطبع لهذه الحوادث الفاجعة، لهذا تم نقل الجميع إلى مستشفى الزقازيق العام.

المسكينة خديجة لم تتحمل المشهد، بعد أن رأت عينَي صديقتها تنزفان دمًا سقطت فاقدة الوعي على الفور، بعد أن أفاقت وجدت نفسها راقدة في إحدى غرف المستشفى، فقامت كالملسوعة تبحث عن توبة في الغرف المجاورة، نادت عليها، سألت بعض الوجوه المألوفة، الكل يرفض أن يجيبها أو يطمئنها، بلا اكتراث حقيقي. إن كانت بخير فأين هي إذًا؟ هناك زميلة لها كانت تقف مسندة رأسها على الحائط باكية، عرفت منها أن والدها من ضمن المصابين، سألتها: أين توبة؟

قالت زميلتها في حزن: في غرفة العمليات الآن. عيناها يا خديجة، عيناها...

لم تقوَ على إكمال جملتها، أما خديجة فلم تعُد بحاجة إلى الشرح، قرأت كل شيء في عينَي زميلتها، عادت إلى غرفتها ثم بحثت عن مصحف لتقرأ منه أملًا في نجاة توبة، أخرجت راتبها الشهري الذي لم تصرف منه شيئًا، عملًا بقول الرسول الكريم: «داووا مرضاكم بالصدقة».

بعد أربع ساعات كاملة خرجت صديقتها من غرفة العمليات مسطحة على نقالة تحت تأثير المخدر الكلي، معصوبة العينين. هتفت باسمها وهي تركض خلف النقالة حتى منعها الممرضون من دخول الغرفة.

عادت إلى الاستراحة لا تلوي على شيء، وفي الصباح قرأت خبرًا صغيرًا عمّا حدث بإحدى الجرائد القومية.

«انتقل العميد ـــ ـــ ـــ إلى مصنع مكّة للزجاج بمدينة العاشر، وذلك إثر انفجار أسطوانة أكسجين مما أدى إلى إصابة العامل ـــ ـــ ـــ العامل بنفس المصنع، ونقله إلى مستشفى الزقازيق العام، لكنه لفظ أنفاسه الأخيرة قبل الوصول. وبسؤال السيد ـــ ـــ ـــ مدير المصنع، أقر بأن الحادث نتيجة الإهمال، وسيتم حصر عدد المصابين وتعويض أسرة المتوفى. وتحرر عن ذلك المحضر رقم ـــ ـــ وبالعرض على النيابة صرّحت بدفن الجثة».

سألت نفسها: لِمَ لَمْ تُذكر الكارثة التي ألمّت بصديقتها العزيزة توبة؟

لم تكن تعرف تحديدًا سبب ضيقها بعدما قرأت الخبر، ربما كان بسبب الخوف من فكرة عدم التوثيق، الحقيقة أن لا أحد كان يهتم بإصابة توبة سواها، بل إن الحادث برمّته لن يذكره أحد غير من عاشوه، كأن هناك اتفاقًا غير معلن على عدم الاعتراف بإنسانيتك طَوال الوقت، لا يوجد دليل حقيقي على وجودك على قيد الحياة، ثم جاءت الجريدة لتثبت أن توبة بالفعل لا توجد على قيد الحياة، النور الذي يمكنه تخفيف عتمه شعورك بالدونية انطفأ، خطرت لها تلك الخاطرة فتجمعت الدموع في مقلتيها وتنهدت في صوت مسموع، ثم أمسكت الجريدة ومزقتها إلى قصاصات صغيرة.

بعد دقائق عادت إليها رباطة جأشها، فلنفترض أن عدد الجريدة ذكر توبة في كل أخباره ومقالاته، فما النفع العائد على صديقتها من ذلك؟ لم تزل تذكر شكل الجرائد بعد وفاة الرئيس أنور السادات، كان حديث الجرائد وقتها، ورغم ذلك لم يستفِد منه سوى بائعيها. اطمأنت قليلًا لتلك الفكرة وأخذت تفتش عن الخبر بين القصاصات حتى وجدته، تمنت أن ينتهي هذا الكابوس سريعًا وأن تقرأ الخبر مجددًا مع توبة لكن بعد تعافيها.

***

بعد أن أخبرها الطبيب بإصابة توبة بالعمى انهارت خديجة تمامًا، أخبرها كذلك أنّ إجراء عملية جراحية أخرى في المستقبل قد يحسن من الرؤية.

- الأمل موجود إن شاء الله.

كانت تعلم أنه يكذب أو -على أقل تقدير- غير مقتنع بما يقوله، لهذا بكت أمامه بشدة حتى تركها وانصرف آسفًا. الشابة اليافعة كانت تشعر بمسؤوليتها الكاملة عما حدث، بعد نوبة البكاء حاولت التماسك أمام توبة كي لا تسوء الأمور أكثر، هي لم تكن تعرف شيئًا عن التعامل مع المكفوفين، لكنها قررت تعلُّم الأسس البسيطة وتطبيقها، اشترت لتوبة نظارة سوداء، وصممت خديجة على أن تقيم توبة عدة أيام معها في منزل والدها في الدويقة، وبعد المحاولات المضنية في استقلال المواصلات بصحبة ضريرة، وصلت الفتاتان إلى الدويقة، ورحبت بهما أسرة خديجة، خصوصًا والدتها، وطلبت من ابنتها تجهيز شقة الدور الأرضي التي شهدت ليلتها المثيرة مع الغضبان.

توبة لم تكن مستوعبة ما حدث، أحيانًا تحاول التحرك كمبصرة، وأحيانًا أخرى لا تتحرك أو تتكلم من الأساس. كانت الأسرة تتعامل معها بشفقة وإظهار العطف الزائد، لكن كلمات مثل «مسكينة»، «مرض»، أو «عمى» كانت تقتلها حرفيًّا، الوحيدة التي تعاملت دون تكلُّف كانت خديجة، تناديها طَوال الوقت باسم دلع اعتادت مناداتها به، توجِّه الحديث إليها كأن المسكينة تراها، صحيح أن تجنُّب العاطفة قد يبدو افتعالًا، لكن توبة كانت راضية، كان يكفيها الشعور بمحاولات خديجة في التخفيف عنها وإيوائها في بيتها وبعض من طرق العلاج النفسي البائس.

t.me/qurssan

في أثناء وجود توبة في المنزل، سافرت خديجة إلى مدينة العاشر لتعرف مصير عملها، عرفت من الحارس أن العمال قد تم تسريحهم لمدة شهرين حتى يلملم المستثمر خسارته ويعوض أهل المتوفَّى والمصابين، خصوصًا بعد قرار إغلاق المصنع لحين انتهاء التحقيقات.

تعويض المصابين! إذًا سيكون لتوبة نصيب لا بأس به.

سألت الحارس عن المسؤول فأجابها: مدير الحسابات بالداخل يا ست خديجة.

وجدت جارها جالسًا أمام مكتب صغير بحوش المصنع وأمامه أحد أقارب المصابين يتحدث معه باهتمام، لكن بمجرد أن رآها ترك كل شيء ووقف لاستقبالها قائلًا: أين توبة يا آنسة خديجة؟ لقد طلبت منها الحضور في أسرع وقت قبل خروجها من المستشفى.

حركت شفتيها بحسرة ثم قالت شيئًا عن إعاقتها وأن الأمر لم يعُد بهذه السهولة، فقال بسرعة: الشيخ يريد مقابلتها.

- لماذا؟

- لقد عرف ما حدث للمسكينة وقرر صرف تعويض أكبر لها.

هتفت بفرحة حقيقية: بجد؟ سأحضرها صباح باكر.

- اتفقنا.

t.me/qurssan

في الصباح نفَّذَت ما قالته، بعد ثلاث ساعات من استيقاظهما كانتا تقفان أمام المستثمر السعودي. كان يرتدي بذلة صيفية رمادية اللون يظهر منها خسارته كثيرًا من وزنه بعد ما حدث، قابلهما بوجه بشوش في مكتب المدير وليس استراحته العلوية بعد أن قدم طلبًا للنيابة برفع الحراسة، ظهر عليه التأثر عند رؤيته لتوبة، وأخذ في الاعتذار لها عدة دقائق، لكنها لم تردَّ عليه سوى بجملة واحدة: قدّر الله وما شاء فعل.

زاد هذا الرضا من أوجاعه، تمنى أن تقوم بسبّه وسبّ مصنعه وكل من أشار عليها بتلك الوظيفة لكنها لم تفعل، طلبت منه فقط أن يجعل الشيك باسم خديجة كي يسهل عليها الإجراءات.

ـ «هذا شيك بخمسة آلاف جنيه».. قالها بتأدُّب.

ابتسمت خديجة بتكلُّف عند استلام الشيك منه وقالت بقهر: لا يوجد ما يعوّض الإنسان عن فقدان البصر ولو كنوز الدنيا.

أطرق برأسه في خجل، شكرته بعدها ثم أمسكت بيد توبة استعدادًا للمغادرة. بعد أن خرجت الفتاتان طلبت خديجة من صديقتها الانتظار أمام الباب، ثم فتحت باب المكتب دون استئذان لتجد الرجل جالسًا كما هو شاردًا ينظر إلى الشباك في السماء الواسعة، انتبه إلى وجودها ونظر إليها في تساؤل، قالت في استعطاف ممزوج بالخجل: ممكن طلب أخير؟

ردّ في دهشة بلكنته الخليجية: بالطبع، أي شيء.

t.me/qurssan

قالت وقد تملك منها الخجل لأقصى حدّ: توبة تبيت معي في شقة والدي بالقاهرة، ليس لها مأوى ثانٍ، لكن لي أخ شاب، فهل من الممكن أن...

لم تكمل، لكنه فهم مقصدها على الفور وقال بجدّية: إن أرادت المبيت في استراحتها من الآن وحتي يقضي الله أمرًا فلا مانع لديّ، يكفيها ما حدث.

تهللت أساريرها وقد غادرها القلق والخجل وهتفت في راحة: ربنا يفكّ ضيقتك وتعود لسابق عهدك وأفضل.

خرجت من المكتب في لمح البصر قبل أن يردّ عليها، لتجد توبة واقفة كما تركتها، فربتت على ظهرها بحنوّ ثم قالت بمرح: عندي لك مفاجأة كبيرة.

***

سيدي براني من جديد..

بعد دكّ معمل تكرير البترول، قرّر عدنان بشكل نهائيٍّ الاكتفاءَ بتجارة السلاح، من خرج من داره قل مقداره، مبدأ التخصص الذي يتبعه العالَم الآن هو سرّ نجاح البعض وفشل البعض الآخر.. دعنا نقترب أكثر من عدنان الحاوي كي نفهم رؤيته.

الرجل ـ وعلي عكس الشائع عن تجار السلاح ـ لم يكن مدمنًا لأي نوع من المخدِّرات، بل كان شديد الحفاظ على سلامة

t.me/qurssan

جسده عن طريق ممارسة الرياضة وتناول الطعام الصحي، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن لذّته الكبرى كانت في قراءة تحاليل الأطباء التي تتنبأ بابتعاد ملك الموت عنه فترة لا بأس بها.

كان يكره النساء والشرطة بشكل مبالَغ فيه، كُره الشرطة كان مقبولًا بسبب تجارة السلاح، وإن كان زائدًا لديه بعض الشيء، ربما بسبب رغبته الدفينة في الالتحاق بكلية الشرطة في الصغر. أما كُره النساء فلم يكن مبررًا، ربما كان بسبب إيمانه بضعف أهل الهوى.

تزوّج عدنان في الثلاثين من عمره، وهي سنّ كبيرة لأبناء القبائل، كان المثير في الأمر أن زوجته قاهرية، رآها في أثناء قضاء مصيفها مع والدها في منتصف الستينيات بمرسى مطروح، وقتها صمّم على الزواج بها كي ترفض أسرته ويظل مضربًا عن الزواج، فرحت الأسرة -على غير المتوقع- ليجد الأب القاهري نفسه محاطًا بمجموعة من البدو يبدو عليهم الثراء، ويطالبونه بسرعة الردّ، خوفًا من رجوع عدنان عن كلامه. لم يرفض بالطبع لكنه رمى الكرة في ملعب ابنته ذات التسعة عشر ربيعًا، شعرت الفتاة -وقتها- أنها وجدت فارس أحلامها أخيرًا، الشاب ذو الاسم المميز والذي يمتطي جواده الأبيض ويسبح بشواطئ مطروح كأسماك القرش ويتسلى -في أوقات فراغه- بفكّ وتركيب السلاح أمامها يوميًّا، قارنت بينه وبين جارها الشاب الذي يستقلّ دراجة هوائية تشبُّهًا بالهيبيز، ويتابع باهتمام محاولات البيتلز للقضاء على

t.me/qurssan

موسيقى الروك، هكذا حسمت المقارنة في ثوانٍ معدودة لصالح عدنان و... وافقت بالطبع.

انتقل عدنان بعد شهور من الزواج للعيش في القاهرة، من يومها صار له بيتان وثلاثة قلوب، قلب بدويّ، وقلب قاهريّ، وقلب أنجبته له زوجته، ابنه الوحيد، اختار له اسم الديب تفخيمًا لذاته وإعمالًا لجنون العظمة لديه.. الديب عدنان الحاوي.

بعد تحرير سيناء وبدء تفكير القيادة السياسية في تعميرها أول الثمانينيات تغيَّر الوضع تمامًا، فضّل تجّار التجزئة الاتفاق مع عدنان، طبيعته ذات البأس وإيفاؤه بكلمته، فضلًا عن توفيره خدمة توصيل السلاح إلى المنازل، جعلت من مرسى مطروح الاختيار الأول دائمًا.

في البداية كانت هناك شكوك عديدة تخنقها حول ثروة عدنان، ما طبيعة عمله تحديدًا؟ من أين يأتي بالمال؟ لكن بعد أن صار البيت قصرًا، وتضاعف عدد الخدم عشر مرات، وأصبحت ملابسها تحمل علامة بيوت الأزياء العالمية، لم تعُد تسأل عن مصدر ثراء زوجها الفاحش، أو حتى عن كثرة سفرياته إلى مرسى مطروح، كان الزوجان يتهربان من السؤال والإجابة، كانت هي تتذكر لقاءهما الأول وتحمد الله على هذه الزيجة، وكان هو حريصًا على استمرارية ذلك الحمد.

بعد سنوات صار الديب مراهقًا، الغريب أنه لم يمارس عادة إدمان المخدِّرات المحببة لأبناء الأثرياء، فقط كان يبحث عن

مثل أعلى، مثله مثل باقي المراهقين، ثم وجد أنه أقرب الناس إليه، والده. بعد أن أنهى دراسته الجامعية صار يغيب عن القصر مع عدنان بالأسابيع ليعود إلى والدته راضيًا عن نفسه، هكذا أسقاه عدنان الفنون الخفية لتجارة السلاح، هنا وقفت السيدة أمام زوجها قائلة في غضب: أيًّا كان ما تفعله، كله إلا الديب يا عدنان.

كانت تخشى من أن تنزلق قدم ولدها في تجارة السلاح أو المخدِّرات، تعرف يقينًا أن فاجعة الابن تختلف تمامًا عن الزوج، والحياة بعد مكروه لولدها موت، هكذا حاصرته وأوجعت ضميره حتى رضخ لطلبها ممسكًا العصا من المنتصف.

قال عدنان لولده: يجب أن تتوقف يا ديب.

هنا تغيَّر الوضع، بعد أن كان عدنان الحاوي يعتمد على ولده في استلام وفحص وإيصال السلاح من البحر إلى المحافظات بصحبة سلمان العبيدي، تم إبعاد الولد عن كل هذا مرة واحدة، أقنعه بأن الزوجة حين تشكّ في خيانة زوجها يجب أن يتوقف حتى تهدأ الأوضاع، ثم ختم حديثه قائلًا: وهذه ليست زوجتك يا ديب، أنها أمك، لهذا يجب أن تهدأ قليلًا.

- ومَن الذي سيحلّ مكاني؟

- لا أعرف، لكنه وجه جديد بالتأكيد. هناك شابان لا يعرفهما مخلوق، فما بالك بالحكومة؟

t.me/qurssan

بالطبع كان الظني في انتظار تلك الفرصة حتى قدمت له على طبق من فضة.. كأنه كان على يقين بقدومها، تلك كانت البداية الفعلية للشقيقين في تجارة السلاح وجني الثروة، اختارهما عدنان كوجوه جديدة وشرَح لهما كيفية الوصول إلى أرض المحروسة ومنها إلى باقي محافظات الدلتا، هناك طريق طويل في صحراء مصر الغربية، يحتاج إلى السيارات ذات الدفع الرباعي، ستسير تلك السيارات متقاطرة بقيادتهما حتى تقف على مسافة محدَّدة من صحراء أبي روّاش بالجيزة، ومنها إلى بؤر تجارة السلاح بالقاهرة..
بعد شهور طلب الظني مقابلة عدنان لعرض رؤيته الجديدة على سيده مباشرة.

- ما رأيك في مخازن للسلاح موزعة على مصر كلها يا بك؟
- قصدك مخازن استراتيجية؟
- لا أفهم ما تقوله يا بك، لكن تخيَّل أن لنا مخزنًا ضخمًا في القاهرة، وبنها، وطنطا، وأسيوط، لن نحتاج إلى السفر لمسافات طويلة والتعرض للخطر من أجل بيع قطعة أو اثنتين.
- فكرة جيدة، لكن ماذا عن مالكي المخازن؟ أخشى أن يشوا بنا.

ـ لن يكن لنا دخل بتلك المخازن، ستكون مسؤولية تجار التجزئة، حتى الحراسة سنطالبهم بها.

ـ وإذا ما حدثت خيانة؟

ـ على جثتي، ولو حدث فأقصى عدد يستطيع الخائن بيعه هو عشر قطع لأهل مدينته، لن يخاطر أحدهم بخسارتك من أجل ملاليم.

ـ فليكن مخزنًا واحدًا إذًا على سبيل التجرِبة، ابدأ بمخزن الزقازيق.

قالها عدنان ثم ابتسم، كان يعرف أن الظني يحفظ المدينة عن ظهر قلب، وإذا ما فشلت التجرِبة فستكون نهاية تلك الاستراتيجية للأبد، وربما نهاية الظني نفسه. بدأ الأخير العمل على الفور بالتواصل مع أقدم تاجر سلاح بالشرقية وإبلاغه بالقوانين الجديدة، ثمة عهد جديد يوشك على البدء تحت رعاية السيد معوض السنيورا، الشهير بالظني.

***

t.me/qurssan

الفصل الثالث
ولتصنع علي عيني

لا يزال الغجري حول العالم يحمل وزر الخطيئة الأولى، إذ يعتقد أنه من نسل قابيل الذي قتل أخاه هابيل، وأنّ أجداده هم من نسل الحدّاد الذي صنع ثلاثة مسامير لصَلْب المسيح، إذ طلب منه الجنود صناعة المسمار الرابع فكان يسمع هاتفًا يحذّره، لكنه صمّم على صناعته فأصبح المسمار مسحورًا، ومنيرًا بنور قوي، فتركه الغجري وحمل خيمته وهرب والمسمار المتوهّج يلاحقه. وما زالت لعنة المسمار تطارد الغجري من مكان لآخر وهو مستمرّ في ترحاله.. يعتبر البعض أنّ ذلك هو سرّ صلب المسيح بثلاثة مسامير فقط، وهي رواية شائعة بين الغجر إلى يومنا هذا. وتقول إحدى الروايات إنّ الغجر كانوا حراسًا على السيد المسيح، فسكِروا وناموا ولم يدافعوا عنه وتركوه يلاقي مصيره فصاروا ملعونين.

***

t.me/qurssan

قال رقم ٣٠٨:

العدد كان يتناقص، اعتدنا المهمات، اعتدنا شيخوخة الأبدال، حالة من الاضطراب كانت تصيبنا دون فَهْم، لا فرحة، لا حزن، حالة من الترقب دون عصبية أو برود، ثم يتكلم البدل عن فلسفة الحياة لدقائق مع جيرانه ويموت. تكلمتُ مع جاري رقم ٣٠٩ ذات مرة عن أهمية البشر كي نموت من أجلهم، لم يكن يملك الإجابة بالطبع، لكننا انتهينا إلى أرض ثابتة نقف عليها، ألا وهي: البشر رغم العيش في كبَد، محظوظون جدًّا باهتمام الرب.

تضخمت الغيرة بداخلنا وكوكبنا ينقص الواحد تلو الآخر، حتى حانت لحظة اختيار أقرب الأبدال إلى قلبي، ٣٠٩، وقع عليه الاختيار لمهمة داخل البلد الأهمّ في العرق القوقازي، مصر، أكثر من عشرين مهمة سابقة تمت بتلك الرقعة العجيبة من الأرض، الأبدال الأكثر سعادة بانتهاء مهمتهم عادوا منها، الأبدال الأكثر صمتًا كُلّفوا مهامّ هناك، كأنها بلاد الأسرار والعجائب والمهامّ الأكثر تعقيدًا.

قبل التكليف مباشرةً قال ٣٠٩ وهو مغمض العينين ومستلقٍ بظهره على شجرة: أفكر كثيرًا في الفشل يا ٣٠٨. هل حياتي تستحق العيش في النار؟ سأبذل قصارى جهدي، لكن ماذا لو حدث خطأ ما؟ أحيانًا أشعر بأن الله يساعدنا في الخفاء، لكنني لست بملاك كي أنجح دائمًا، ولست ببشر كي يغفر لي.

t.me/qurssan

شعرت أنه على وشك البكاء، أحببت أن أخفف عنه فقلت: إنك صديقي يا ٣٠٩، سأدعو لك حتى تعود إلينا سالمًا غانمًا.

قلتها ثم صحت محذرًا في مرح: لكن إياك أن تغلق فمك كالآخرين، لن أس...

قاطعني كأنه لا يسمعني: أريد أن أصل دون أن أُخدَع، أريد أن أنجح دون ندم، أريد أن أعود إلى جذوري دون مشقة.

قلت في حزن: معك حق.

قال في شجن قبل أن يقف على قدميه مستعدًا للطيران: أنا خائف.. خائف من البشر جدًا يا صديقي.

قالها ثم اختفى في الأفق كأنه حُلم. دعوت الله أن يخفف عنه.. وعني.

قال ٣٠٩ عندما قابلته في المرة الأخيرة:

استلمت لوح الدعاء وحفظته ثم عدت إلى بيتي قبل الانتقال، وقفت في الخلاء وتلوته، تعرف ما يحدث بالتأكيد يا ٣٠٨، الأمر أشبه بالصفعة، أليس كذلك؟ لا أدري لِمَ تذكرت وقتها تلك المرة التي وجدتني فيها نائمًا ثم سكبت ماء من النهر على وجهي، وجدت نفسي بعدها في مصر، تحديدًا على قمّة جبل أو هضبة عرفت بعدها أن اسمها هضبة المقطم، كان الوقت ليلًا، لا يوجد قمر مضيء أو حتى مصدر قريب للإنارة.

سكون، سكون رهيب لا يقطعه سوى صوت أنفاسي التي لم تعُد بحاجة إلى هواء كوكب الأبدال، لقد تكيفت على عملية التنفس هُنا في لحظات، الأمر المخجل كان ظهوري عاريًا، بحثت عن شيء أغطي به جسدي غير الرمال فلم أجد، اتضحت الرؤية شيئًا فشيئًا بعد ذلك، رأيت نورًا خافتًا ظهر على مرمى البصر، أدركت أن هناك من يعيش في السفح، كنت أعرف أن هناك شمسًا ستشرق بعد قليل وسوف يستيقظ الجميع ليجدوني عاريًا، لن يحاولوا الفهم وقتها بالطبع. ولو حاولوا لن يجدوا مني أجوبة شافية. أنا قادر على التصدي لأي عدوان كما تعلم، لكن تفهُم الحكمة من نزولي إلى تلك البقعة أجبرني على تجنب أي صدام، لن أبدأ مهمتي بالهروب من مكان الهبوط.

هكذا بدأت أولى ليالي في القاهرة بسرقة قميص وبنطلون معلقين على أحد الحبال، وحذاء من أمام أحد المساجد القريبة. بعد أن ارتديت تلك الملابس الغريبة صرت واحدًا من الكوكب، أتكلم اللغة العربية في بلد عربي، صحيح أنها عربية فصحى لكن هناك حيلة ما دائمًا للتخلص من أسئلة الفضوليين. توجهت ناحية أعماق الهضبة، وجدت كشكًا خشبيًّا مهجورًا، يبدو أنه بُني لغرض عسكري أو ما شابه، فقررت المبيت فيه.

تأملت الفضاء الفسيح وعبأت رئتي بالهواء الطلق وطفقت أفكر، هنا عاش الأئمة وزُهّاد الصوفية، هنا بُنيت الأديرة، وسُجن موسى، وعاش يهوذا أكبر إخوة يوسف، هنا، لم يكن يراني من هذا

الكون غير الله.. عالمنا البعيد عني ربما بملايين السنين الضوئية كان هنا في ذهني، وأستطيع العودة إليه بعد نجاحي، أما البشر فصار هناك مخلوق آخر يشاركهم البحث عن حلّ اللغز: هل الكون صورة مرسومة لتسليتنا أم لنعجز عن تخيُّل ما هو قادم؟

كانت ليلتي الأولى مثيرة، وغلبني النعاس لأول مرة في عالم البشر.

في أول صباح لي على الأرض قابلت أول بشريّ، كانت طفلة في العاشرة من عمرها، تعدو حافية إلى الكشك، من بعيد رأيت عدة أطفال يعدون خلفها، يبدو أنهم كانوا يلعبون. هناك نوعان من البشر إذًا، ذكور وإناث، أعرف النوعين لكنني كنت أراهما للمرة الأولى، الأطفال لم يتضايقوا من وجودي، كائنات سطحية التفكير وبريئة المظهر في نفس الوقت. رأيت سيدة قادمة من بعيد وبيدها رغيف من الخبز وتنادي أحد الأطفال وتدعوه للطعام مرددة حشدًا من الشتائم دون سبب، رأتني فجفلت واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم، وبصقت عدة مرات في صدرها، وهي حركة غريبة تدلّ على الذعر، ثم قالت في وجل: من أنت؟

قلت ببطء ضاغطًا على حروف كلماتي: أنا رجل يا سيدة، رجل مصري.

نظرت إليَّ في حيرة ثم ضحكت بصوت عالٍ وقالت: ما لك يا رجل؟

t.me/qurssan

ابتسمتُ لها وهي تنظر إلى ملابسي غير المنسقة في شك لثوانٍ، ثم أدارت وجهها وهي تصيح: تعالوا هنا يا عيال.

وقفتُ في بلاهة منتظرًا أي هجوم من أقاربها، لكن لم يحدث شيء، الغريب أنها تركت الرغيف لي في ابتسامة قبل أن تنصرف. هذا شعب غريب لكنه ودود في نفس الوقت، لاحظت أنها لم تنزعج من شكلي.

من بعيد رأيت قلعة، يسمونها قلعة صلاح الدين، هنا التاريخ له وجود واحترام، سرت في الشوارع حتى وصلت إليها، الجميع كان ينظر إليّ في تعجب بعض الشيء، البشر هنا مزعجون للغاية لكنهم غير مؤذين. بحثت عن أماكن تجمعهم وأهمها المقاهي والأسواق، آخر الأبدال الذين زاروا مصر كان رقم ٣١٧، زارها عام ١٩٦٦، وهي حقبة بائسة إلى حد ما، قال لنا إنَّ المقاهي هي روح مصر، لم أفهم معنى المكان في البداية لكنني تخيلته، مبنى من دور واحد يطلّ على الشارع ويجلس به المصريون لتناول كثير من المشروبات سوداء اللون، ويحكي كل منهم تفاصيل يومه. جلست على مقهى بجوار القلعة وطلبت ما سمعته..

ــ واحد شاي.

كنت أريد تعلم اللهجة أو على الأقل فَهْمها، بعد فترة جاءني من يقول بصوت عالٍ: الحساااب.

t.me/qurssan

فزعت بالطبع، أول مرة يُطلَب مني شيء، ثم إن الكلمة نفسها مخيفة، لا أعلم لِمَ الإصرار على ترديدها هنا في الدنيا، نحن الأبدال نعرف حسابنا جيدًا، بينما أنتم يا بني البشر فسوف...

ـ أين الحساب يا أخ؟

نظرت إليه في دهشة، يريد ثمن المشروب، حذرني الجميع من هذا الفخ، لكنّ شغفي بالبشر أنساني. ما الحل إذًا؟ قلتها لنفسي وأجبت وأنا في أعلى درجات الخجل: ليس معي نقود.

ردد صبي القهوجي: نقود؟! ربع جنيه نقود؟! أما أنتم يا عواطل المقطم عليكم حركات.

حمدت الله أنّ اسم العملة هنا لم يتغير، تأكدت أنني أسير على الطريق الصحيح، هنا ظهر ذكر ضخم الجثة من مكان غير مرئيّ في المقهى بالنسبة إلي وهتف بصوت أعلى: لبلب.

فهمت أنه اسم الصبي، لا أعلم لِمَ يسمي أحدهم ولده باسم لبلب، سمعت أسماء قوقازية كثيرة لكنني لم أسمع هذا «اللبلب» من قبل.. أشاح لبلب بوجهه ثم ربت الضخم على كتفي بشكل مفاجئ مقبِّلًا رأسي، كل هذا بسبب صيحة هذا الرجل الذي أخذ يقترب تدريجيًا، ولمحت الطيبة في عينيه رغم ضخامته وهو يقول: لا عليك يا بني، هل تريد مشروبًا آخر؟

ـ شكرًا.

عاد يسألني في حزم: ماذا تعمل؟

قلت بنبرة مرتجفة بعض الشيء من أثر الموقف: لا شيء.

- لماذا تتكلم بهذه الطريقة؟ (يقصد الفصحى)

قلت في حذر: أنا.. أنا من جزيرة العرب.. من اليمن.. وأسكن في المقطم.

أومأ برأسه وتفوَّه بشيء لم أفهمه، هرش الرجل -فهمت أنه صاحب المقهى- رأسه مفكرًا، ووجدت نحو أربعة أو خمسة أشخاص وقفوا يتابعون الموقف دون سبب، من الواضح أن الكل هنا يريد أن ينغمس في حياتك بالقوة من أجل مصلحتك.

قال أحدهم: لدي وظيفة له، تبّاع على سيارة ميكروباص القلعة.

ردّ صاحب المقهى بدلًا مني قائلًا: ومن سيفهم كلامه؟

اقترح ثانٍ: هنا في المقهى يا معلم.

- لبلب موجود يا قاطع الأرزاق.

هتف ثالث: جسده قوي يصلح للعمل بالمحجر، أعرف رئيس العمال هناك.

- فكرة جيدة، ما رأيك يا... ما اسمك؟

كنت مستعدًّا لهذا السؤال، فقلت: يوسف، اسمي يوسف.

- عاشت الأسماء يا عم يوسف. لا تقلق، يوميتك إن شاء الله ستكون محترمة.

t.me/qurssan

- شكرًا يا رجل.

نظر بعضهم إلى بعض ثم انفجروا ضاحكين.

ربما توقّع أن أشكره بطريقة أكثر درامية، لكنني انسحبت ومشيت بخطوات مسرعة ناحية المقطم، لمحت نتيجة عملاقة تتوسط أحد جدران المقهى وظهر بها التاريخ.. الأربعاء، التاسع والعشرون من مارس عام ١٩٨٩، نهاية حقبة الثمانينيات، لم يعنِ لي الأمر شيئًا، مجرد معلومة أبقيتها بذاكرتي كي أخبر بها الأبدال قبل وفاتي.

البشر ودودون يا ٣٠٨، ودودون رغم حياتهم الكريهة، يدخنون النارجيلة كمزاج غريب، يعيشون في منازل خرسانية ويشاهدون جهازًا عجيبًا تنبعث منه سيول من الأصوات والصور طَوال الوقت، ولهم أسماء لا أفهمها مثل لبلب، لكنهم ودودون، وهذا يجعلني أبتسم دون سبب قويّ.

في الصباح التالي استلمت العمل، كان المحجر قريبًا من الكشك الخشبي، العمل هناك كان يعتمد على استنفاد قوة العامل البدنية مما يحوله إلى خرقة بالية بنهاية اليوم، فتح مجال للحديث كان يعدّ دربًا من الخيال، اللهم وقت تناول الغداء. «اليومية» كانت معقولة بالنسبة إليّ نظرًا لقلة احتياجاتي، بعد فترة صار الكشك عشة من الصفيح.

كنت أعود عند المساء لتبدأ رحلة الذكريات، حالة من النوستالجيا ـكما يسمونهاـ تضرب في تلابيب مخي، أستنشق الهواء النقي ـبسبب ارتفاع الهضبة عن مستوى سطح البحرـ وأتعجب من غرابة تلك المنطقة، ففي الوقت الذي ترى به عمارات جميلة وفيلات محاطة بالأسوار تحوي حدائق مزهرة، ترى العشوائيات كما لم ترَها من قبل، هنا يلهو الأطفال منذ شروق الشمس وحتى آخر ضوء لها بإشعال النار في القمامة المتراكمة، يرتدون جميعًا ملابس تتشابه في انعدام التناسق والنظافة، أما الرجال فيعمل أغلبهم في المحجر أو التسوّل من زوار القلعة.. عند الغروب، تخرج النساء من الحواري والأزقّة، يمسكن بجرادل بها ماء الغسيل ويقذفن به على كومة القمامة لتسكن النار الملتهبة، تتصاعد الأدخنة حتى تلامس الجبل فتشعر بغضبه، وحين يشتد الغضب كان يلقي بإحدى صخوره لتقتل هؤلاء الأبرياء القابعين في بئر الفقر والجهل. تكرر هذا الحادث من آنٍ لآخر، آخرهم كان قبل وصولي بعدة أيام.. عند الفجر ينتشر جامعو القمامة بعرباتهم البدائية التي تجرّها الحمير لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من تلك الثروة، وعندما يحلّ الظلام يأوي الجميع إلى عششهم ـيسمونها زرائبـ لقضاء الليل في ممارسة الجنس أو التحدث عنه، أما حيواناتهم الأليفة كالماعز والخراف فتغفو بعيدًا عن مغارات الجبل الخاوية خوفًا من الحيوانات الضالة.

***

t.me/qurssan

الغضبان صار كالدراويش.. تراه شاردًا أغلب اليوم ودائم الحديث عن أمور عجيبة منذ عودته من القاهرة، الحياة والغرض منها، الحب وعذابه، العلم وفوائده، تلك غايات جميلة جدًّا بالطبع، من المقنع أن يتحدث عنها شاعر أو أربعيني لم يتزوج بعد، لكن تاجر سلاح في مقتبل العمر، لا يصحّ أبدًا. قال له الظني في أثناء جلستهما المعتادة في الصحراء: أمامنا فرصة العمر مع عدنان، لا أعلم مِن أين تأتي بتلك الخرافات! ما الذي حدث لك بعد غيابك مع تلك الساقطة؟

شعر الغضبان بالإهانة لكنه كظم غيظه وآثر الصمت كي لا يظهر ضعفه أمام شقيقه، عاد شقيقه لسؤاله: ألسنا نبحث عن المال؟

- بلى بالطبع، لا نريد سواه، لكن...

- لكن ماذا؟

هتف وهو يحاول أن يجد تعبيرًا مناسبًا: أريد أن أحيا حياة طبيعية كذلك.

قال الظني في سخرية: لا أحد يحيا حياة طبيعية دون مال، المجاذيب فقط هم من يأكلون ويشربون دون حاجة إلى المال، وقد صرت منهم.

أعرض الغضبان بوجهه لكن الظني دار حوله ثم استطرد في مكر: أم أن الحياة الطبيعية هي الزواج بالنسبة إليك؟

الحق يقال، الغضبان لم يكن يعلم ما يريد من الأساس، كانت روحه معلقة بين عالَمين، عالَم الهوى وعالَم المادة، بعد مروره بتجربة ملهمة له وهي قضاء ثلاث ليال مع خديجة ـ صدِّق أو لا تصدِّق أنه لم يُقِم خلالها عَلاقة معها ـ تزلزل كثير من المفاهيم والثوابت لديه بشكل عنيف، صار يفتح بالساعات غرف عقله المظلمة لتمرح خديجة بفوانيسها.

بدأ الأمر بينهما بحضن قوي يكسر الضلوع، ذلك الاندماج بين الأرواح والأفكار والأنفاس تحت سطوة هالة واحدة، العلماء يقولون إنه لا يمكن لجسمين أن يلتصقا بعضهما ببعض تمام الالتصاق، لا بد من وجود فراغ ولو ضئيل جدًّا لن يُرى بالعين المجردة، يومها خضع العلم، بل خالط خضوعه الابتسام وهو يشاهد رغبتهما المستميتة في إهانته. لماذا أضيء المكان وقتها رغم غياب القمر؟ لماذا صار جسدها باردًا كالثلج وجسده حاميًا كالشمس؟

في النهار كان يخرج إلى شوارع القاهرة مبتعدًا عن الدويقة قدر المستطاع، يتناول وجبة الإفطار، ثم يجلس على مقهى هادئ بمنطقة القلعة لفترات طويلة، يحتسي القهوة ويدخن السجائر، طَوال رحلته اليومية تلك رأى عوالم من البشر يبحثون عن لقمة العيش مثله، الفرق الوحيد أنها لقمة من الحلال، يمر أمام جامعة القاهرة فيتعجب من الجحافل التي تنهل من العلم، يمر أمام مساجد مصر القديمة فيتعجب من الجحافل التي تبحث عن الله، يمر أمام

المستشفيات فيصطدم بمرضى حقيقيين يبحثون عمن يواسونهم، أحيانًا كان يتصدق، فيتعجب من التناقض بين قدرته على فعل الشرّ ورغبة المنح الصادق بداخله.

في التاسعة مساءً -حسب اتفاقهما- يعود إلى خديجة، ينظر إليها بعد حضن طويل، باحثًا عن نفسه، بعد السير لمسافات والتأمل لساعات كان يجد في الجلوس بجوارها متنفسًا له، بركان من الحيرة كان بداخل نفسه، يريد منه إما الثورة وإما أن يهمد إلى الأبد، رأسه لم يعد بذات السطحية ولا قدماه بذات الرسوخ، جلس بجوارها في الليلة الأولى كالطفل وسألها: لماذا البعض سعيد والبعض الآخر تعيس يا خديجة؟

قالت في ثقة وقد شعرت بأهميتها عنده: لأن هناك من يحبّ وهناك من يعيش من أجل لا شيء.

اتسعت عيناه قائلًا في دهشة: أنا أحبك، ورغم ذلك لا أشعر بالسعادة المطلقة، فلماذا؟

ارتبكت بعض الشيء بعدما شعرت بالخجل من تصريحه بحبها، لكنها أجابته: الحب يكشف لك نفسك الحقيقية، وأنت تعرف أن نفسك...

سكتت قليلًا ولم تكمل، فنظر في عينيها وقال مطمئنًا إياها: أكملي.

ضمّت رأسه المليء بالأسئلة إلى صدرها وأكملت في هدوء: نفسك صَدِئَتْ يا محمد، تحتاج إلى إزالة الصدأ أولًا ثم تفكر في الحب.

عاد يسألها في حيرة: وكيف ذلك؟

تذكّرت سخريتها من عدم قدرته على القراءة أمام محل العصير، فقالت دون تردد: بالعلم طبعًا.

ثم استطردت: معي دبلوم تربوي، أستطيع تعليمك القراءة -على الأقل- في ساعات معدودة.

رفع رأسه قليلًا ونظر إليها بطرف عينيه وردد في تعجب: القراءة؟!

ابتسمت في حنان وأومأت برأسها في فرحة، فسألها وهو ثابت على نفس الوضع: من أين تأتين بهذا الكلام؟

ضحكت ثم وضعت يدها اليسرى على فمها بسرعة كي تكتمها، ثم أشارت بيدها اليمنى إلى قلبها وقالت بصوت مكتوم: من هنا.

كان حديثها كتجرُّع الخمر في الصحراء، يذهب عقله دون خطيئة.

بعد استحضار مشاعره مع خديجة أفاق على صوت الظني وهو يصرخ في وجهة قائلًا: هل فهمتني يا حلوف؟

t.me/qurssan

رد بسرعة الحلاليف قائلًا: نعم نعم، أنا معك مهما يكن، لا تقلق يا ظني.

في تلك الفترة، قابل الشقيقان الرجل الذي له دور كبير في وضع أقدامهما على أول الطريق الصحيح، حافظ الدكش، لم يقبض عليه رجال الشرطة بعد، أو لربما صار صديقًا حميمًا لهما. قابلهما بحفاوة وترحيب كبيرين بعد أن صارا ذراعَي سيده اليمنى، سألهما عن توبة فأخبراه أنهما لا يعرفان عنها شيئًا. بعد تسليم النقلة وتناول الغداء كان كل منهما يفكر في شأن مختلف، الظني كان يفكر في كيفية إقناع حافظ بإنشاء مخزن للقليوبية، والسيطرة على هذا الوغد المتحذلق الذي يذكَره باستخدام شقيقته كطعم للزبائن. أما الغضبان فكان يفكر في صديقة شقيقته، القطعة الشاردة من روحه، الحبيبة والصديقة و... المعلمة، أليست هي من علمته القراءة، سرّ الكون كلّه؟ ألم تقُل له اقرأ فكانت أُولى كلماته المنطوقة عن علم: «أُ حِ بُّ ك»؟ قرر أن يزور تلك الذكريات السعيدة، لم يكن متيقنًا من وجود خديجة، لكن كل من اقترب من ذكرياته نجا. نظر إلى شقيقه وكأنه يؤكد له فكرة يود تنفيذها، وقال في جدية: سأذهب لأطلّ على توبة ونتقابل في أبي رواش بعد ساعات قليلة.

صوب الظني أنظاره إلى الأرض وابتسم في خُبث، فأضاف الغضبان قبل أن يعقب أخوه بعد أن أخذ نفَسًا عميقًا: لم نسأل عنها منذ شهور، وأعرف أن الأمر لا يعنيك، أليس كذلك؟

حدق فيه الظني بشدة ولكن ـ كعادته ـ صوّب أنظاره إلى الأرض، ثم لثوانٍ فتح باب السيارة وهو يبلع لعابه بصوت مسموع.

***

وصل الغضبان إلى مدينة العاشر مرهقًا، في الثانية عشرة ظهرًا كان واقفًا أمام بوابة المصنع الضخمة، تبدد التعب وحلّ محله الطمأنينة، لم يكن هاربًا من شيء هذه المرة، فاستأذن للدخول بشكل طبيعيّ، سأل حارس البوابة الداخلية عن خديجة واستأذنه في طلبها، جاءت بطرحتها السمراء والبلوزة الحمراء والتنورة الجينز الضيقة التي تصدر صوتًا مع حركتها السريعة، فتاة عادية لا تكاد تلفت نظرك في الطريق، لكنها تحمل له العالَم بين كفيها. كان الحرج واضحًا على محيا خديجة، خصوصًا عندما نظر إليها الحارس نظرة خاصة. ابتسمت له في تودّد حتى يتركهما وشأنهما، فتحرك الرجل ببطء حتى شعرت أنه لم يعُد قادرًا على سماع ما يقال، تمتمت وهي تتأفف: إنّك رجل ثقيل الظل.

قالتها ثم وجّهت حديثها إلى الغضبان قائلة في اقتضاب: ماذا تريد؟

قال الغضبان في همس: أريد عفوك.. وقت طويل منذ تقابلنا و...

قاطعته في حدة: قرابة تسعة أشهر.

مازحها في محاولة لتلطيف الجوّ قائلًا: اقترب موعد ولادة طفلنا إذًا.

t.me/qurssan

نظرت إليه ولم تستطع منع نفسها من الابتسام، فسكت لحظة قبل أن يردف: اشتقت إليك كثيرًا، لم يمنعني عنك سوى العمل، ثم إنني لا أعرف لك هاتفًا حين أحتاج إلى سماع صوتك من آنٍ لآخر.

احمرّ وجهها وأشاحت بوجهها في الاتجاه الآخر معلقة في عتاب: يا سلام.

ثم ظهر على وجهها تذكُّر شيء ما، فسألته بسرعة: ألم تعرف بشأن حادثة توبة؟

ظهر الانزعاج على وجهه وسألها: ما الذي حدث؟

لم تستطع مقاومة رغبتها في البكاء وبدأت الدموع في التساقط من عينيها وهي تقول: توبة فقدت البصر يا محمد، صارت ضريرة.

بوغت بالخبر وشعر بغصة في صدره وضيق في تنفسه، وهتف غير مصدق: ماذا تعنين؟! وكيف حدث لها ذلك؟!

حكت له ما حدث على عجالة فأخذ يحرك يده على جبينه ويمسح على رأسه في قوة، تمنى أن يظهر في حكايتها متسببًا في الأمر، سيكون وقتها القصاص عنيفًا وداميًا، لكنه القضاء والقدر، لا طاقة له به غير الغضب والبكاء، طلب منها التوجُّه إلى الاستراحة لمقابلة توبة لكنها منعته حين لمحت عينَي حارس الأمن تتابعهما، فتراجع.

- حافظي عليها يا خديجة.

- برقبتي. لكنك ستعود للاطمئنان عليها، أليس كذلك؟

t.me/qurssan

أومأ برأسه وابتسم لها في يأس، ابتعد بخطوات بطيئة ثم التفت إليها فجأة فوجدها ما زالت واقفة تراقب خطواته، ناداها ثم هتف بعدها بعفوية: أحبّك.

صاحت مرة واحدة وهي تعدو نحوه باسمة: يخرب بيتك، لم أعطِك رقم الهاتف.

خرج من المصنع يفكر في كل شيء، طَوال طريق العودة ورأسه كالمساطيل، كان يسأل نفسه: منذ متى وأنت تحزن لأمر يخص توبة لهذه الدرجة؟ لم تكترث لحياتها يومًا، بل أجبرتها بشكل غير مباشر على ارتكاب أفعال مشينة، هل صرت ضعيفًا لهذه الدرجة؟ أم أن فطرتك غلبتك؟ ما بال أحزان الدنيا توجعك هكذا يا غضبان؟

وصل إلى أبي رواش أخيرًا، لم ينسَ أن يتشاجر مع السائق في محاولة لإخراج ضيقه من صدره ومِن ثَمّ يهدأ، وجد الظني نائمًا بعد مجهوده الضخم بالطبع، نظر إليه نظرة طويلة، طويلة جدًّا، تلك النظرة التي توقظ النائمين وتقتل الخونة وترعب الكاذبين، أيقظه بالفعل، جفونه ثقيلة وشعره أشعث وحركته ما زالت غير واعية، وجد شقيقه واقفًا أمامه فتنهّد ودفع جذعه العلوي دفعًا لينتصب، ثم أسنده للحائط قبل أن يبدأ الكلام بصوته الأجش والذي جعله النوم أكثر غلظة: لماذا تقف هكذا؟

قالها ثم بحث عن علبة السجائر بجواره وأشعل لفافته قائلًا في سخرية: ها، قابلت السنيورا؟

t.me/qurssan

ثم انتابه ضحك هستيري وهتف بصوت غير مفهوم بسبب تلك النوبة: قابلت جدتك السنيورا يا ابن... يا ابن معوض.

لم يحرك الغضبان ساكنًا، وظل ثابتًا بتلك النظرة فارغة المعاني حتى قال بصوت عالٍ: توبة فقدت بصرها يا ظني.

توقَّف الأخير لثوانٍ، ثم عادت نوبة الضحك إليه مرة ثانية.

***

خلت الشوارع من المارة كعادة مدينة العاشر من رمضان، وزاد على ذلك تزايد القيظ مما نبأ بعدم ظهور آدمي حتى العصر غالبًا.. على غير المتوقع ظهر شاب نحيل القامة، يرتدي قميصًا مشجرًا وبنطلون جينز أبيض اللون، حليق الرأس تمامًا، تاركًا شاربًا ضخمًا فوق شفتيه ليشعرك بالخطورة، فضلًا عن أثر لجرح قديم فوق جبهته بالعرض، مما زاد من خطورة هيئته.. اقترب من بوابة مصنع «مكة» للزجاج ليجد الحارس ممسكًا بزجاجة يملؤها بالماء من السبيل الملاصق للسور.

سأله الحارس: إلى أين يا أستاذ؟

أخرج الشاب لفافة تبغ وقدمها للحارس قائلًا بعد أن بصق علكة كان يلوكها: أريد مقابلة المدير.

فحصه الحارس بنظرة سريعة فشعر بخطورته، لكنه قاوم توتره وقال وهو يتناول اللفافة: لم يعُد هناك مدير للمصنع، صاحب المصنع صار مسؤولًا عن كل كبيرة وصغيرة.

- أقصد صاحب المصنع، الرجل السعودي.

t.me/qurssan

سأله الحارس: لماذا؟

أنهى الشاب الحوار وهو يتقدم للداخل قائلًا: الأمر شخصي.

رفع الرجل صوته مناديًا قائلًا في صوت حاول أن يخرج من فمه متماسكًا: يا أستاذ!

قضى الشاب على هيبة الرجل تمامًا وهو يهتف في حدة دون أن ينظر إليه: سأقابل المدير وأخرج على الفور، لا تقرفنا بصوتك هذا.

لملم الرجل كرامته المبعثرة ونظر إليه من ظهره في غلّ، ثم أشعل اللفافة دون اعتراض ثانٍ.

سأل الشاب عن المكتب فأشار إليه حارس البوابة الداخلية، طرق الباب مرتين ثم دخل دون سماع الإذن بالدخول، وجد المستثمر منهمكًا في مطالعة وتوقيع بعض الأوراق، نظر إليه الأخير في تساؤل وهو يخلع عويناته ويضعها أمامه قائلًا: من أنت؟

ردّ الشاب بهدوء دون أي إشارة لاستفزازه: أنا شقيق توبة، السيد الظني.

تذكّر المدير اسمها على الفور وتذكّر معه حالتها فعاد ليسأله مرة ثانية: نعم، هل هناك شيء أستطيع أن أقدمه لك؟

ظن في البداية أنه يريد العمل بالمصنع كنوع من الاستجداء بحاله شقيقته، لكنه فوجئ بطلب غريب من الظني عندما أجابه

t.me/qurssan

قائلًا: عرفت من توبة أنك قمت بتعويضها، وأنا هنا لأخبرك أن المبلغ زهيد جدًا.

لم يكن الظني يعرف مبلغ التعويض، لكنه قرر أن يزيد من شعوره بالذنب فاستطرد: لقد ضاع بصرها، أي إنّ عملها انتهى، بل زواجها أيضًا، ستقضي بقية عمرها هكذا يا بك.

لم يكن المستثمر شاعرًا بأي خطر من جانب محاوره، هناك مئة عامل على الأقل بالخارج يستطيعون الفتك بالظني وقتما يأمر، وما دام الأخير مراده المال فالأمر قابل للتفاوض، صحيح أنه كان من النوع المتدين لكنه رجل أعمال في النهاية، يعرف جيدًا كيف ينتصر في المعاملات المادية.

فتح خزينته دون كلام وأخرج منها رزمة ورقية ووضعها أمامه ثم قال في اقتضاب: هذا «باكو». فلتنهِ هذا الأمر إلى الأبد.

كرر الظني في تذمُّر: لن تتزوج يا بك!

كان وقته لا يسمح بهذه المهاترات وبلغ ضيقه مداه، فهز كتفيه وقال في لا مبالاة مفتعلة: هذا ما لديّ.

أخذ الظني المال وهَمّ بالخروج، لكنه توقّف بشكل مفاجئ والتفت إلى الرجل قائلًا: سأذهب إلى توبة في الاستراحة لأعطيها المال.

هزّ الرجل رأسه بالموافقة ثم أعاد وضع العوينات مرة أخرى.

***

كان الشاعر يقرأ قصائده للعميان، لم يكن يتوقع أن يكون ذلك صعبًا إلى هذا الحدّ، شعر أن كل جملة تمرّ هنا بامتحان العتمة وعليها أن تعتمد على نفسها بلا أضواء وبلا ألوان، لكن دمائة العميان كانت كبيرة، هم يصغون، يصفّقون، حتى إنّ أحدهم اقترب منه بكتاب مفتوح بالمقلوب ليطلب توقيعًا غير مرئيّ بالنسبة إليه.
(فيسوافا شيمبورسكا، شاعرة بولندية)

***

ـ ما الذي تراه؟

هذا السؤال سئمه أغلب المصابين بالعمى، الإجابة تكون دائمًا: لا شيء.

يعتقد كثيرون أنه بمجرد إغماض العينين فإنه سوف يعيش تجربة كالتي يعيشها المكفوفون، ذلك على خلاف الحقيقة لأن الأعمى يعيش حالة خاصة جدًّا، ليس اللون الأسود ولا أي لون كان.

تقول جانس سترينج، مصابة بالعمى منذ الولادة، إنها لا ترى شيئًا ولا تفهم معنى الرؤية، لكنها تعرف أن التفاحة حمراء حسبما يقال حولها، فعندما يقول أحدهم إن هناك شخصًا يرتدي قميصًا أحمر فهي تتذكّر التفاحة وملمسها وطعمها.. أما من فقدَ بصره بعد أن كان مبصرًا فالأمر يختلف، فـ١٨٪ فقط منهم يرون السواد التام، أما النسبة الباقية فترى خيالات أو

t.me/qurssan

صورة باهتة لا تتحرك ولا توضح شيئًا، أو بعض المناطق مظلمة ومناطق أخرى يرونها بوضوح، والأخيرة فكانت حالة توبة.

بعد أن تسافر خديجة إلى الدويقة في الأسبوع الأخير من كل شهر، يظهر صديق من نوع آخر لتوبة، الراديو. وإذا كان المبصرون يعيشون متعة خاصة مع الراديو، فإن فتاتنا نصف الغجرية كان الراديو بالنسبة إليها أشبه بحياة كاملة. إذاعة الشرق الأوسط، القرآن الكريم، صوت العرب، أم كلثوم... عالَم جديد متجدد بداخله عاصفة من المعلومات والفن والعاطفة والأفكار، ساعدها اكتشافه على أن تصير أقوى من الاستسلام لغيبوبتها السابقة.

في الظهيرة وصل الظني إلى استراحة شقيقته، دق الباب بهمجية كعادته، فسألت في ذعر: مَن الطارق؟ خديجة؟

ـ أنا السيد.

فتحت على عجل ـ قدر استطاعتها ـ فسمعته يقول بشكل أكثر وضوحًا: أنا السيد يا توبة.

لم تتحسس وجهه بالطبع، الأمر لم يكن يحتمل الشك بعدما سمعت صوته، شعرت به يضمّها إلى صدره ثم يقبّل جبهتها في هدوء فجزعت، كانت ترتدي نظارتها السوداء لكنه أمسك بها ورفعها لأعلى قليلًا متأملًا عينيها في فضول، فنظرت إلى أسفل في خجل وهي تسأله: هل محمد بخير؟

t.me/qurssan

أقسم لها أنهما بخير كأن المفترض منه هو الكذب، ثم حكى لها ما حدث بينه وبين صاحب المصنع بشكل مغاير تمامًا للحقيقة، قائلًا: الرجل سينهي أعماله هنا في مصر، أين ستبقين إذًا؟ الاستراحة لن تدوم لك، وإن دامت فخديجة لن تدوم، يجب أن نقابل هذا الرجل ونقنعه بشراء شقة لك، في الزقازيق مثلًا، ما رأيك؟

- شراء شقة؟!

- طبعًا، أنت لم تقاضِه حتى الآن، إذا هددتِه يا توبة فسيتضاعف مبلغ التعويض عشر مرات على الأقل.

- لا أعتقد ذلك يا ظني، لم يكن ذنب الرجل...

قاطعها مرددًا في حدة: لم يكن ذنبه؟! ذنب مَن إذًا؟

جلس يعيد على مسامعها ما قاله بأكثر من طريقة، كانت صورته الضبابية أمامها تؤنسها، لكنها تعرف أنها ستشعر بالضيق بعد انتهاء هذا الحوار.

ختم حديثه قائلًا: متى تعود خديجة؟

- الثلاثاء القادم.

- إذًا غدًا سآتي ومعي الغضبان كي نقابل ثلاثتنا المدير ونعرف رؤوسنا من أرجلنا.

لم يكن هناك سبيل للتشاور مع صديقتها الوحيدة التي كانت تقضي إجازتها الشهرية، لم تكن تملك حتى رفاهية النظر إلى عينيه

t.me/qurssan

لتعرف مراده، كان الشك يملأ رأسها، من أين أتت تلك الرحمة في قلب أخيها؟ هناك أفعال نخشاها بسبب نيات من أتى بها، وهناك من نتلهّف النيات الحسنة في أفعاله وإن جاءت بالخطأ، النيات السيئة مآل صاحبها الخسارة بالتأكيد، لكن أيضًا ضحاياها كُثر.

هكذا شعرت بوجهها يزداد حزنًا على نفسها فغطته بكفيّها وقالت بصوت متهدج: إن كنت تريد شيئًا مني فأخبرني به، وأنا عيني لك، لكن إن أردت خداعي انتقامًا فأرجو أن تتركني لحالي.

هبّ مِن جلسته مخرجًا الرزمة الورقية ثم أمسك يدها بقوة واضعًا المبلغ بها وهو يقول في غضب مصطنع: تفضّلي يا أختي، هذا كل ما أملك الآن، جئت كي أساعدك به.

سمعت خطواته تبتعد وصوت فتح مزلاج الباب، فقامت مستندة إلى المنضدة ثم بحثت عن الجدار وهي تناديه، عاد سريعًا وأمسك بيدها وأخذ يهدئ من روعها، قالت وهي تضغط على كلماتها: لا أريد المال، أريد ألا يخدعني أحد، فقط.

هزّ الظني رأسه رافضًا كأنها تراه، وقال وهو يحاول الحفاظ على حيادية صوته: أخادع مَن؟ شقيقتي؟ هذا الخليجي هو من يخادعك، ثم بعد أشهر قليلة سيبلغك بضرورة إخلاء الاستراحة.

تخيلت المشهد فأشاحت بوجهها في حركة معتادة من العميان وأخذت تردد: الشر مآله الخسارة يا ظني، الشر مآله الخسارة.

***

t.me/qurssan

رواية ثانية كاذبة قيلت للغضبان لكنها حملت تفاصيل مختلفة وأبعادًا أخرى تناسب شخصيته، قال الظني في هدوء: أختك سيتم طردها من المصنع.

سأله الغضبان في دهشة: كيف عرفت؟

ـ زرتها هناك وصارحتني بما يدور.

ـ هل رأيت ما حدث لها؟

ـ نعم.

قال الغضبان في حيرة: لكن لماذا؟ على حد علمي فإن المصنع يعمل جيدًا.

رفع الظني حاجبيه وحرك يده اليسرى في إشارة إلى عدم علمه بالسبب، ثم تمتم في هدوء: غالبًا الأمر لا يخصّ المصنع، إنما يخص شقيقتك نفسها، لم تعُد ذات فائدة.

هتف الغضبان بانفعال: الكلب الوسخ، صحيح خليجيّ لا يعرف سوى القرش.

ـ لدي فكرة للانتقام منه.

ـ ما هي؟

ـ نسرقه ثم نشتري بالمال شقة صغيرة لتوبة بالزقازيق، ما رأيك؟

نظر إليه الغضبان في شك ثم قال متسائلًا: ومنذ متى هذه الطيبة؟

t.me/qurssan

شعر الظني أنه اقترب كثيرًا من غايته وقال: ليست طيبة، الجميع سيستفيد، المال وفير، وأختك ستتشرد، ولن يشكَ أحد بأمرنا. الأمر متروك لك، إن وافقت فهيا بنا، وإن رفضت فلتنسَ ما قلته.

ـ ما خطتك؟

ـ أنصت إليَّ جيدًا يا أخي.

كانت خطته بسيطة، لا يتعدى زمانها نصف الساعة، بعد الانتهاء سأله الغضبان: وخديجة؟

ـ وجودها سيربكنا وسيضعها بدائرة الشبهات بعد اكتشاف السرقة.

«الظني صار رقيق القلب يلتفت إلى مشاعر البشر ويداويها، الأمر مريبك أكثر من وجود خديجة»، قالها الغضبان لنفسه.

في عصر الخميس من نفس الأسبوع تحركا، تسلقا سور المصنع كما فعلا في السابق حتى وصلا إلى سطح مبنى الاستراحات، بعد مغيب الحمرة في السماء هبط الظني يدق باب توبة تاركًا الغضبان على السطح حسب الاتفاق، فتحت له ويبدا عليها أنها كانت في الانتظار من الصباح، سألته في توتر: لماذا تأخرت؟ وأين الغضبان؟

أجابها: الجوّ رائق الآن، وتستطيعين طلب المال منه.

سألته في ذُعر: ألن تأتي معي؟!

t.me/qurssan

ردّ عليها بصوته الأجش: لا، سأتبعك بعد قليل، افهمي نياته أولًا، إذا رفض فسننهي الأمر في الفرصة الثانية.

تنهدت بصوت مسموع وهي تهمس لذاتها: الأمر لله.

فتح لها الباب فبدأت في قراءة الأدعية وهي تتحسس طريقها، وسمعته يقول مِن خلفها: يجب أن تبكي يا توبة، ابكي بحرارة.

أكملت طريقها دون الردّ عليه، سارت في ارتباك رغم أنها تحفظ الطريق عن ظهر قلب، الطريق الأسفلتي الممهد تحت قدميها كانت تخرج منه رائحة المدينة البِكر، تمرّ برأسها ذكريات قديمة دون سبب، خصوصًا ما سمعته عن والدتها، شعرت بالحنين إليها وفي نفس الوقت بالرضا عن غيابها، كانت قد سمعت قصة النبي يوسف من خديجة، تخيلت والدتها ترقيها أو تأتي بدواء يعيدها مبصرة، ابتسمت ثم دعت في سرّها أن يُفرِح الله روحها بأحد النورين، نور قلبها المنطفئ منذ غياب الجازية، أو نور عينيها المنطفئ منذ الحادث.

بعد سير طويل ومقبض كطيران الخفافيش وصلت إلى الحارس، شعرت بحرارة راكية النار أمامه، لا من أجل التدفئة، بل لعمل الشاي، كان يرتدي جلبابًا وعمامة تظهران أصوله الريفية ويدندن بشيء ما، نظر إليها في تفحُّص ثم أكمل ما كان يفعله.

- أي خدمة يا ست توبة؟

- أريد مقابلة المدير.

t.me/qurssan

ـ المدير أم صاحب المصنع؟

ـ أقصد صاحب المصنع، لم يعد هناك مدير، أعرف ذلك.

هَمّ بالاعتذار لها في أدب ثم نظر إليها مرة ثانية، عيناها منعته، الخوف من العاهة يتناسب طرديًا مع حجم الشفقة على صاحبها، غيّر رأيه قائلًا في خجل من طلبه: بالتأكيد يا ست توبة، يدك لأمسك بها.

دخلت المبنى ممسكة بيده وقلبها يدق بسرعة، كانت الأفكار التي كررتها لنفسها مرارًا قد تبخرت، لكنها تذكرت «دعاء الدخول على ذي سلطان». وقفت في الخارج كعادتها حتى يؤذَن لها بالدخول، أذن الرجل بالطبع، يذكر جيدًا آية عتاب الله لنبيه محمد بعد عبوسه في وجه أعمى، الحكاية التي تترسخ في وجداننا جميعًا، فمن هو ليعبس في وجه توبة أو يمنعها من الدخول؟ أغلقت الباب خلفها و...

تعرفون ما ستقوله جيدًا، لهذا دعنا نبحث عن الشاب الذي وضع الخطة، كان الظني يعدو بسرعة جنونية حتى وصل أمام الراكية ثم اختبأ خلف مبنى المصنع لدقائق، سمع وقع خطوات توبة والحارس فزاد تركيزه، لمحهما يخرجان أخيرًا للهواء الطلق ليقفا على بعد عدة أمتار من المبنى، والحارس يقول: لا تحزني يا توبة، ما زلتِ في مقتبل العمر، والرجل لم يقصِّر معك.

هنا تسلَّل الظني إلى داخل المبنى في خفة من خلف الحارس قبل أن يسمع توبة تقول: لا تقلق، عُد إلى عملك، أستطيع العودة إلى الاستراحة بمفردي.

تركها الحارس تذهب كما تشاء وهو يراقبها، ضاربًا كفًّا بكفٍّ وهو يقول في تعجُّب: مَن أقنعها بهذا الكلام الفارغ؟!

نعود إلى استراحة المستثمر السعودْي، الرجل كان مدهوشًا من طلب الفتاة، افتراضها إغلاق أبواب المصنع عما قريب أثار حفيظته فلم يعُد يسمع ما يقال بعدها، بعد طردها وقَسَمه بأن يطردها من الاستراحة كذلك. دخل في دوامة تأنيب الضمير، ويعرف جيدًا أنه لن يخرج منها بسهولة، أخذ يبدّل من وضع لوازم المكتب في عصبية، ثم حرك نموذجًا صغيرًا للكرة الأرضية كان بجواره، تأمّل موضع المملكة السعودية على الخريطة في حنين، يبدو أن حديث الفتاة أيقظ بداخله ما كان يخشى البوح به، لم يكن يخسر في مصر، لكن أرباح المصنع لم تكن مشجعة على الاستمرار. قال لنفسه: عام آخر لن يضر.

في تلك اللحظة فُتح الباب، وجد الظني أمامه فعرفه على الفور، تسرَّب إليه بعض الخوف هذه المرة، لم يكن أحد بالخارج سوى الحارس، فكَر في الضغط على زر استدعاء الأخير لكنه تراجع، لا يجب أن يظهر في صورة المرعوب أمام شاب في أول العشرينيات، تكلَّم هو أولًا برباطة جأش: ماذا تريد؟ ماذا تريدون جميعًا؟ هل هي سويقة؟!

t.me/qurssan

قالها بلهجة قريبة من العامية المصرية ثم أضاف: لم يعُد لديّ ما أقدمه لأختك.

لم يكترث الظني لهذه الحركات وقال بشكل آلي: توبة خرجت من هنا غاضبة، لماذا؟

لاح التساؤل في عيني الشيخ وقال مستنكرًا: لماذا؟ لأنها تريد ابتزازي وعن طريقك، وإلا فلماذا جئت الآن؟

قطب الظني غاضبًا وقال في زمجرة: جئت لآخذ حقنا.

لم يكن هناك وقت لتلك المهاترات، تحرّك الظني بسرعة، أمسك بيد المستشر قبل أن تصل إلى زرّ الجرس، ثم قفز في خفة على سطح المكتب وجذب سلك الهاتف الأرضي إليه بعنف، وفي لمح البصر كان واقفًا بجوار الشيخ السعودي ويلفّ السلك حول عنقه بقوة، لم يكن الرجل مستوعبًا بعد ردّ فعل الظني المبالغ فيه، توقع مشادة كلامية أو حتى اعتداءً من نوعية الإمساك بياقة القميص، لكن الأمر اتخذ منحنى مرعبًا ومفاجئًا.

كانت نظراته بين التوسل والهلع والاستسلام للقدر، أما الظني فكان مستمرًا في خنقه وعيناه تبحثان عن خزينة المكتب أو أي متعلقات تخصه، فاضت روح المستشر إلى بارئها، فترك الظني جثته تسقط أرضًا، وضع كل ما خفّ وزنه وغلا ثمنه وانتظر قليلًا حتى ينفذ الغضبان باقي الخطة.

كان الأخير واقفًا فوق سطح المبنى مشعلًا كومة أسلاك من الألمنيوم ويلفها بسرعة، في الظلام بدت الكومة من بعيد للحارس ككرة من النار في الهواء، لم يستطع تبيّن مصدرها، اقترب من مبنى الاستراحات كي يفهم ما يحدث، هنا ترك الغضبان ما بيده سريعًا، ثم تسلق إحدى المواسير بظهر المبنى والقريبة من استراحة شقيقته، وكسر زجاج نافذة دورة المياه ليجد توبة جالسة في الصالة تبكي بحرارة، بعد أن نادى باسمها شهقت وبسملت، أمسك يدها بسرعة محاولًا جرّها خارج الاستراحة وهي تحاول فهم ما يحدث.

- اهدئي، سنشرح لك كل شيء.

قابلهما الظني في منتصف المسافة بين الاستراحة ومبنى المصنع، وبجواره الحارس الليلي مكوّمًا أرضًا بعد أن ضربه الظني من الخلف.

***

- مستثمر سعودي قُتل في مدينة العاشر؟! لا بد أنكم تمزحون!

كان ذلك هو ردّ فعل مدير أمن الشرقية بعد معرفته الخبر، سيُجَنّ جنون وزير الداخلية بالطبع، الوزارة لا تهتم لا بالاستثمار ولا بالمصنع ولا بالاقتصاد عمومًا، لكن هناك كارثة، هناك جثة، هناك سفارة ستشتعل غضبًا وقد تنهار العَلاقات بين البلدين، والأدهى من ذلك هناك صحافة لن ترحم الوزارة.

t.me/qurssan

وقف رئيس المباحث ومعاونوه أمام الجثة لا يعرفون من أين يبدؤون، فكّر قائدهم في مستقبله إن فشل ـ لا قدر الله ـ في العثور على القاتل، ثم أخذ نفَسًا عميقًا وسأل: مَن اكتشف الجثة؟

الشك يتّجه نحو المبلِّغ دائمًا، هذه قاعدة يعرفها جميع الضباط، وقف الحارس الليلي بلا حول ولا قوة، مدركًا أن الليلة ليلته، فقال في هلع: سأتحمّل أيّ شيء، لكن أرجوكم لا تلفِّقوا لي تهمة لم أرتكبها.

قال إنّ هناك من ضربه فوق رأسه من الخلف وسقط بعدها فاقدًا الوعي، هذا كل ما يعرفه. كانت بداية مبشرة لكنها لم تُعفِه من الصفعات والركلات والسباب البذيء، ولسان حال رئيس المباحث يقول: انطق بأي شيء أرجوك، سنتجه إلى مرحلة الصعق بالكهرباء أيها الأبله.

لم ينطق بشيء ذي قيمة، هنا تطوّر الموقف، لقد ذكر الرجل اسم فتاة تعمل بالمصنع منذ شهور، لا أحد يعرف من أين أتت، لا أصل لها حرفيًّا.

ـ أين المدير الإداري؟

أخبروه أنه طُرد بعد الحادث. جاء مدير الحسابات، الرجل الذي يعشق محالّ الدجاج، ليقول: توبة لها مرتب شهريّ ثابت، لكنها أقرب إلى عاملة نظافة، بل هي عاملة نظافة بالفعل، أقصد ليس لها تأمين أو ما شابه.

ثم فجّر مفاجأته قائلًا: مستحيل أن تقتل؛ إنها عمياء يا سعادة البك.

تصلّب ضبّاط الشرطة الواقفون ثم انفجروا ضاحكين.

- الحارس يعبث بنا إذًا. أحضروا هذا المجنون مرة أخرى.

نظر الجميع إليه والشرر يتطاير من عيونهم، قال أكبرهم رتبة: هاتِ ما عندك، وإلا بقيتَ هنا إلى يوم الدين.

المؤكد أن الحارس لم يكن يضحّي من أجل توبة، هو فقط كان يحاول أن يبدو حديثه منطقيًا، على الأقل يجب أن يقتنع هو أولًا بهذا الاتهام. صحيح أن توبة هي آخر من زار مالك المصنع، لكنها خرجت معه -أي الحارس- تبكي وتستند إليه بسبب إعاقتها، ما الذي حدث إذًا؟ هل انتحر الرجل؟ لا أحد يخنق نفسه بسلك التليفون لمجرد أن فتاة استعطفته وردَّها خائبة سوى الشعراء والقديسين، المستثمر السعودي رجل على خُلق -كما نعرف- لكنه ليس مرهف الحس إلى هذا الحد. هكذا ظلّ الحارس يكرر جملة ثابتة: توبة لم تقتل الشيخ، الظلم حرام يا بك، لكنها آخر من زارته.

- وفي أي داهية نجد توبة هذه؟
- لا أحد يعلم لها عنوانًا.
- انطق.

t.me/qurssan

ـ أقسم بالله أنني لا أعرف أكثر من ذلك.

ارتضى الضباط بالأمر الواقع، لنبحث عن توبة إذًا، وليظلَّ الحارس في سجنه منتظرًا..

ـ توبة معوض السنيورا.

نُشر الاسم بمديريات أمن مصر كلها، عرف رئيس المباحث أنها لم تعُد إلى الاستراحة ولا يوجد لها مأوى آخر، هنا مَرّ اسم ثانٍ أمامه.

ـ خديجة هاشم فضل الله.

فتاة تكبر توبة ببضع سنوات وتشاركها غرفتها وأغلب الشهر تعتني بها، والأهمّ أنها غائبة.. تشكّلت مأمورية لإحضار خديجة على وجه السرعة من القاهرة.. بعد خلع الباب من مكانه تم التأكد من عدم وجود أحد بالمنزل، قال الجيران إن خديجة سافرت بصحبة أسرتها إلى خالتها بالإسكندرية هربًا من حرّ الصيف، هنا زادت شكوك الشرطة حولها.

ـ وأين تسكن خالتها؟

ـ لا نعرف.

لم تكن مصلحة الأحوال المدنية بذات التطوّر التي هي عليه الآن، لهذا لم يكن هناك مفرّ من الانتظار، أربع ليالٍ كاملة قضتها وزارة الداخلية في قلق حتى عادت خديجة من المصيف.

***

t.me/qurssan

قال ٣٠٩:

حتى الآن لم أحكِ لك عن مهمّتي بهذا العالَم المزعج يا ٣٠٨، المهمة كالعادة كانت بسيطة، بسيطة إلى حدّ الاستحالة، هناك فتاة تُدعى توبة معوض السنيورا، غجرية مصابة بالعمى، كان دوري هو إيداعها بإحدى دور الرعاية للمكفوفات ثم العودة للأبدال والموت في سلام.

بعد تكليفي بالمهمة قلت لرقم ١: متى أعود إلى عالَمي؟

- حين تجدها.
- كيف؟
- لا أعرف.
- ولماذا لا تذهب بنفسها إلى هذه الدار؟
- لا أعرف.
- من أين أبدأ البحث؟
- نقطة الوصول هي نفسها نقطة بداية البحث والعودة.

مرت ثلاث سنوات أو أكثر قليلًا دون معلومة واحدة عن توبة معوض السنيورا، كنت أعرف أن اسمها توبة، وهو اسم نادر نوعًا ما، لم أقابل أنثى تحمله غيرها، بحثت عن الاسم بكل مكاتب الأحوال المدنية ولم أعثر لها على عنوان. كنت أعرف أنها من الغجر، لهذا سألت عن أماكن وجودهم هنا، دلني الجميع على حوش الغجر بسور مجرى العيون، عاملني الأغلبية هناك بتجاهل

t.me/qurssan

أو غضب عند سؤالي عن واحدة منهم، أما هادئو الطباع فأفهموني أن الغجر ينتشرون بمصر كلها ولا سبيل لمقابلتهم جميعًا. كنت أعرف أنها عمياء كذلك، لكنني لن أبحث عنها بدور الرعاية وإلا فما دوري بحياتها إذًا؟ خلال تلك السنوات قمت بخطوة إيجابية وحيدة، وهي معرفة أماكن دور الرعاية تلك، اكتشفت وجود ثلاث دور للمكفوفات، في القاهرة والإسكندرية وأسيوط.

الخلاصة أنني شعرت بعد تلك السنوات بالفشل، ثقل في قلبي كان ينمو يومًا بعد يوم وما من وسيلة إلا جرّبتها، أما حياتي الخاصة فقد انتعشت كثيرًا خلال تلك السنوات، استأجرت شقة صغيرة بإحدى العمارات المواجهة للجبل، صرت أعمل ليلًا ونهارًا دون راحة أو إجازة أسبوعية، العمل بالمحجر نهارًا ثم العمل مع لبلب بالمقهى ليلًا، بعد أن تزوج الأخير وصار يعمل الفترة الصباحية فقط. البشر قدراتهم الجسدية لا تتحمل تلك المشقة، أما أنا فلم أشعر بالتعب إلا في ما ندر. عرفت العامية المصرية، خصوصًا بعد عملي بالمقهى وصاروا يطلقون عليَّ لقب «اليمني»، صارت لي شعبية هنا بسبب طريقة كلامي واحترامي للزبائن، فضلًا عن ثقة صاحب المقهى. حاول الرجل معرفة خبايا حياتي السابقة في البداية لكنه لم يتوصل إلى شيء، لأنه ببساطة لا توجد لي حياة سابقة هنا من الأساس.

t.me/qurssan

في البداية تعرضت لمضايقات من نساء المقطم في أثناء معيشتي بالعشة، كنت أجد إحداهن ترمقني بنظرات مريبة، ثم في الليل توقظني محاولة تقبيلي، لم أفهم تلك الممارسات لكنني فهمت أن الرجال لا يمارسون الجنس بشكل جيد. مع الأسف هذا عنوان خاطئ يا سيدتي، الكائن الذي ترغبين به لا يملك عضوًا تناسليًا، بل ليس بشريًّا من الأساس. الغريب أنهن كن يزددن رغبة لدرجة الاستعطاف. لقد وضع الله متعة ولذة عظمى بتلك الأفعال من أجل استمرار النوع، أما شهوتي فلم تكن جنسية، لكنني شعرت بميل إلى الطعام هنا، خصوصًا عندما تذوقت الملوخية للمرة الأولى، أحضرها أحد العمال في المحجر وصمم أن أشاركهم الطعام، بعد فترة وجدتني أبحث عنها كالمدمنين في المحلات، حاولت الحدّ من ذلك فلم أفلح. صحيح أنها ليست طعامًا محرمًا لكن البطنة تذهب الفطنة وتقسّي القلب كما قال شمس الدين السفاريني. الاعتدال هو طريق الخلاص من الآفات، عذرت وقتها هؤلاء السيدات وطلبت من الله لهن المغفرة.

في يوليو ١٩٩٢ بدأت مهمتي الحقيقية، قرأت بإحدى الجرائد عن جريمة هزت مصر بالكامل، هناك فتاة تدعى توبة معوض الظني قتلت مستثمرًا سعوديًا، لم تستطع الشرطة القبض عليها رغم أنها ضريرة. شعرت أنها إشارة من السماء. سألت عن مدينة العاشر من رمضان ففهمت أن أقرب تجمّع للغجر هناك هو منطقة تسمى «عزبة الغجر»، سافرت إلى هناك مباشرةً كي أكون

قريبًا من الفتاة، سألت عن منزل معوض الظني فلم يجبني أحد إلا بعد نقاش طويل. حمدت الله أن طرف خيط قد بان لي، عرفت أن الرجل متوفَّى منذ سنوات وأن زوجته هي التي تسكن الدار. لم أسأل عن توبة هذه المرة؛ يبدو أن السؤال عن حال النساء غير مرغوب فيه في تلك البلاد، وجدت الباب الخشبي أمامي فطرقته عدة مرات حتى أذنت لي صاحبة البيت بالدخول، توقعت أن تكون والدة توبة لأن الأخيرة هاربة كما أشارت الجرائد، وجدت امرأة في بداية العقد السادس تقريبًا ترتدي قميصًا مخصصًا للنوم، وشعرها مكشوف، وتنتعل حذاءً خفيفًا من البلاستيك أحمر اللون، كانت ملامحها قاسية كأنّ عليها غضبًا من الله. كان بها من الغنج ما بها، أعرف تلك النظرة التي رمقتني بها جيدًا من حال نساء المقطم. قالت بمجرد رؤيتي: اللهم صلِّ على النبي.

قالتها كأنها تتحرش بي، أو لعلّها تحرشت بالفعل. لم يكن هناك مفرّ من البقاء معها لبعض الوقت، وقفتُ ثابتًا في مدخل الدار وقلت بهدوء: أين الأستاذ معوض الظني؟

رغم علمي بالإجابة لكني أبديت الدهشة وهي تقول: أستاذ؟!

قالتها ضاحكة ثم أردفت: اتَّكَلَ على الله.

وهو تعبير لديهم يعني الموت..

سألت مجددًا: وأبناؤه؟

ـ اتَّكَلوا على الله.

t.me/qurssan

وهو تعبير لديهم يعني الذهاب دون رغبة في رجوعهم.

- ومَن أنت؟ زوجته؟

قالت وهي تقترب مني: أرملته، أمر الله.

تراجعت خطوة إلى الخلف وهي تقترب أكثر، تأكدت من أن السيدة تعاني من حرمان جنسي شديد منذ فترة طويلة، ولم يكن يشغلها سوى إشباعه، قلت محاولاً تهدئة غريزتها: أين ابنتك توبة؟

برطمت ورطنت بكلمات تضمنت لعنات على توبة، فاستنتجت منها أنها على غير وفاق مع ابنتها. قالت وهي تجذب قميصها لأسفل كاشفة عن ثديين مترهّلين: ستدخل أم تتَكِل على الله؟

وهو تعبير لديهم يعني عدم إبرام الصفقة، هذه اللهجة لن أفهمها أبدًا ما حييت بشكل كامل. استنتجت أن المعلومة ستكون مقابل الإشباع الجنسي. المثير أنها لم تدهش من اسم توبة، فأيقنت أنني على الطريق الصحيح، لكنني صرت محاصرًا بين سندان فقدان أثر توبة، ومطرقة... بل لِنَقُل مطرقتين تراودانني عن نفسي. لم أتوقع أن تتخلى امرأة عن حيائها بتلك السرعة، حتى نساء المقطم كن يمهدن بالحديث ولا يبرزن أعضاءهن هكذا. خطرت لي فكرة فنفذتها على الفور.

- أنا مَدين لزوجك ببعض المال يا ست، وجئت لأوفي الدَّين.

t.me/qurssan

اقتربت أكثر حتى صار ثدياها يلامسان بطني بسبب فرق الطول.

ـ أنت يا حلو يا طويل، إن كنت مَدينًا بشيء فأوفهِ هنا.. والآن.

لا فائدة إذًا من تلك المحاولات، فصفعتها، كان ذلك هو الخيار الوحيد المتاح أمامي، هنا وجدتها تركع على ركبتيها أمامي وهي تمسك بساقي وتحتضنهما وهي تقول في توسُّل: أرجوك، لا تتركني وحيدة، سأبقى هنا دون حراك لكن ابقَ بجواري ولو لساعات، أرجوك.

نهرتها دون فهم سبب ما تفعله، فكرت في الذهاب بلا عودة، لكن مصيري بالكامل كان مرهونًا بتلك اللحظة. ثنيت ركبتي وأمسكت بساعدها الأيسر وجذبتها لأعلى برفق، نظرت في عينيها وابتسمتُ فابتسمَت وقالت في جذل: إنّ لك من هيبة الجمال وهيبة الحديث والرجولة ما لم أرَها من قبل.. مَن أنت؟

كدت أُقْسِم لها أنني لست رجلًا ولا امرأة، لكنها لم تكن لتفهم على أي حال، اعتقدت أن بها مسحة من الجنون بسبب الوحدة، هذا الإحساس كدنا نصاب به في كوكب الأبدال لولا ظهور رسول السماء. قلت والابتسامة لم تفارق شفتي: اسمي يوسف.. يوسف اليمني.

تنهدت ثم كررت في بطء: يوسف، لا يصلح لك غيره.

t.me/qurssan

قالتها ثم أمسكت معصمي وجذبتني وهي تدعوني للجلوس وتهندم من ردائها، ثم جلست أمامي على كرسيّ خشبيّ متهالك، وأخذت تتفحصني قائلة: أنت لا تعرف زوجي ولم تقابله يومًا. إنّ روحك يحكي عنها الرجل قبل المرأة، وزوجي لم يحكِ عنك شيئًا. وسألتَني عن توبة، فلماذا؟

عجزت عن التفكير لثوانٍ وهممت بالاعتراض على كلامها فعجزت عن ذلك أيضًا.

- هل تحبها؟

أجبت بسرعة: لا، لا. أبحث عنها لتسوية بعض الأمور فقط.

- إذًا ابقَ معي حتى تعود.

- ومتى ذلك؟

- ربما بعد يوم، ربما شهر، ربما عام، لا أعلم عنها شيئًا.

إحساسي قال لي إنها كاذبة، أو على الأقل كانت تستدرجني للبقاء عندها بعض الوقت، وربما لم تكن تعرف بما اقترفته توبة. لا أحد هنا يسمع شيئًا عن غير الغجر.. نظرت إليها في تفحُّص هذه المرة، لم تكن قبيحة أو شهوانية إلى هذا الحد، كانت إنسانة تجهل ما تريد. قلت في جدية: ما بك يا ست؟

أشعلت لفافة تبغ من النوع الرديء الذي يدخنه عمال المحجر، ثم قالت في أريحية كأنها تأخذ هدنة من حرب ضخمة تعيشها يوميًّا: ربما الوحدة أيها الشاب، ربما الاحتياج، ربما لعنة

t.me/qurssan

الفجر، ربما أخطاء الماضي تنتقم من صورتي، ربما الشوق إلى الألم، ربما الحقد والغلّ الذي تربّينا عليه.

ضحكت حتى سعلت من أثر السجائر، وأكملت في شرود: ما الهدف من حياتي إن لم أنَل نظرة من الله وقد قاربت حياتي على الانتهاء؟ وبعد تلك الحياة القاسية، ما فائدة مقابلته بروح مشوهة؟ وما فائدة رحمته إن سبقها عذاب النفس؟ هل الاعتراف بالخالق وأدواته يجمّلنا في نظره؟ اغرب عن وجهي إن كنت تبحث عن توبة، لا أريد لأحد أن يرحم وحدتي شفقة، يسامحني من منطق القوة، يحدثني كحشرة أو حتى يضربني كشهوة.

أغمضت عينيها تلذذًا ثم فتحتهما وهي تقول: إن كان عذاب الجسد هو العقاب فأهلًا به.

قلت مستنكرًا: غجرية وتتكلم كالفلاسفة.

أجابت ساخرة بنظرة جريئة: سأجاورهم في نفس التراب عما قريب.

عادت تسأل: من أنت؟ لا أعلم لِمَ قلت لك ما قلته الآن، ربما لأنك غريب، أو لأنك جميل، وهذا يجعلني ضعيفة.

قلت لها باسمًا: لا تقلقي، أنت سيدة رائعة، فقط تخشين العجز والموت.

سألتني باهتمام: وهل هناك حل؟

t.me/qurssan

ـ أما الموت فلا مفرّ منه، وأما العجز فلعل الله يحدث أمرًا.

أشاحت بوجهها وقالت في إحباط: وما الجديد إذًا؟

قلت بحماس متدفق: الجديد أن تستعدّي للزائر القادم، ترتدين أفضل الثياب وتلقين همومك وراء ظهرك، وتصبرين.

تساءلت في ضيق: ولماذا لم يأتِ مِن قبل؟ هل سوء معيشتي يرضيه؟

ـ الوحشة منك.

قالت بتلقائية: لا أفهم سرّ إيمانك، لكنني أحببته من أول كلمة.

ـ لماذا؟

تفكرت قليلًا ثم تراجعت قائلة: لأنك أتيت مثلما تمنيت، دون موعد سابق.

قالتها ثم مالت برأسها إلى الأمام وسألتني مكررة بحماس: هل سيأتي؟

***

أربعة أيام قضاها الإخوة بمخزن سلاح الزقازيق، أربعة أيام لم يعرف بها الغضبان وتوبة حقيقة الجريمة الوحشية، عرف الظني من حديث الناس في الشوارع أن الاتهام وُجّه إلى فتاة تُدعى توبة،

t.me/qurssan

فشعر بالاطمئنان نوعًا ما، في اليوم الثالث صارح الغضبان أخته بما يعرفه.

ـ لقد سرقنا صاحب المصنع يا توبة.

الغريب أنها لم تغضب منهما، بل من نفسها، شعرت بالغيظ والحنق لأنها سلّمت رأسها لشقيقيها. في اليوم الرابع قرر الظني العودة إلى سيدي براني، أقنع الغضبان باستئجار شقة لتوبة بالقاهرة بعد أن تهدأ الأمور.

قال الغضبان هامسًا: وأين سنبقيها لحين زيارتنا القادمة؟

ـ عند عبلة بالطبع، نحن ندفع لها شهرية.

ـ لا أعتقد أن عبلة ستوافق، أنا خائف على توبة يا ظني.

أمسكه الظني من كتفه بقوة قائلًا: فلماذا إذًا أنزلتها من الاستراحة؟ غباؤك هذا لم يكن ضمن الخطة.

دافع الغضبان عن نفسه قائلًا: أكنت تريد تركها بعد ما فعلناه؟ كل الشكوك كانت ستتوجّه إليها.

ـ ...

وصل ثلاثتهم قبل فجر اليوم الخامس عند مدخل العزبة، أطفأ الظني محرك السيارة وهتف قائلًا: انزلي يا توبة.

قالت بصوت مبحوح: وأنتما؟

ردّ الغضبان: لا تخافي يا توبة، سنجهز لك شقة بالقاهرة بالقرب من خديجة.

t.me/qurssan

نزلت توبة ببشرتها الشاحبة وهي لا تجد ما تقوله، أما الغضبان فهمّ بالنزول كي يأخذ بيدها إلى بيت والدهم، هنا هدر المحرك وتحرك الظني في لحظات، نادت بصوت عالٍ: محمد، ظني، غضباااان.

هدير المحرك كان يبتعد ليبتعد معه أي أمل في النجاة، بكت بشدة، بكت لدرجة أن أنفاسها كادت تتوقف بعد أن توقف تفكيرها هو الآخر، بكت بحرقة على نفسها وعلى هوَس شقيقيها بالمال إلى هذا الحدّ، بكت بسبب غبائها أو ربما بسبب فقدان البصيرة بعد البصر، قالت لنفسها: ماذا فعلت في دنياي كي يحدث لي كل هذا؟

هذه أسئلة عبثية لا طائل منها بالطبع، أنتِ في الدنيا القاسية يا فتاة، المكان الذي حُشرت به أرواحنا داخل أجساد واهنة ضعيفة الحيلة والإرادة، وبعد أن أطعمنا الأجساد بالشهوات والخطايا، امتلأت الأنا وأنّت الأرواح، يخبو الأنين لسنوات ولا يعود إلا بوهن الأجساد من جديد، فنبكي -ويا للعجب- على الأجساد لا على الأرواح.

***

t.me/qurssan

قال ٣٠٩:

بقيتُ ليلتين مع عبلة، تلك المرأة كانت لُغزًا غريبًا بحق، عصرتُ ذاكرتي لأعلّمها مبادئ دينها بشكل مبسط، وكانت هي مستعدة لذلك. لم تأكل، لم تتحرّش بي، بل تطهّرت وأنصتت لما أقوله، ثم قرأت القرآن وصلّت، كانت بحاجة إلى الاطمئنان لا أكثر. أحيانًا نحتاج إلى الابتعاد عن الفلسفة والتساؤلات المربكة، أنت مخلوق والأمر ليس بإهانة، تنتظر مقابلة الخالق والأمر ليس بكذبة، لتبقى مؤتنسًا بنوره للأبد، والأمر ليس كمثله شيء، وهل هناك أثلج للصدر من مؤانسة الرب وحبيبه؟ كانت تبكي كالأطفال وتطلب الرحمة كالمحكوم عليهم بالإعدام.

عرفت أنها تزوجت عدة مرات بعد معوض حتى اتهموها ـ والأمر ليس عيبًا في العزبة ـ بالبغاء، يقولون إنّ زوجها الأخير أو ربما كان رفيقها أفسد عقلها تمامًا، بعد فترة لم يعُد هناك من يشتهي جسدها، بقيت دون أهل أو حتى جليس أو رفيق لشهور طويلة، صارت تتحدث بطريقة فلسفية ليس لها مبرر. إن كان الفقر يولّد الكفر فإن الوحدة تولّد الجنون. أما الكفر فله استتابة، وأما الجنون فذهاب بلا عودة. سنوات كانت تسأل نفسها: أعذاب الحاضر يكفي لمحو أخطاء الماضي أم أن العذاب الأكبر قادم؟ فقدت إيمانها، بل بالأحرى فقدت فطرتها، فهي لم تعرف الإيمان من قبل حتى... حتى قابلتني.

t.me/qurssan

صارحتني بتفاصيل حياتها في السابق، كانت لعنة بها ألف قصة تقبض الصدور، أعتقد أنها كانت تنتظر زيارة الرب لها بالفعل ولو لمرة، حتى بعثني الله إليها.

خلال ثلاث ليالٍ اقتربتُ بها جدًّا ـ ولو بالسمعـ من حياة المرأة الأهمّ بالنسبة إليّ، توبة، حاولت التسلل إلى عقل الفتاة عن طريق عبلة كي أفهم أين اختبأت، عرفت منها أنها لم ترَ توبة منذ فترة طويلة، وأنها ـ أي توبةـ عملت مع الظني والغضبان شقيقيها من الأب بكوم السمن، ثم سافرت للعمل بمدينة العاشر.

في نهاية اليوم الثالث، قررت مغادرة عزبة الغجر كي أسلك طريقًا آخر بعيدًا عن عبلة، لم أخبرها بنيتي بالطبع بعد أن تعلقت بوجودي أشد تعلُّق، ليلتها نامت عبلة عند منتصف الليل ثم افترشتُ الحصير كعادتي ونمت قبل الفجر.. كان النعاس يغالبني، ثم سمعت صوتًا ما أيقظني، كأنّ هناك من يناديني من بعيد، قلت لنفسي: لعلها إشارة منك يا رب، لن أنتظر للصباح.

قمت من نومي فلم أجد أحدًا، ما زلت في الصالة الضيقة ذات الجدران التي غزتها الرطوبة والحصيرة المبللة بالعرق، فتحت غرفة عبلة فوجدتها تغطّ في نوم عميق، كنت أعرف أنها لن تستمرّ بعد مغادرتي بنفس الثبات الذي رأيته، وستحزن للفراق بهذا الشكل الغامض.

t.me/qurssan

خرجت من البيت كما دخلته، بلا معلومة واحدة عن توبة، ثم تذكرت صورة عبلة وهي تصلي فشعرت أنني لم أكن خالي الوفاض. سرت في ظلام أزقة العزبة حتى اقتربت من مدخلها، شعرت بشيء ما على هذه الأرض يسمونه العاطفة، لكن في عالَمي هو انحراف عن المهمة. التفتُّ لألقي عليها نظرة طويلة، فكرت في دخول كل بيت وفهم كل أسرة على حدة، وسألت نفسي: هل زار الله بيوت هؤلاء؟

ما حدث بعد ذلك كان مشهدًا غير واضح، رأيت فتاة تدور حول نفس نفسها وتبكي بصوت عالٍ، سألت نفسي: مَن هذه؟ وكيف خرجت فتاة من العزبة في هذا الوقت؟ والأهم، لِمَ تدور حول نفسها وتصرخ هكذا؟

اقتربت أكثر وتبينت ملامحها فعرفتها، لن تظهر بطريقي فتاة ضريرة لها أصول غجرية سواها على ما أظن، كانت هي.. توبة معوض الظني.

***

قال ٣٠٩:

للوهلة الأولى ظننت أنه حُلم، فتاة حنطية البشرة ذات شعر ذهبي، ملامحها دقيقة كالأطفال وعيناها ـ بسبب عاهتها ـ تنظران دائمًا لأسفل. من المثير أن يكون بينك وبين جواز مرورك إلى الجنّة خطوة واحدة، الإنسان يقيّم أعماله طَوال الوقت من أجل الفوز بها،

لكنه لا يعلم أيها سيكون له المفعول الحق. كانت تصرخ من آنٍ لآخر وتبكي دون توقُّف، لا أعرف كيفية إسكات النساء اللاتي يبكين هنا في مصر. رأيت النسوة في المقطم يبكين كهدير القطار من أجل لا شيء، كأنه طقس يوميّ أو شيء من هذا القبيل، لكنني لم أقابل واحدة تبكي فجرًا في الشوارع الخالية سواها. هممت بالتحدث إليها لكنني تراجعت، شرعت في ترتيب أفكاري أولًا.

يجب أن أكسب ثقتها في البداية ثم أفهم كيف وصلت إلى هنا، هل نفذت جريمة القتل بالفعل أم لا؟ لن أودِعها دار رعاية وهي مطلوبة للعدالة، أم أنها ظُلمت؟ هتفت فجأة بصوت مرتفع: اسكتي.

ساد الصمت فجأة ووجدتها تلتفت ناحية مصدر الصوت، ثم عادت للنحيب بشكل أهدأ قليلًا. استجمعتُ شجاعتي وقلت: أنت توبة ابنه الأستاذ معوض السنيورا ـ رحمه الله ـ والست عبلة، أليس كذلك؟

مدّت يدها لتتحسس وجهي، لكنني أمسكتها في الهواء وقلت في ثبات: لن تعرفيني، جئت هنا لزيارة قريبة لي مسنة، أعمل بالقاهرة منذ سنوات، رأيتك مرة قبل أن ترحلي عن العزبة. لِمَ تقفين هكذا؟

سألتها لأخفي كذبي الذي فاحت رائحته من الكلام، لكن لحسن الحظ أنّ خوفها غلب حاسة الشمّ لديها فقالت في توسُّل: خُذني إلى خديجة.

t.me/qurssan

سألتها في غير فهم: مَن خديجة؟

هتفت في عصبية: خديجة.. خديجة، خذني إليها، هي تسكن في منطقة تسمى الدويقة، ألست من سكّان القاهرة؟

- أعرف الدويقة جيدًا، لكنني أستطيع إعادتك لوالدتك الست عبلة.

قالت وقد زادت عصبيتها: عبلة ليست أمي أيها الأحمق. قلت لك خذني إلى خديجة.

ابتلعتُ الإهانة وبدأتُ أتحرك، أمسكت ساعدها برفق فتحركت معي، بعد دقائق التفتت ناحيتي وقالت في وُدّ: أنا آسفة.

لم أرُدّ؛ لم تزَل الإهانة تسري في جسدي. بعد دقائق أخرى صامتة لم يقطعها إلا زقزقة العصافير، قالت وهي تعدل من وضع يدها: أنت فارع الطول.

قالتها ثم تعثّرت في حجر صغير وقع أسفل حذائها، أمسكت بيدها قبل أن تلمس ركبتاها الأرض ثم أنهضتها، قالت وهي تعدل ثوبها الأبيض: وطيب القلب أيضًا.

ابتسمتُ من قلبي فلم ترَ ابتسامتي، تراجعت بعض خطوات فصارت تقف بمواجهتي، ثم رفعت رأسها كأنها فنان يتأمل لوحته، وسألتني: هل أنت سائق السيارة الكبوت؟

t.me/qurssan

لم أفهم مقصدها، فاستطردَتْ: صوتك يشبهه جدًّا، يكاد يكون مطابقًا، ثم لا أحد وقف بجواري سوى خديجة وهو. ألنت هو؟

عشرات الافتراضات هرعت من كل صوب لتقف على لساني رافضة أن تثبت لحظة، ربما كان فخًّا، وربما كانت فرصة قوية لاطمئنانها لي وإنهاء تلك المهمة والعودة إلى الأبدال. خرجت الكلمات دون أي إرادة مني ولا أعلم كيف حدث ذلك: بحثت عنك كثيرًا منذ سافرتِ إلى كوم السمن، وأراد الله ألا يخيب رجائي.

همَت بإلقاء سؤال آخر لكنني بادرت قائلًا: لقد اقتربنا من الموقف، سيارتي بها عطل كبير للأسف.

فما دمت سائقًا فسيكون سؤالها القادم عن السيارة بلا شك.

مع شروق الشمس لم يعُد هناك ما يخيف، كانت توبة تتعامل بشكل طبيعي ولا يظهر عليها أي نوع من التردد أو الخوف. سألت نفسي: كيف لقاتلة أن تتصرّف بتلك الأريحية؟ وكيف لفتاة رقيقة مثلها أن تقتل من الأساس؟

داخل السيارة التي تحمل سبعة ركاب، جلسنا في المقعد الأخير، ثنيت أنا ظهري إلى الأمام بسبب ضيق المكان، أما هي فجلست بشكل طبيعي.

قالت: تخيَّل، حتى الآن لم أعرف اسمك.

t.me/qurssan

قلت وقد توقعت أن تصرخ بعدها: «أنقذوني، هذا الرجل يريد خطفي»، فخرج صوتي مبحوحًا: يوسف، يوسف اليمني.

هزّت رأسها ولم تعلّق.

***

قال ٣٠٩:

وصلنا إلى القاهرة في الصباح، لم نتحدث في الطريق، لكنني راقبت وجهها جيدًا عندما نامت. عجيب ذلك، جعل الله فتنة كل كائن حيّ في وجهه، في عينيه تحديدًا، أما توبة ففتنتها في إحساسها بك، كأنك تجلس أمام ذاتك، خلقها الله خفيفة الروح والوجود. إن كان هذا الملاك النائم أمامي قاتلًا فلِمَ حرّم الله القتل إذًا؟ سألتها بشكل مباشر: لما قتلتِ هذا الرجل السعودي؟

قالت في ذعر حقيقيّ: قتل؟! هل قتَلاه؟!

- مَن هُما؟

- شقيقاي، الظني والغضبان.

قالتها ثم أضافت وهي ترتجف: لقد قتله الظني، أنا متأكدة.

قلت العبارة التي يكررها الجميع دائمًا: توبة، أنا أبغي مساعدتك.

ظلّت صامتة ثم انفجرت في البكاء بشكل مفاجئ، وجدتُ المارّة بمنطقة الدويقة ينظرون إليّ في تساؤل واستنكار ولسان حال يقول: كيف تُغضِب هذا الملاك الأعمى أيها الوحش؟!

t.me/qurssan

أمسكت بكتفيها هاتفًا: اهدئي بالله عليك.

قالت وهي تتشنَّج: لم أقتله، أقسم بالله لم أقتله.

صدَّقتُها على الفور، لم تكن بحاجة إلى القَسَم كي أصدِّقها. كانت تعاني من صدمة عصبية، ولِمَ لا؟ فليتَّهمك أحدهم بجريمة قتل بالباطل أو عن جهل ثم انظر إلى ردّ فعلك. طمأنتها ورددت عليها ما قالته الصحف، حكت لي باختصار ما حدث يوم الجريمة وبعض ملامح حياتها قبل إصابتها بالعمى، عرفتُ مَن هي خديجة وسِرّ تصميمها على الذهاب إليها، كانت تتكلَّم عن عوالم مبهمة بالنسبة إليَ، لكنني أحببتها سريعًا -حتى وجدتني أقف بشكل مفاجئ وأهتف: لحظة، الشخص الوحيد الذي يعرف عنك كل هذه المعلومات ويستطيع أن يرشد الشرطة عن مكانك هي خديجة، أكاد أجزم أن خديجة غير موجودة هنا، أعتقد أنها واقفة الآن أمام مجموعة من الضباط يهددونها باقتلاع أظافرها، أضيفي إلى ذلك أن العزبة غالبًا ستتحول إلى ثكنة عسكرية اليوم، إن لم تكن قد تحوّلت بالفعل.

لمسَتْ زجاج نظارتها السوداء في ارتباك، لم يكن عقلها قد استوعب بعدُ هذا الكمّ من الاستنتاجات، ربما ستبكي مرة ثانية عندما تنفرد بنفسها، شعرتُ بحيرتها وهي تغمغم: أين المفرّ يا ربي؟

لا أخفي عليك يا ٣٠٨ شعوري بالراحة وقتها، كانت تحتاج إليّ، فصرت قريبًا جدًّا من إتمام مهمّتي، لم أغامر بالاقتراب من دور الرعاية بالتأكيد، لم تزل القضية متوهّجة في أذهان العوامّ، ومنهم القائمون على إدارة الدار. هدوء غريب سرى في عروقي لأنّ مهمّتي طالت بعض الوقت. قلت دون انتظار الإجابة: هيا، أنا أعرف أين ستقيمين حتى تهدأ الأمور.

لم تسألني، وتحركتُ منتشيًا في اتجاه المقطم.

صعدنا إلى الشقة، فتحتُ الباب ثم ناولتها مفتاح الشقة، وطلبت منها ألا تغلق المزلاج من الداخل. سألتني: وأنت؟ أين ستبيت هذه الأيام يا يوسف؟

صدّقني، لم تنطق أنثى اسمي بهذه التلقائية منذ جئت إلى هذا العالَم.

قلت: أعرف كيف أتدبر أموري يا توبة، لديّ مطرح آخر بالقرب من هنا.

هزّت رأسها وابتسمَت، ثم تذكرَت شيئًا فعادت إلى التجهُّم مرة ثانية، ربما تخيُّل حال خديجة كان يحطِّم أعصابها كلما هدأت لثوانٍ. شرحتُ لها تفاصيل الشقة البسيطة، السرير، الراديو، المطبخ، يجب أن أخبرك سرًّا: لقد كانت ثلاجتي خاوية تمامًا.

فهمتُ منها أنّ الشقة لا تختلف كثيرًا عن استراحتها بالمصنع، وأن ثلاجتها كانت خاوية هي الأخرى.

t.me/qurssan

ـ ألا ترى؟

قالتها وهي تحرِّك يديها من أعلى إلى أسفل باستقامتها، إشارة إلى نحافتها. صراحة، لم أتخيلها أبدًا امرأة بدينة مترهلة تجلس القرفصاء وتنقي الأرز أمام المنازل، هناك عَلاقة ما بين روح المرأة وشحوم جسدها، يبدو أن البدانة تعطيها غلظة ليست فيها. وقفَتْ بعدها في منتصف الصالة وقالت في مرح مصطنَع: أنت الآن أمام فتاة محكوم عليها بالإعدام، لا تتركها كثيرًا دون سؤال، وإلا فلن أُعدَم مرتين.

سكتت برهة ثم استطردت بلهجة كوميدية: سأقتلك.

اقتربتُ منها وأنا أتمنى ألا تبكي كي لا يبقى المشهد عالقًا بذهني، أمسكت بكفَّي بكلتا يديها وقالت بصوت متهدج: عُد إليَّ أرجوك، لا تتركني أنت وخديجة هكذا.

***

وجدت خديجة أمامها كتيبة من جنود الأمن المركزي وأحد الضباط يشير لها بإصبعه بعدم النطق، صرخت أمَّها، حوقل زوج أمّها، همّ أخوها بالدفاع لكن ألف يد وقفته، لم يستمر المشهد أكثر من خمس دقائق، انتهى بخديجة تجلس باكية في المقعد الخلفي لسيارة الشرطة.

بعد عدة أيام لم يستدلّ فيها على عنوان أو معلومة عن تَوبة، صارت خديجة هي مصدر المعلومات الوحيد عن زميلتها.

- أنت صديقة توبة معوض السنيورا، أليس كذلك؟
- بلى.
- أين هي؟
- في الاستراحة غالبًا، إنها عمياء ولا تذهب إلى أي مكان. لكن لماذا تسألون؟ أنا لا أفهم شيئًا!
- لقد قتلت توبة الشيخ صاحب المصنع.

تحجّرت عيناها للحظات، لم يستوعب عقلها الفكرة حتى إنها لم تستطع تخيُّلها، لكنها فطنت إلى الكارثة المالية الطاحنة التي ستفتك بها، وقالت في ذُعر: قُتل؟! يا مصيبتي!!

هنا تطوَّع شرطيّ وصفعها على خدّها الأيسر صفعة قوية ألجمتها لثوانٍ وهو يقول في غلظة: تأدبي أحسن لك.

أشار له رئيس المباحث بنظرة حادة كي يتوقف، ثم أكمل حديثه قائلًا في هدوء مصطنع: خديجة، أنت صديقة توبة وزميلة سكن، نريد منك إجابة واضحة لسؤال واحد لا غير: أين هي؟

سرحت خديجة وانسابت دموعها وهي تقول في أنين: لقد تركتُها وعُدت إلى منزلي بالقاهرة، لا أعلم لها عنوانًا، هي من عزبة الغجر، أما عن القتل فأخلاقها لا تسمح بذلك، ثم إنها عمياء كما يعرف الجميع.

أخذت تردد في هستيريا: عمياء، عمياء.

t.me/qurssan

عمَّ الصمت المكان.. أفكار عديدة تصارعت داخل فريق البحث لكنهم تحركوا على الفور، توبة من عزبة الفجر، هذا يفسر كل شيء إذًا، الجميع أكد أن توبة عمياء، لكن الشيء الوحيد الثابت أن توبة تعرف ما الذي حدث، إن لم تكن هي القاتلة ـوهذا هو الأغلبـ فإنها شريكة في الجريمة، توبة هربت لأنها عرفت شيئًا ما. الفتيات القاتلات يعُدن سريعًا إلى أُسَرِهِنّ خوفًا من العقاب، لكن قبل الانتقال إلى العزبة يجب تفتيش استراحة الفتاتين.

لم يكن هناك داعٍ لكسر باب الاستراحة بالطبع، لكن هذا ما حدث، اقتحم الضبَّاط المكان ومن خلفهم الأفراد السريون، أما خديجة فوقفت بالخارج وبيدها قيد حديديّ يربطها بشرطيّ ضخم البنية. بعد العبث بكل شيء لم يظهر ما يبعث على الريبة، باستثناء كسر شراعة الحمام. ملابس قديمة، عشرة جنيهات، تلفاز ورطوبة عالية. مرت خاطرة بذهن أحد الضباط أن مجرد العيش بهذا المكان الضيق فضلًا عن كونك أعمى يجعلك تقتل بضمير هادئ تمامًا، فضحك.

تم الانسحاب بهدوء وبسرعة، توقعت خديجة أن يتركها هؤلاء الرجال المدججون بالسلاح، لكن حركة عنيفة من يد الشرطي لتتبعه خيبت آمالها، قالت في حسرة: إلى أين؟ لم يجدوا شيئًا يدين توبة، أليس كذلك؟

لم يرُدّ الشرطي بالطبع وتابعَ نزول درجات السلّم البسيطة وهي من خلفه تندب حظها.

بعد العودة إلى مركز الشرطة واستجواب جديد كررت به ما قالته في السابق، ووجدت نفسها بحجز النسوة.

بعد تفتيش الاستراحة بعدة ساعات، انطلقت كتيبة من الأمن المركزيّ لمداهمة عزبة الغجر، من جرؤ على فتح فمه انتهى به الأمر إلى الغياب شهرًا عن منزله. صرخ الضابط بوجه أحدهم: أين منزل معوض السنيورا؟

أشار الشاب وهو يرتجف إلى المنزل وتمتم: لكنه متوفى.

لم يكن الضابط مهتمًّا بالاستماع، اقتحمه بسهولة ليجد سيدة أمامه ممسكة بطست غسيل وتدقّ بيدها عليه. الغريب أنها استمرّت في الدقّ بشكل موسيقي كأنها لم تعِ وظيفته جيدًا، بل لم تعِ وجوده من الأساس، أمسكها من كتفها في تردد نوعًا ما، ثم قال في صرامة: أين توبة يا ست؟ ومن أنت؟

استمرّت في الدق كأنه نذر توفيه، دون إجابة. هزها مرتين وهي تغني بصوت عالٍ: توبة يا توبة.

هنا وجد أن أهل العزبة قد تجمعوا أمام الدار، يعلو صوتهم قائلين: هذه عبلة يا بك، زوجة معوض ـ رحمه الله ـ الأولى، لقد جُنّت هكذا منذ البارحة فقط.

شعر بالغباء لثوانٍ كأنه يشاهد فيلمًا صينيًّا ومجبرًا على استكماله، بحث عن أي شخص عاقل يمكنه استجوابه في هذا البيت المريب فلم يجد، صاح بصوت عالٍ: هل هي متزوجة الآن؟

نطقت سيدة من ورائه: لا نعلم، يظهر لها رجل كل فترة ثم يختفي.

أكملت باقي القوة تنفيض العزبة وقلبها رأسًا على عقب، ثم غادروها تاركين خلفهم الفوضى في كل شبر، وصوت عالٍ يتردد من أحد البيوت بطريقة موسيقية: توبة يا توبة، توبة يا توبة.

***

نظر نزيلات الحجز إلى خديجة بعدم اكتراث، كن يعرفن أنها ستبكي بعد دقائق، ستردد أنها مظلومة، لكنها ستعتاد الوضع الجديد بعد عدة أيام. نظرت إليهن في رعب، فأكملن حديثهن بشكل طبيعيّ، فتبدلت نظرتها للامتنان لكونهن لم يفترسنها. الأفلام السينمائية علّمتها كثيرًا عن تحرُّش نزيلات السجون بالوافدات الجدد، لكنّ شيئًا منها لم يحدث.

أسندت رأسها على الحائط كي تعي ما حدث لها في الساعات الماضية، طوفان من الأفكار المظلمة أغرقها بلا طوق نجاة سوى التفكير بالغضبان، من الوهلة الأولى عرفت أن الشقيقين وراء الجريمة وأنهما استدرجا شقيقتهما ـعلى الأرجحـ للإيقاع بالقتيل. على الرغم من عصبية توبة خلال الأشهر الماضية فإنها لن تقوى على القتل أبدًا. تذكّرت لقاءها بالمستثمر السعودي

t.me/qurssan

وكيفية مداواته لحادث توبة، الرجل لم يقصّر ولا يستحق تلك الميتة البشعة. عادت تنظر إلى النسوة من جديد، مهما كانت سيئات أعمالهن فأفكارهن كانت أقل اضطرابًا مما كان ينمو داخل أعماقها.

بعد عدة ليالٍ اعتادت بها خديجة وضع الحرمان من الحرية، وتورُّم عينيها من البكاء على فقدان حبيبها للأبد، سُمِح لها بالعودة إلى البيت. سلّمت عليها النسوة باهتمام ومِن ثَمّ نسين أمرها تمامًا، لم تعد لديهن ذكرى باقية منها سوى سؤال كررته أكثر من مئة مرة ولم يفهمنه: أين أنت يا غضبان؟ أين أنت يا توبة؟ حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا ظني.

عادت إلى بيتها في الدويقة، وبعد الأحضان والقبلات وكثير من «أنرت بيتك» أغلقت باب حجرتها واستسلمت لنوم عميق.. عرضت أمها تجهيز شقة الدور الأرضي كي تريح أعصابها لكنها رفضت بشدة؛ كانت تريد الاختلاء بنفسها وفي ذات الوقت سماع أحاديث طبيعية بعد حديث النزيلات المليء بالشذوذ الأخلاقي. حاول الجميع التعامل معها بلطف قدر الإمكان، الأخ كان يخبرها بأنه يقف في ظهرها ولن يسمح لأحدهم بمس شعرة منها، تنظر إلى الشعر المتدلي على كتفيه وقد عقص بعض الخصلات بشريط في محاولة لتقليد أبناء الذوات، لتعرف أنه واهم.. زوج أمها ـ الرجل الطيب ـ يخبرها أنه في ظهرها ولن يسمح لأحدهم بمس شعرة منها، تنظر إلى كتفيه المتدلتين ونظرات الهلع والخجل لمجرد فتح

أمها الباب بقوة، لتعرف أنه واهم.. أمها فقط هي التي تعاملت بواقعية في هذا الأمر، كانت تحضر لها الطعام الشهي ثم تنظر إليها بابتسامة صافية وتقول بحنان مع بحة تدل على إفراط في التدخين: أعمل لك كوب شاي؟

مع الليل كان يبدأ سجنها اليومي، حيرة بين ما ستفرضه عليها الأحداث القادمة، ورفضها لما حدث من الأساس، حالة خانقة من تأنيب الضمير كانت تعذبها، كابوس ثابت يهاجمها كل ليلة، أحدهم يعذب توبة بمركز الشرطة صعقًا بالكهرباء، تفيق من نومها مذعورة وجسدها ينتفض بشدة وفكرة واحدة تسيطر عليها: الجميلة توبة لن يرحمها أحد رغم أنها لم تفعل شيئًا.

أحيانًا كان يجول بذهنها خاطرة مقتل توبة على يد شقيقها، فتهز رأسها لتطرد الفكرة سريعًا، كانت موقنة بأن يد الغضبان التي أمسكت القلم وخطت الأبجدية أمامها لا يمكنها أن تمس توبة بأذى، كانت تحبه من أعماق قلبها دون سبب، تمنت ذات مرة أن يُنزع حبه من قلبها، لكنها سرعان ما دعت ربها ألا يستجيب.

المشاعر العاطفية تشبه ذلك القط الذي يلاحقك عند تناول الطعام، سيصل بك إلى القرار الخاطئ حتمًا، إذا أنت أطعمته فسيستمر في إيذائك، وإذا ركلته بعيدًا فسيخنقك تأنيب الضمير. هنا ما عليك سوى أن تحفظ اسم الطاهي جيدًا، كي لا تعود إليه مرة أخرى. لكن الطاهي هنا بنى مكانه داخل قلبها، لن تتردد في ترويض ألف قط ليبقى طعامها من صُنع يده.

t.me/qurssan

فوضى عقلها لم تمنعها كذلك من تذكّر بعض الثوابت التي لا يمكنها التخلي عنها، التخلي عن المظلوم في مواجهة مصيره الأسود هو إثم بيّن، الحديث الشريف «مَن رأى منكم منكرًا فليغيّره» كان يتردد داخل عقلها بإلحاح، قررت أن تفعل شيئًا جديدًا كي يصفو بالها، لم يكن لديها ثقة بوظيفة الطبيب النفسي بالطبع، العبث في كيمياء المخ من المحرمات في الدويقة كما نعرف، نصحها الجيران بعدة وصفات علاجية فعالة، النوم، محشو البصل، الشاي بالنعناع، قص الشعر، الرقص البلدي، إلخ. مع الأسف، ازدادت صحتها النفسية سوءًا ولم يتحسن شيء بها سوى وزنها، وجدت نفسها تفكر في السفر إلى الإسكندرية مرة أخرى، تعرف أن لها مفعول السحر، طلبت من زوج أمها وشقيقها بعض المال للسفر لكن ردهما كان واحدًا: لِمَ السفر ونحن هنا في ظهرك؟

اقترضت من والدتها بعض المال على أن تردّه لها بعد إيجاد وظيفة جديدة، هكذا وصلت إلى الإسكندرية في رحلة خاطفة من رحلات اليوم الواحد، وما إن وصلت حتى توجهت إلى الشاطئ وجلست تراقب البحر كما خلقه الله، دفنت أصابعها في الرمال وقبضت عليها بقوة، الموج الرغوي يزحف حتى قدميها ثم ينحسر تدريجيًا، تشعر بدغدغة لذيذة في أصابعها فتبتسم، شعرت بعاطفة داخلها تريد الخروج، تريد لقاء الحبيب والحديث معه عن أي شيء غير القتل، تريد استنشاق هواء البحر معه وغسل همومها أمامه، تريد الشعور بنشوة حقيقية وليس ديكورًا زائفًا لها.

بعد ساعاتٍ أدركت أنها لم تتخذ قرارها بعد، الرحلة لم تؤتِ ثمارها، العاطفة ما زالت واقفة أمام الحق في تحدٍّ، أقسمت إن كان الغضبان قد فعلها فهي لن تسامحه أبدًا، لن تقبل حتى بأن يترك صديقتها مظلومة هكذا، أما إن كان لم يفعلها فسينقذه الله من أجلها. لربما تحكي له عن هذا التشتت وهما جالسانِ معًا ينظران إلى الأمواج يومًا ما.

ـ ليس بعيدًا عن ربنا.

قالتها ثم اتخذت قرارها في لحظات، تركت الشاطئ وخطت على الرصيف، بحثت عن سنترال هنا أو هناك حتى وجدت لافتة مكتوبًا عليها «سنترال المندرة»، وجدت طابورًا طويلًا من المواطنين لكنها كانت تعرف أن الوصول إلى الحق يحتاج إلى بذل الجهد، رسالة الله إليها اليوم هي طابور سنترال المندرة. بعد ساعة كاملة وجدت نفسها داخل كابينة تليفون، جاءها صوت أحدهم من الطرف الآخر قائلًا بطريقة آلية: مديرية أمن الشرقية، ما الخدمة التي تطلبينها؟

قالت كأنها تخشى أن تتفوه بردّ غير مناسب: أريد الإبلاغ عن قاتل. لا، بل عن قاتلَين.

تكلَّم الصوت الآخر بشكل طبيعي كأنه معتاد على هذا الأمور: تفضلي.

شحنت طاقتها بالكامل ونظرت إلى الطابور الجديد الذي تشكَّل خارج كابينتها ثم تنهدت، وجدت نفسها مجبرة على الإقرار

t.me/qurssan

بتلك الواقعة لفظيًا، فهتفت في نبرة عالية نوعًا ما: السيد الظني هو مَن قتل المستثمر السعودي مالك مصنع الزجاج.

عاد الصوت هذه المرة باهتمام وقد شدّت المعلومة انتباهه: قلتِ إنهما قاتلان، مَن الآخر؟

هنا انهارت تمامًا وقالت وهي تهزّ رأسها والدموع تنساب منها: شقيقه، الغضبان.

ـ ما اسمك يا آنسة؟

قالت خديجة قبل أن تضع سماعة الهاتف بسرعة: توبة، اسمي توبة معوض السنيورا.

***

ـ أين الغضبان؟

السؤال صار سخيفًا، وإجابته ـمع الأسفـ تدل على تبعية الشاب، إذا وجدت الظني فقد وصلت إلى مكان الغضبان.

بعد أن أمسك الظني بيد شقيقه في حزم وقوة لمنعه من النزول من السيارة، انطلق بها مسرعًا كأنّ الشياطين تلاحقه، شعر الغضبان أن هناك مؤامرة ما قد حيكت ضده. لقد سرقا المال من أجل توبة لكن الظني أصبح رافضًا لفكرة منحها شيئًا، كان يكرهها بالفعل، ظلّ يصرخ في وجه أخيه في البداية لكن الأخير أبى أن يسمع له، طلب منه الغضبان إعادته إلى مكان نزول توبة، لكن السيارة كانت تنطلق بأقصى سرعة. هتف الغضبان في سخط: أنت حقير، إنها لم تفعل لك أي مكروه، لِمَ تركتها هكذا؟

t.me/qurssan

رفع الظني حاجبيه باستهزاء ثم قال بنبرة جافة: انزل هنا إن أردت.

كانت المسافة قد ابتعدت، فقال الغضبان في مرارة: لِمَ أقحمت توبة في خطتك؟ لماذا تحب أن ترى عينيها تسكبان الدموع؟

قالها ثم لكزه في كتفه بقوة قبل أن يردف: لماذا يا أخي؟

استقبل الظني كلام أخيه استقبالًا باردًا، كان واضعًا يده على مقوَد السيارة ناظرًا إلى العالَم الخارجي في تشفٌ، كأنه يرتدي درعًا تحميه من شرور الدنيا. شعر بنظرة الغضبان المتشككة وهو يقول في عصبية: إمّا إنك تكره توبة بالفعل لأنها تذكِّرك بالطهارة التي تفتقدها، وإمّا أنك...

سكت قليلًا ثم أضاف في ضيق: تحبّها.

كان مدركًا لخطورة تساؤله، وزادت شكوكه مع زيادة سرعة السيارة بعد أن ألقى قنبلته بداخلها. ردّ الظني بقنبلة أشدّ فتكًا وقال: لقد قتلتُ صاحب المصنع.

كانت المفاجأة أكبر من أن يحتملها الغضبان، لذلك كان سؤاله سريعًا: قتلتَه؟!

توقّع إجابة مراوِغة وكانت سترضيه لأنها ستريح عقله، لكن الظني أومأ برأسه مؤمِّنًا فحسب، ولم يكلِّف نفسه عناء الشرح.

شعر الغضبان للمرة الأولى بشيء من الكراهية نحو أخيه، التزم الصمت حتى وصلا إلى القاهرة، ومنها إلى سيدي براني.

بعد أن استقرَّا بأحد المخازن عادت الحال إلى سابق وضعها، قسّم الظني المال بينهما وأخذ الغضبان حقَّه على أمل أن يعيده إلى توبة مرة أخرى، شربا سجائر المزاج معًا فهدأت الأمور وعادت الضحكات تعلو من جديد، لم يكن الغضبان راغبًا في كسب عداوة أخيه، قرر الحفاظ على عمله ومِن ثَمّ مساعدة توبة من بعيد، كان يمرّ بحالة معقدة لا نستطيع وصفها، إذا وصفناها بسطحية لقلنا إنه تأنيب الضمير تجاه توبة، والحقيقة أن الأمر أعقد من هذا بكثير، كان يحمل نحو شقيقه مشاعر الأخوة ولا يحب أن يراه في صورة الوغد، مشاعر مختلفة، مزيج من الانبهار، الغلّ، الشفقة، تلك المعاناة داخل عقله، يعرف جيدًا البيئة التي تربّيا فيها، تلك البيئة التي أصابتهما بفيروس الغلظة المدمر للشقّ الثاني من لفظ «كائن حيّ»، لكن ـ لسببٍ ما ـ كان تأثيره أقوى في نفس الظني.

أمّا خديجة فكانت العالَم بالنسبة إليه، يرغب في الزواج بها رغم أنها لم تطلب منه ذلك، الأمر يشبه ذلك الانبهار بمعلمتك الحسناء في المدرسة الإعدادية ممتلئة الصدر، تشتهي النظر إلى جسدها، لكن حين تبدي نصيحتها لك تصبح ملهمة لمشاعرك الرقيقة.

كل ما سبق كان يشعره بالغبن، والقهر، والرغبة في الانتقام من كل شيء حتى نفسه.

هناك أيضًا من كان يشعر بالقهر في مكان ما، تحديدًا في قصر ضخم بضاحية من ضواحي القاهرة، الذيب عدنان الحاوي، الشاب العنيد ذو الأصول البدوية، لم يعُد يتحمَّل فكرة التهميش، لم يعُد يتحمَّل ملاحقة الخدم ليسألوه عن مدى حبه للكوسا بالبشاميل، ولا رؤية أمه تترنم بأغنية فرنسية قبل ذهابها إلى النادي، لم يعُد هناك أعوان يطلبون مقابلته، حتى والده كان يتحاشى النظر إليه، أسلوب المعيشة هذا كان يغيظه فعلًا، مشهد الظني وهو يستمع لأوامر والده كان يصيبه بالاكتئاب لأيام، الوحيد الذي وقف بجواره خلال تلك الفترة كان سلمان العبيدي، حاول الإيقاع بالظني أكثر من مرة لكن الأخير كان أكثر صلابة وذكاء من المتوقع، لم يكن قد وصل إلى درجة ساعد عدنان الأيمن بالطبع، لكن العضو الأحدث كان قادمًا برؤية جديدة جعلت الجميع في حالة إحباط منه ومِن ثَمّ كراهيته.

في صباح أحد الأيام قرأ الذيب أخبارًا جديدة عن الحادث الذي هزّ مصر كلها، مقتل المستثمر السعودي. لقد توصَّلت الشرطة إلى معرفة الجاني بعد أن يئست من القبض عليه، تحديدًا شقيقان، أحدهما يُدعى سيد معوض السنيورا، والآخر محمد معوض السنيورا، الشهيران بالظني والغضبان.. قالت الجرائد إنّ الشرطة لا تملك صورة لأي منهما، وإنّ البحث جارٍ، وفي حالة التعرف على هذين الاسمين أو معرفة مكان اختبائهما، على السادة المواطنين الإبلاغ فورًا.

t.me/qurssan

للمرة الأولى في حياته تقريبًا يطرب قلبه لقراءة الصحف اليومية المملّة، قفز من مكانه فرحًا وبدأ التحضير للقضاء على نبتة اللبلاب التي تسلقت حياته، لم يكن يريد الأذى أو توجيه أي اتهام إلى والده بالطبع، سينفّذ غرضه دون الإضرار بسمعة العائلة. بسرعة توجَّه إلى الهاتف المباشر وتحدث إلى سلمان العبيدي الذي ينظّم مع الظني خط سير السلاح، وطلب منه قطعة واحدة من الكلاشينكوف، بعدها ارتدى ملابسه الأنيقة وتوجَّه إلى منطقة وسط البلد كي لا تحدّد الشرطة شخصيته من رقم الهاتف، ركن سيارته ثم ترجّل ناحية سنترال الفوالة، وطلب إجراء مكالمه لمدة واحدة.

سأله موظف السنترال: ما الرقم يا أستاذ؟

- مديرية أمن الشرقية بالطبع. تسألون أسئلة غير منطقية هذه الأيام.

***

عند أطراف مدينة أبي رواش كان الجوّ هادئًا كالعادة، الرابعة بعد منتصف الليل، أطفأ الظني كشاف سيارته وانتظر مع الغضبان في توتر، أشعلا سيجارتين ودار بينهما حديث قصير عن قلقهما من تلك المهمة السخيفة، كان الشقيقان في انتظار أي مهمة للاقتراب من القاهرة، لم يذهبا إلى مدينة العاشر بالطبع، لكن الجريمة وصلت بشاعتها إلى العاصمة بالتأكيد.

مضى الوقت وهما ثابتان، بعد ربع ساعة نزل الظني من السيارة ثم أخذ ينظر حوله، المدينة على مرمى البصر والصحراء شاسعة من خلفه، هناك شيء ما كان يقلقه ولا يدري كنهه، هناك خطر قادم وسيقضي عليه غالبًا، أشعل لفافة تبغ ثانية وقد اتخذ قرارًا بالعودة بعد الانتهاء منها إن لم يظهر رسول الديب، مع آخر أنفاسها لمح سيارة قادمة من بعيد تسير بسرعات متباينة رغم خلوّ الطريق، تبطئ حينًا ثم تسرع حينًا آخر، لم يستطع تمييزها بسبب الكشافات المضيئة، اتخذ قراره وعاد إلى سيارته مرة أخرى، هنا لمح سيارة أخرى من سيارات الأمن المركزي الضخمة قادمة من بعيد، صرخ في هيستيريا: إنه كمين يا غضبان!

لم ينطق الغضبان وسقط قلبه في قدميه بعد أن ضجّت الصحراء بصوت سرينة الشرطة المميز، حرك الظني ناقل الحركة إلى الخلف ثم ضغط على دواسة الوقود بقوة، صرخ المحرك ودارت الإطارات حول نفسها بسرعة، أمتار قليلة ثم ظهرت خمس سيارات فجأة كأنها جاءت من العدم، وقفت مصطفة بمواجهة مؤخرة سيارتهما ليحدث اصطدام قويّ بإحداها، اشتعل تنك الوقود وكادت النار تلتهم الجزء الخلفي من سيارة الشقيقين، قوّات الشرطة شكلت دائرة حول الشقيقين، أصوات عديدة ضجت بها صحراء أبي رواش، مكبرات صوت، أقدام الجنود في الرمال، سرينة الشرطة، إلخ.

t.me/qurssan

صوت واحد فقط طغى على كل ما سبق تردد داخل عقل الغضبان، صوت ملائكي، ناعم كالمخمل، نادر كحجر الأوبال، ساحر كنجم الشعرى، له قدرة على الانتقال من الدويقة إلى صحراء أبي رواش في لحظة واحدة ليهدئ من روعه قائلًا: لا تخَف يا محمد، أنا هنا إلى جوارك.

***

لم يكن هناك مجال لممارسة أي عنف ضد الظني والغضبان، ضجّ المكان بكاميرات التصوير، أجهزة تسجيل وحشد من ذوي السلطة الرابعة.. استمرّت التحقيقات قرابة يوم كامل، بدأها رئيس المباحث مع الظني قائلًا: أين كنت وقت وقوع الحادث؟

- في سيدي براني.
- أين توبة؟
- لا أعلم عنها شيئًا.
- متى زرتها آخر مرة؟
- مرة واحدة فقط بعد إصابتها بالعمى مباشرة.
- لماذا قتلت المهندس السعودي؟
- لم أقتل أحدًا.

هنا انتقل رئيس المباحث إلى المرحلة التالية.

قال: بعد التحليل وجدنا بصماتك على سلك الهاتف، ما رأيك يا سيد؟

- ...

- إن لم تعترف فهذا شأنك مع النيابة العامة، القضية حُسمت بالفعل.

- ماذا تريدون إذًا؟

- أولًا دور محمد في الجريمة، ثانيًا مكان توبة.

قال دون أن تهتز شعرة به: محمد شريكي في كل شيء، أما توبة فقد هربت بالمال.

- كيف وهي ضريرة؟

- أمر الله.

أما الغضبان فحكى ما حدث بالتفصيل، أكد على خداع شقيقه له رغم نية السرقة، كما أكد على عدم ضلوع توبة في الجريمة بأي شكل.. بعد العرض على النيابة صدر قرار بحبسهما خمسة عشر يومًا، هناك تحدّثا إلى أمين الشرطة المعيَّن لحراستهما، سألاه عن كيفية معرفة مكانهما، ردّ بعدم علمه شيئًا عن هذا الأمر، وبعدما وضع الظني عشرين جنيهًا بجيبه أقسم أن المعلومة لديه غير مؤكدة.

- سمعت ان فتاة تدعى توبة هي مَن وشَتْ بكما.

- يعرفون مكانها إذًا.

- لا، لقد اتصلت تليفونيًا.

تطاير الشرر من عينيه وصار وجهه ممتقعًا، حتى وصل مع أخيه إلى الزنزانة وهو لا يكاد يرى طريقه، قال: النجسة فعلتها.

t.me/qurssan

قال الغضبان في سخط: بل أنت مَن فعلها من البداية، هي اكتفت بردّ الظلم عليها.

قال في جنون كالممسوس: اخرس.

ساد الصمت لفترة ثم عاد ليتكلم بعينين باردتين: إن خرجتُ من هنا، أقسم أن أقطعها إربًا.

بعد أربعة أيام جاء من يبلغهما أن هناك محاميًا يريد رؤيتهما.

– محام؟ مِن أين أتى يا ترى؟

عرفا أنّ عدنان الحاوي هو مرسله عند رؤية سلمان العبيدي جالسًا بجواره. قال المحامي: هل اعترفتما بشيء؟

تولى الغضبان الإجابة عن الأسئلة قائلًا: نعم.

هتف سلمان في انزعاج: كل شيء؟

قال الظني بخبث: لا، لم تأتِ سيرة الباشا.

حكيا له ما تم بغرفة الاستجواب، بعدها خيّم صمت غريب على المكان باستثناء صوت مروحة السقف القديمة، شعر كل منهم أن أعين الآخرين مسلطة عليهم، لم يمتلك الشقيقان شجاعة توجيه أيّ استفسار عن موقفهما في القضية بالطبع، الموقف كان جليًّا على وجه المحامي للجميع، استحثّ سلمان رفيقه على الكلام قائلًا: تكلّم يا متر، قُل ما عندك.

وضع المحامي حدًّا لهذا المشهد المؤلم قائلًا بذكاء: الإجراءات القانونية سأتعامل معها، لكن البراءة لا أعدكم بها.

لم يقُل شيئًا جديدًا، لم يبعث أي أمل فيهما بعد ذلك الإحباط المخزي، فقط وضعهما أمام القاضي سريعًا، أخذ الظني نفَسًا كبيرًا بعصبية وزفره ببطء ثم قال بجدية: ما الحلّ إذًا يا متر؟

قام المحامي وهو يقول له: سمعت ما حدث منكما، يجب أن أقرأ محضر الشرطة، أنا آسف جدًّا.

لم ينهض أحدهما ليودّعه، فأومأ برأسه وهو ينظر إلى اللاشيء ثم أشار إلى سلمان قائلًا: سأنتظرك في الخارج.

ترك ثلاثتهم جالسين في حيرة، بعد أن وجّه صفعة إلى عقلَي الشقيقين رأى الغضبان نفسه مرتديًا البذلة الحمراء، فقام صارخًا صرخة مدوية نبّهت المحيطين إليه: لم أفعل شيئًا، لم أفعل شيئًا.

صاح الظني به: «اهدأ»، أما سلمان فجذبه بقوة من يده ليجلسه مرة أخرى، ثم همس في حزم بعد أن أشار إليهما بالاقتراب: السيد عدنان لديه خطة.

انتبها إليه وهو يكمل: كان يظن ألا يوجد دليل ضدكما، لكنه جهّز خطة بديلة في حال ثبوت التهمة.

شرح خطته ببساطة وهما مصغيان كأنّ على رأسيهما الطير، بمجرد أن أنهى حديثه صدّقا عليه بكلمة واحدة: «آمين».

***

بذلت الشرطة بالتعاون مع النيابة مجهودًا خرافيًّا لسدّ كلّ الثغرات القانونية، أُحيلت القضية بالفعل إلى محكمة الجنايات،

t.me/qurssan

كانت القضية في طريقها لحكم الإعدام، أو المؤبد إن كان القاضي سكرانًا يوم النطق بالحكم. المحامي كان كلامه صحيحًا رغم ما بذله من جهد، ليس من أجل الظني والغضبان بالطبع، بل خوفًا من تطرقهما إلى تجارة السلاح والزجّ باسم عدنان الحاوي.

في سبتمبر، أي بعد قرابة الشهرين من وقوع الجريمة، كان الشارع المصري قد نسي تمامًا ما حدث، الحكومة كانت تعالج أثر ما حدث بالاستثمار للنهوض من جديد، المدارس تستعدّ لفتح أبوابها، عادل إمام يقاوم السلطة بطريقة القط والفأر الكوميدية في رائعته «الإرهاب والكباب». الشاب خالد يدندن أغنيته الشهيرة «دي دي» في الحفلات الراقصة، أما التلفزيون المصري فكان بانتظار طفرة في عالَم البرامج الخفيفة.

سادت حالة من الهدوء في ما عدا سيارة ترحيلات كانت تسير ببطء في شوارع الزقازيق.. سقفها الصاج، نافذتها الضيقة التي تتخللها الأسياخ الحديدية فيدخل منها الهواء على استحياء، الشوارع المزدحمة ودرجة الحرارة التي تتجاوز الأربعين بالخارج، كل ذلك جعل من صندوق السيارة الخلفي قطعة من جهنّم. لن نتحدّث عن الأمور التافهة مثل العرق كريه الرائحة وما سبّبه من ضيق تنفُّس للمساجين، السيارة الزرقاء مستطيلة الشكل كانت كابوسًا متحركًا له صوت ورائحة حرفيًا.

t.me/qurssan

كثير من التربص كذلك كان يموج داخل السيارة، أكثر من عشرين مسجونًا كانوا ينظرون إلى الشقيقين باشمئزاز ولسان حالهم يقول: كيف تأكلون الكشري الآن يا كفرة؟ متى ستأكلان البطيخ وتشربان الكولا المثلجة إذًا؟ في ديسمبر؟!

لو دققنا النظر إلى علبتَي الكشري سنعرف أنّ الطعام لم يكن طازجًا، أعطاه لهما سلمان في اليوم السابق للجلسة وقت الزيارة، ولم ينسَ الإكثار من أكياس الشطة بالطبع. علق حارس السجن وقتها على هذا الإفراط قائلًا: نار في الدنيا والآخرة في بطونكم بإذن الله.

هكذا بعد نوم الجميع في العنبر، وضعا الأكياس الحارقة بداخل ملابسهما واستعدّا في الصباح بشكل طبيعيّ لترحيلهما إلى المحكمة.

نعود إلى نعش الموت الأزرق الذي كان يهدر بشوارع المدينة المزدحمة، ضابط الترحيل كان جالسًا في الكابينة الأمامية بجوار السائق، وحارسان يجلسان أمام الباب الخلفي في المؤخرة يحملان السلاح الآلي، في الداخل رمى الظني أول كيس في وجه السجين المقابل له قائلًا في تحدٍّ: لماذا تنظر إليَّ هكذا يا ابن القحبة؟

السائل الحريف جعل الرجل يدعك عينيه في هلع ويصرخ كالمجانين من الحرقان، قام من جلسته وهو يكاد لا يرى أمامه محاولًا الوصول إلى الظني، دفعه الأخير في صدره بقوة على

المساجين ثم بدأ الشقيقان في إلقاء كل الأكياس بأعين الجميع دون تمييز، دار المساجين حول أنفسهم كالمجاذيب وأخذ يضرب بعضهم بعضًا، هنا خلع الظني والغضبان نعالهما وأخذا يدقان بها على الصاج من الداخل.

الوضع أصبح كارثيًا بعد أن تحوّلت السيارة إلى ما يشبه السيرك، أكثر من عشرين رجلًا صاروا مصابين بالعمى المؤقت، واثنان فقط يتحكمان في هذا الجمع. في الخارج تنبّه المارّة وقائدو السيارات للأمر، سيارة شرطة من نوع «بك أب» أو «بوكس» كانت تسير خلف سيارة الترحيلات زادت من سرعتها لتصبح بمحاذاتها، لوّح سائقها إلى ضابط الترحيلات كي ينبهه إلى ما يحدث في الصندوق.

ـ يبدو أن هناك شيئًا ما في الخلف.

قالها الضابط ثم أمر السائق أن يقف بجانب الطريق ونزل ليفحص الأمر.

توقفت السيارة البوكس كذلك ونزل منها عقيد شرطة مسرعًا، ما إن رآه ضابط الترحيل الذي يحمل رتبة نقيب حتى أدى له التحية العسكرية، فداهمه العقيد قائلًا بصرامة: المساجين تتشاجر وأنت تأكل يا...؟ ما اسمك؟

أجابه النقيب بفم ممتلئ بالبسكويت: لم آكل منذ الصباح، ربما مع المضغ لم أسمـ...

t.me/qurssan

قاطعه العقيد بسرعة: افتح باب السيارة واعرف مَن المتسبب يا بك.

هرول النقيب وهو يحمد الله أن العقيد لم يسأله عن اسمه مرة ثانية، فتح أحد الحارسين الباب الخلفي فسقط سجينان مقيدان بقيد حديديّ واحد أرضًا، فتراجع ضابط الترحيل خطوتين إلى الوراء. كانت المرة الأولى التي يواجهه تمرّد من هذا النوع، فضلًا عن صغر رتبته، لم يكن من النوع القادر على اتخاذ القرار وهناك من يراقبه، هنا تدخّل العقيد دون أن يقلل من وضع زميله قائلًا: ماذا يحدث هنا؟ لماذا تتصرفون كالعميان هكذا؟ أريد إجابه من شخص واحد فقط.

ردَ أول مسجون ألقى عليه الظني ذلك السائل قائلًا في ألم: الظني هو مَن فعلها بأكياس الشطة يا بك.

صدّق الجميع على كلام زميلهم ثم قال أحدهم: وأخوه كذلك.

- أين هذا الظني؟

خرج الظني من وسط المجموعة يجرّ خلفه الغضبان بنفس القيد قائلًا بسخرية: أنا هو، وإياك أن تشتمني بالأم.

لم يجد العقيد ردًا مناسبًا سوى سبّه بأُمّه، وقفز درجتي السلم الحديدي ليجذبه من ياقة القميص ثم كال له اللكمات في عنف، لم يقوَ الظني على الصدّ أو الردّ بسبب يده المكبلة، فجلس أرضًا

كي يحمي وجهه في غيظ. تجمهر بعض المواطنين لمشاهدة ما يحدث، مشاجرة بين ضابط شرطة ومساجين في وسط الشارع، المشهد سال له لُعاب المارة بالتأكيد، صرخ العقيد في المجندين الجالسين في كابينة البوكس: هل ستكتفون بالمشاهدة هكذا؟

هبّوا جميعًا لمساعدته، وفي لمح البصر كان الشقيقان يزحفان على الأرض ويستنجدان من ركلات المجندين، نظر العقيد إلى الضابط الشاب في فخر وقد شمخ برأسه بعد سيطرته على الموقف، وهتف بطريقة مسرحية: كفى، أوقفوهما.

كان ضابط الترحيل يشاهد الحدث كالمسحور، خاطبه العقيد بصيغة الأمر قائلًا: سنفصل هذين الكلبين بعيدًا عن هؤلاء.

أدرك أنه لن يضيف شيئًا بتعليقه فاكتفى بهز رأسه. في لحظات، جُرّ الشقيقان إلى البوكس ثم أُلقي بهما في صندوقه الخلفي.

- لن أتخذ إجراءً ضدك يا حضرة النقيب، لكنني سأتبعك للسجن بسيارتي ومعي هذان الكلبان كي أضمن وصول المأمورية بسلام.

سكت برهة ثم نظر إلى الظني والغضبان وسألهما بصوت مرتفع: ما تهمتكما؟

لم يستطع كلاهما الردّ، فأجاب النقيب محاولًا إبداء أيّ فعل إيجابيّ: قتلا المستثمر السعودي.

t.me/qurssan

ظهرت الدهشة على عينيه الواسعتين ولم يعلّق سوى بكلمة واحدة: أرأيت؟

أطرق النقيب برأسه في خجل مزعوم فاستطرد العقيد: هيّا تحرّك.

تحرّك الشاب ناحية كابينة سيارة الترحيلات، وأمر السائق بالعودة إلى السجن، تابع البوكس في المرآة قائلًا: أحيانًا يبعث لنا الله النجدة في الوقت المناسب وإلا تحوّل الوضع إلى مأساة، هذا ناموس الكون.

تنهّد في راحة وأبعد بصره عن المرآة بعد أن اطمأنّ تمامًا، راقت له فكرة رضا الله عنه فابتسم.

أمّا العقيد فخلع نظارة الشمس ونظر إلى السائق نظرة ذات معنى، انحرف بعدها الأخير بالسيارة في سرعة ليسلك طريقًا آخر، هكذا تم تنفيذ خطة عدنان الحاوي ببراعة عن طريق سلمان، أو العقيد المزيف. سيارة ربع نقل تم تركيب كابينة لها ورشها باللون الأزرق المميز لجهاز الشرطة، أربعة شباب من سيدي براني ارتدوا الملابس العسكرية ذات اللون الكاكي، التي تُباع في محلات الأقمشة، كانت العقبة الوحيدة أمامه هي كتافة العقيد، طلبها عدنان بنفسه كتذكار من أحد أصدقائه الضبّاط.. تنهّد سلمان في راحة وراقت له فكرة رضا سيده عنه فابتسم.

t.me/qurssan

الشقيقان في الخلف كانا يشعران بالسعادة رغم الألم المنتشر في جسديهما، لا يوجد أثمن من الحرية، أخيرًا سيستنشقان هواءً نقيًا بدلًا من رائحة العطن الخانقة في السجن، والأهمّ من الرائحة هو حبل المشنقة. هما ذاهبان إلى المجهول، لكنه لن يكون ـ بأي حال ـ أسوأ من الانتقال إلى العالَم الآخر ومقابلة شتى جرائمهما، شعرا بالرضا عن نفسيهما فابتسما.

كان الاتفاق بين سلمان والشقيقين جليًا، بعد تهريبهما من السجن سيتم إبعادهما عن الصورة تمامًا في أي مكان آمِن، ومثلما يدخل السلاح إلى البلاد، سيتم إخراجهما إلى أي دولة عن طريق البحر.

ساعة بعد ساعة بدأ الغطاء يُكشَف عن المجهول، أخبرهما سلمان بأنّ إقامتهما ستكون في القاهرة طَوال الأشهر القادمة.

- مطروح لم تعُد آمنة، تم تأجير فيلا لكما في المنطقة الأكثر هدوءًا في القاهرة، المقطم.

أوصاهما سلمان بالاحتراس وعدم الخروج مطلقًا لأي سبب، تركوا سيارة الشرطة المزيفة في طريق الإسماعيلية، ثم استقلّ الشقيقان سيارة ثانية أوصلتهما إلى القاهرة.

***

t.me/qurssan

الفصل الرابع

الضريرات تحببن الملابس السوداء

يقدِّس الغجر الأنثى إلى أقصى درجة، تصل إلى عبادة القدّيسة سارة الغجرية، أو سارة السوداء، وهي قدّيسة غجرية عاشت على شواطئ نهر الرون (ينبع من سويسرا ويصبّ في البحر الأبيض المتوسط) مع بقية أفراد جماعتها، واشتهرت بمعرفة الأسرار.

ذات ليلة، حلمَتْ أنّ القدّيسات الثلاث اللواتي كنّ حاضرات خلال صَلْب المسيح سيأتين على متن قارب وأنّ عليها مساعدتهن. بالفعل رأت سارة بعدها القدّيسات قادمات على متن قارب صغير تتقاذفه أمواج البحر الهائج، وكاد القارب يغرق، فرمت بردائها على الأمواج ليغدو بمثابة المعبر الآمن لهن نحو الشاطئ. شكرت القدّيسات سارة وقُمن بتعميدها كقدّيسة لتقوم بدورها بنشر المسيحية بين أبناء قومها. يحجّ الغجر لتمثال القدّيسة سارة، إذ يعتبر طقسًا دينيًّا في غاية الأهميّة، ويُسمح لهم بلمس التمثال أو تقبيل أذيال التمثال، ويتصدر تمثالها بيوت الغجر وعرباتهم وأماكن عملهم.

***

قال ٣٠٩:

في الليل بتّ بداخل عشة الصفيح، لا أعبأ بالحيوانات المفترسة أو الزواحف أو أيّ خطر كان كما تعرف يا ٣٠٨. الخطر الوحيد الذي كان يقلقني هنا هو عدم إتمام مهمتي. توجهت إلى المحجر في الصباح، وهو ما منحني الصفاء الذهني للتركيز في الأحداث القادمة، لم يوبخني رئيس العمال على غيابي بالطبع، لا أحد يستطيع بسبب بنياني القوي، الكل كان يهابني، فضلًا عن أن المطلوب إنجازه في أسبوع كنت أتمّه أنا في يوم.. في آخر النهار اشتريت كثيرًا من الأطعمة التي توقعت أن تميل توبة إليها، منها الملوخية بالتأكيد. فرحَتْ كثيرًا وأخبرتني أنها لم تتوقع عودتي، بل كانت تتوقع اقتحام الشرطة للمكان في أي وقت.

قلت وقد شعرت ببعض الضيق من سوء ظنها: ولماذا أحضرتك إلى هنا إذًا؟

- ربما الشفقة أو العطف ثم راجعت نفسك بعد ذلك.

قلت مغيرًا الموضوع: نفسي تهوى الملوخية فهلًا أكلتِ معي؟

بعد أن تحسّست مكان الأطباق ضحكت وهي تسألني: كيف تأكل الملوخية؟

أجبت في مرح: أُذن القِطّة، أعرفها جيدًا.

t.me/qurssan

راقبتها كي أتأكد أنها تشاركني الطعام، ثم أخبرتها أن الشرطة اقتحمت عزبة الغجر لكنها لم تقبض على عبلة، تأكدت من ملامح وجهها أنّ عَلاقتها بزوجة أبيها مضطربة بالفعل. أصارحك القول، بعد رؤيتي لحال عبلة في بداية لقائي بها، أشهد أنّ الثعابين نفسها لن يختلف حالها لو عاشت مع تلك السيدة، فما بالك بغزال مثل توبة! سألتني وهي تلتهم اللقيمات: لماذا كذبت في البداية؟ قلت إنك من سكان العزبة.

قلت وقد توقّفت عن المضغ: رأيتك تصرخين فقلت لنفسي إنَ أنسب فكرة هي أنني من العزبة، جار قديم أفضل من عابر سبيل.

سألتني في مكر: ولماذا يطاردني عابر السبيل؟ هل يحبني؟

ضحكتُ بشدة بشكل مفتعَل ولم أردّ؛ رأيت أن الردّ سيخسرني، فلْتتوهَّمْ أنني أُحِبُّها؛ هكذا ستنتهي مهمّتي بشكل أسرع، وإن توهَّمَت العكس فعليها ببذل مزيد من الجهد كي تكون صالحة لهذا الحب.

بعد ذلك تكررت زيارتي لها. قُل أيّ شيء ثم فسِّر لي ضحكتي البلهاء وأنا في طريقي إليها كل ليلة، لم يكن حُبًّا بالطبع لكنه بات اهتمامًا، أمّا هي فكانت قد اعتادت وجودي بجانبها وبدأت تطمئن لي أكثر، بل وأجزم أنها أحبّتني بالفعل، أدركَت أنّ الطمأنينة مهمّة جدًّا للحُبّ، لكنها ليست كل شيء، هناك المرح، الكلام المعسول، المال، إلخ، الكثير من العناصر تتحكم في قوة

الحب، لكن الغريب أن كل ما سبق لا يضمن استمراريته، ربما كان الحديث القائل بأن الأرواح جنود مجندة هو ما يفسِّر كل شيء، ربما.

بعد أسبوعين، سألتها عن وصف خديجة وعنوان منزلها في الدويقة، قالت إنه يقع على الطريق الأسفلتي لكنها لا تذكر مكانه تحديدًا. بطريقتي الخاصة سألت عن منزل الأستاذ هاشم فضل الله حتى أرشدني البعض إليه، لم يختلف ردّ أغلب من سألتهم.

- تقصد الأستاذ هاشم -رحمه الله- الذي قتلت ابنتُه الرجل السعودي؟

تلك الإجابة تفسّر لك طبيعة العوامّ هنا في البلاد العربية، لقد قبضت الشرطة على خديجة فصارت هي القاتلة، وتم إطلاق سراحها لكنها لم تعُد بريئة، لقد خرجت وكفى، وكأن الشرطة أخلت سبيلها مكافأة على طريقتها المبتكرة في القتل.

عُدت أدراجي إلى توبة ففرحَت كثيرًا بهذا الخبر، رغم ثبوت التهمة الباطلة عليها فإنّ حبس خديجة كان يؤرقها بشدة.

هممتُ -للمرة الألف- باقتراح نقلها إلى دار للرعاية لكني لم أفعل، طلبي كان سيبدو كأني أريد التخلُّص منها. رغم محاولتها رفع الحرج عني أكثر من مرة، للمرة الألف أيضًا فضلت الانتظار حتى تُنسى القضية، إلا أنها عادت إلى الأذهان مرة أخرى بعد انتشار خبر القبض على الظني والغضبان. أحضرت يومها الجريدة

وتلوت الخبر عليها بطريقة مسرحية، انتهيت قائلًا: مفاجأة، أليس كذلك؟

هنا رأيت تعبيرًا غريبًا على قسمات وجهها، كأنّ مشاعرها انقسمت بين الراحة والقلق، الفرحة والحزن، غمغمت: لكن الغضبان...

فهمتُ سبب حيرتها، فقلت في تساؤل: ربما فعلها الغضبان وأنت لا تدرين.

ردت بسرعة: لا، الغضبان لم يفعلها، أنت لا تعرفه، لكن لِمَ لا؟

ربتُّ على كتفيها في حنان وأنا أتجنب نظراتها إلي كأنها تراني: حنانيك يا توبة، حياتك باتت آمنة الآن، ابحثي عن سعادتك بعد كل ما حدث.

تحركت في خفة واتجهت ناحية النافذة وقالت بصوت مبحوح وهي تتنفس النسيم: معك حق، لعلي ما زلت أسيء فَهْم الآخرين.

شعرت أنها تبحث عن وسيلة للهرب من التفكير، فهتفت بصوت عالٍ على غرار أرشميدس: وجدتُها. ما رأيك في الخروج للتنزُّه ومقابلة خديجة؟

أمسكَت بثوبها خفية ثم قالت في تهذيب وهي تفرك أناملها بعضها ببعض: اجعلها مساء غد.

فهمت أنها خجلة من ملابسها القديمة.

***

في مساء اليوم التالي اشتريت لها فستانًا وحقيبة سوداوين، وصندلًا فضيًّا ذا كعب متوسط، مع أربطة تُلَفّ حول مقدمة ساقيها، لم يكن أيّ من تلك الأشياء باهظ الثمن لكنها فرحت بها وشكرتني في رقة بالغة. بعد دقائق، خرجَتْ علَيّ متأنقة، تعجّبْتُ من دقة القياسات كأنّ كل شيء اشتريته صُنع لترتديه، ولم يكن لدي ردّ. سألتني وقد جعلها الشعر الغجري الملتهب والجسد الملفوف داخل الملابس الجديدة تبدو كالأميرات أو سندريلا: هل تراني جميلة؟

ـ أراكِ الأجمل دائمًا.

في الحادية عشرة مساءً انطلقنا، الشوارع كانت هادئة رغم أننا لم نصل إلى منتصف الليل بعد. قالت وهي متأبطة ذراعي: احكِ لي عن نفسك يا يوسف.

ما هذه الورطة؟ لم يكن هناك ما أحكيه، مجرد واحد من الأبدال مكلَّف بمهمة إيداعها إحدى دور الرعاية، لكن مهلًا، وجدت ما أحكيه، قلت كاذبًا: تركت مهنتي كسائق واخترت العمل في القاهرة، جربت عدة مهن حتى استقرّ بي الحال عاملًا في المحجر بالقرب من هنا، وأحيانًا في المقهى بجوار القلعة.

ـ أقصد مَن أهلك، لماذا لم تتزوّج إلى الآن؟

ـ مات أهلي وأنا صغير، وورثت عن والدي سيارة قديمة ومنها بدأت، أما الزواج فيبدو أنني سأبقى هكذا لآخر العمر.

ـ اصدُقني القول، هل تُشفِق عليَّ؟

ـ الشفقة لها معنى مطاط وحضور قوي بين المشاعر، كيف أرى طفلة ضريرة ولا أحزن على حالها؟ الشفقة لا تنفي باقي المشاعر.

زمجرَتْ في مرح: لست طفلة.

قلت متعمِّدًا عدم فتح المجال لتلك المناقشة: وأنا لم أبُح بباقي المشاعر.

هزّت رأسها في ضيق وسكتت.

اقتربنا من منزل خديجة، صرت أحفظه جيدًا، لدي ذاكرة حديدية كما تعلم يا ٣٠٨، ضغطتُ الجرس وانتظرنا حتى ظهر أخوها من الشرفة ليستعلم عن الزائر، قال بصوت عالٍ: توبة؟! ما الذي أتى بك إلى هنا بعد كل ما حدث؟ خديجة ليست هنا.

توترت توبة وأخذت تهمهم بكلام غير مفهوم، فتدخلتُ قائلًا: نسأل عن خديجة، قل لنا إن كانت عندك أم لا وسنبتعد.

قال في سماجة: قلنا ليست هنا، أم أنك غبي لا تفهم؟

هنا اقتحمت خديجة الشرفة وأسندت يدها إلى سورها باندفاع حتى توقعت أن تسقط، ثم هتفت في لهفة: توبة!

t.me/qurssan

تخيلتها تقفز درجات السلّم في طرفة عين حتى أصبحت بين أحضان صديقتها، كان اللقاء مؤثرًا بالنسبة إليّ دون سبب واضح، لم أرَ خديجة من قبل، لم أشهد تطوّر صداقة الفتاتين، ولم يكن قد انمحى أثر الإهانة بعد، لكنني أقسم لك أنّ اللقاء كان مؤثرًا، تلك القبلات والأحضان والدموع لم تكن تعني لي شيئًا من قبل لكنها تركت أثرًا كبيرًا في نفسي. تُرى هل هناك رابط خفي بين صداقتنا يا ٣٠٨ وصداقتهما؟ لن أكذب عليك، أعتقد أنّ اللقاء كان مؤثرًا لأنني ـوللمرة الأولىـ أرى توبة ضاحكة من قلبها، هل ارتحت الآن بعدما أفشيت لك السرّ؟

ابتعدت خطوات إلى الوراء لأفسح لهما المجال للحديث بحرّية، رأيتهما تبكيان وتضحكان وتتنهدان ثم تحتضن كل منها الأخرى. تهمس خديجة بشيء ما وهي تنظر ناحيتي، رمقتها بطرف عيني ثم ابتسمت في خجل، لست حبيبها أيتها البلهاء، ضحكت توبة وابتسمت أنا، أمسكَت خديجة بذراع صديقتها وتحركت بها ناحيتي، قالت: عذرًا يا أستاذ، أخي لسانه فالت.

ثم وجّهت حديثها إلى توبة: الأستاذ شكله رجل ابن أصول، لكني أستأذنه في بقائك معي هذه الفترة.

سقط قلبي في قدمَيّ ورفضت بإشارة من يدي، ثم قلت مبررًا رفضي: ما زالت هناك بعض الإجراءات يا آنسة خديجة، شقة المقطم تحت أمر توبة ولو عشر سنوات قادمة.

ابتسمت خديجة ابتسامة ماكرة وربتت على كتف صديقتها، ثم همست في أذنها بشيء ما، أعتقد أنها تمنت زواجنا بعد اطمئنانها لهيئتي.

تحركنا على وعد بلقاء قريب، فقالت خديجة: الوديعة في الحفظ والصون، أنا في انتظارك بعد أن تستقرّ الأمور.

لوّحت توبة قائلة في ودّ: سأشتاق إليك يا نور عيني.

هناك مشاعر كثيرة لم أفهمها بعد، مثل شعور بالضيق غزا روحي حينما هتفت توبة بجملتها الأخيرة، يسمونه الغيرة، كأنني ذقته من قبل وأحدهم طمسه بداخلي، هل سمعت عنه من قبل يا ٣٠٨؟

تلك الفتاة قادرة على ضخّ عشرات المشاعر بدمك ليس من بينها الخوف، كانت جنة حاضرة، والخلاص منها جنة قادمة، وبين الجنّتين أقف أنا رافعًا رأسي نحو السماء، محاولًا فهم الحكمة من هذا كله.

***

شوارع هادئة وليل مقمر.. سِرنا في شوارع المحروسة يغلفنا الأمل، لا أحد ينظر إلينا ولا ينظر بعضنا إلى بعض، نراقب أنفسنا في حذر، وكل منا يتمنى أن يبدأ الآخر بالحديث، بدأته توبة ـ الأكثر جرأة وجهلًا بالمستقبل ـ قائلة في فخر: خديجة صديقة العمر.

ثم أردفت: هل لديك شخص يستحق لقب صديق العمر؟

أجبت وقد بدا الثقل في كلماتي بعدما تذكرتك يا ٣٠٨: لدي واحد، لكنه مسافر في بلاد بعيدة، ربما نلتقي قريبًا.

رفعت يدها وتحسست كتفيَ حتى وصلت إلى ظهري فرتبت عليه في حنان كأنني طفل صغير، وقالت بصوت مشرق: لا تحزن، أنت طيِّب القلب يا يوسف، سيُرضيك الله.

لمستها حركت بداخلي رغبة في الصراخ، الصراخ بقوة، بأعلى طاقة لي، وجدت أناملي تلمس يدها وتلتفَ لتتشابك وتعصر أصابعها الرقيقة، ارتجفت شفتاي، ظللت هكذا ثم هدأت قليلًا، ثم قلت بلهجة محايدة: أشعر بحاجة إلى الهواء.

قالت بصوت مبحوح: ما رأيك في الذهاب إلى الكورنيش؟ تأكل ذرة مشوية؟

قلت بسرعة: موافق.

استطردَت: علي حسابي.

- لا يمكن.

قالت بإلحاح: إذَن لن أذهب. أرجوك.

تلك الطريقة تجعلك لا تملّ منها أبدًا، تتكلم فتجد أن التفكير بعمق لا قيمة له على الإطلاق.

- موافق.

تمنحني توبة حُلمًا جميلًا، آفاقًا بعيدة أعيش بداخلها، ولا يخرجني منها إلا صوت رقم ١ وهو يتمنى لي عودة موفقة وسريعة.

سِرنا لا نلوي على شيء، نصنع ذكريات دون حدث، نسافر بلا ذاكرة، لا يشغلنا المجهول، فقط دقائق كريمة من اللاشيء، بعد الكورنيش والذرة اقترحت احتساء القهوة في حي الحسين الشهير، قررت أن أقف على مدى قوة العَلاقة بيننا لمعرفة متى تنتهي مهمتي. بعد سير طويل غير مرهِق جلسنا، طلبنا فنجانين من القهوة، كان هناك بعض السائحين على الجانب الآخر يدخنون النارجيلة ويلتقطون الصور، ووجه توبة على يساري سعيد يشعّ بالراحة و... الحبّ، تبادلنا الحكايات عن أيام المصنع ومقهى القلعة، وبعض الطرائف عن عبلة ومعوض. قالت بعد التوقف عن الضحك: اللهم اجعله خيرًا.

ـ الخير قادم دائمًا.

ـ أراه بالفعل.

قالتها ثم انفجرت ضاحكة، لم أضحك؛ مهما لازمت السخرية صاحب العاهة فلن يستسيغها من الغير أبدًا. قالت كمن قرأ أفكاري: اضحك يا عم.

ابتسمت ثم قلت وأنا محني الرأس: الخير قادم، هكذا وعدَنا الله.

- ونعم بالله. وأنا مؤمنة يا يوسف، حياتي لم تكن صالحة لكني أحب الله. ألا تحبه؟

- أُحِبُّه لدرجة أنني لم أعُد أخشاه.

- أأمنت مكره؟

- ولماذا يمكر الله بنا وهو خالقنا؟

فكَّرَت في ردّ لائق ثم قالت: لأنه وعدَنا بالجنة، والدنيا اختبار.

- وهل ظلام العمى عقاب مناسب لما اقترفتِه في سنواتك الماضية؟

- ربما، اشتركت مع إخوتي في سرقة الخلق، بالأحرى كنت سارقة.

استحثثتُها على الكلام بتربيتة خفيفة على مؤخرة رأسها لكنها لم تكمل، رشفت من قهوتها وقالت في مرح كعادتها: وماذا عن ماضيك؟ هل لديك تاريخ أسوَد؟

قلت بنبرة جافة: ربما كانت نيّتي بيضاء، لكنها لن ترضي الله.

- كيف ذلك؟

كانت تحاصرني في ركن أخشاه كثيرًا، كنت مدركًا أنّ ما سأقوله سيكون قرينة ضدي، لكنني صمّمت على لعب دور العاشق

t.me/qurssan

للنهاية. قلت دون النظر إليها: الحب، إنه الحب يا توبة، أوقات نادرة يكون الحب إثمًا والتشبث به حرمانًا من الجنة.

ـ لا أفهمك، لكنني أميل إلى السير خلف قلبي.

قلت كاذبًا: وأنا أيضًا، وليحدث ما يحدث.

شعرت براحة في صوتها وهي تقول: أخيرًا.

أنقذني من التمادي في الكذب حركة غير مقصودة من يدي ليسقط فنجان القهوة محدثًا صوتًا مميزًا، قامت هي سريعًا بحركة لا إرادية قائلة: خير، دلق القهوة خير، سأطلب لك واحدة أخرى.

سألتها وأنا أتفحص ملابسي جيدًا: كيف عرفتِ أنها قهوتي؟

قالت في خجل: لأنني تمنيت لك الخير، وقد كان.

بعد الحساب سحبتها ناحية ممرّ صغير بجوار المقهى، ودخلنا إلى بازار سياحي لا يغلق أبوابه أبدًا، اشتريت لها عقدًا من اللؤلؤ الأبيض المقلَّد. قالت شيئًا ما عن عمل الغجر قديمًا في ثقب اللؤلؤ، بعدها قلت: أتمنى أن يعجبك.

أحنت رأسها إلى الأمام قليلًا وهي تقول: سيعجبني بالطبع.

زحفت أناملي لتلمس رقبتها فسقط العقد مني، التقطته بسرعة وحاولت تشبيك محبسه مرة ثانية فلم أفلح، طلبت دبوسًا من صاحب المحلّ كي يسهل عليّ الأمر، بعد عدة محاولات انتهيت أخيرًا.. وقلت: مبروك.

تحسسَت العقد وأنفاسها تتسارع وقالت: الله يبارك فيك.

خرجنا من البازار فوجدنا سائحًا شابًّا يحمل كاميرا تصوير برقبته ويقول بالإنجليزية: photo، photo.

علّقت توبة قائلة: لا داعي، سيأخذ مبلغ كبيرًا.

فَهِم الرجل تقريبًا ما تخشاه توبة فهتف: Free،free.

لم يلتقط أحدهم لي صورة من قبل يا ٣٠٨ لكن الفكرة أعجبتني.. وقفت أعدل من هندامي ثم مررت أصابعي بخصلات شعرها وخلعت عنها العوينات السوداء قائلًا: أنتِ أجمل هكذا.

وقفنا متجاورين ثم شبكت أصابعي بأصابعها والابتسامة لا تفارق شفتيها.. بعد ثوانٍ خرجت الصورة من جسم الكاميرا كالسحر، فأعطاني إياها الشاب وهو يقول: You're a greate man if you really love her.

لم تفهم المعنى هذه المرة فسألتني: ماذا يقول؟

شعرت بدمي يفور وبقواي تخور وقلت بنبرة استسلام: يقول إنني أُحِبُّك يا توبة.

قالت وقد استحال لون وجهها إلى لون ثمرة طماطم طازجة: وأنا أُحِبُّك يا يوسف.

في تلك اللحظة ارتفع أذان الفجر من مسجد الحسين، لم يَغْنِ لي هذا شيئًا في الحقيقة، وقتها كنت غارقًا في الكذب للوصول إلى الجنّة.. قلت كاذبًا للمرة المئة تقريبًا: هل تقبلين الزواج بي؟

***

t.me/qurssan

قلت لعُلا:

عام ١٩٩٢، كنت في ذلك الوقت شابًا ـ أكثر من الآن ـ في منتصف العقد الرابع تقريبًا، لم تعرف الشهرة طريقها إليّ بعد، إلى أن أتى اليوم الذي تغيرت فيه العديد من الأمور.. جاءتني فكرة برنامج عن المواهب التي لم تأخذ حقها في الشهرة، ليس هذا هو المهم في الموضوع، لقد اقترحت على رؤسائي أن يُعرَض البرنامج بطريقة البث المباشر التي كان تطبيقها في ذلك الوقت مقتصرًا على الغرب فقط.. الفكرة كانت بسيطة لكنها تحتاج إلى إعداد قويّ وأجهزة فنية ذات كفاءة مواكبة للتكنولوجيا الموجودة وقتها، وقد كان.. نَقل رئيس القناة الثانية فكرتي إلى رئيس الجهاز الذي كان متعاطفًا معي بسبب واقعة قديمة، بعض السفلة سرقوا سيارة والدي منذ عدة سنوات، لكنني قمت باستردادها بعد عدة أيام. المهم، من رئيس الجهاز ومنه إلى وزير الإعلام مباشرة انتقلت فكرتي، وفي شهور بسيطة أصبحت مسؤولًا بشكل مباشر عن تحويل الفكرة إلى واقع.. وجدت دعمًا غير مشروط من قيادات المبنى جعل الحلم حقيقة، وبالطبع لم يكن ذلك حبًا في «سواد عيوني»، إنما كان لتحقيق المرجوّ من هذا الكيان الضخم.. ما ترينه الآن من تراجع لدور ماسبيرو في الألفية الجديدة لم يكن مقبولًا في التسعينيات بأي حال من الأحوال، لقد كان مبنى الإذاعة والتلفزيون هو ما يحرك المواطن ويتحكم في المزاج العام للدولة دون مبالغة.

t.me/qurssan

كان اسم البرنامج «نجوم في الظل».. الاسم لن يروق لك الآن، لكنه كان رنانًا وقتها، كنت تسيرين في شوارع القاهرة تجدين إعلانات البرنامج في كل مكان.. على الأسوار والبيوت، حتى أعمدة الإنارة، هل تذكرين شيئًا عن هذا الاسم يا عُلا؟

أعلم جيدًا أنها لم تكن تذكره، لكنها خافت أن تضايقني فأجابت سريعًا: بالطبع. ما الذي حدث بعد ذلك؟

ابتسمتُ لها ثم قلت في جدية: سعادتي كانت لا توصف، أنا على وشك الوصول إلى القمة وأنا ما زلت شابًا.. المذيع المتألق سامح داوود.

قلتها وبدأت في الإتيان بحركات مسرحية مع صفير منغم من فمي.. ثم انتبهت إلى نظرات عُلا المرتبكة إلى فعدت لحكايتي قائلًا: برنامج جديد كليًا يقدمه المذيع المتميز سامح داوود، قل رأيك بصراحة في مواهب «نجوم في الظل» مع سامح داوود، هكذا ارتبط اسمي بالبرنامج وانتشرا سويًا يجوبان أنحاء المحروسة، ضاربين موعدًا مع الجمهور لأولى حلقات البرنامج في تمام الثامنة مساءً يوم الأحد، الحادي عشر من أكتوبر، ولمدة ساعتين، على وعد بلقاء في نفس التوقيت من كل أسبوع. لن أنسى تلك الإعلانات أو هذا التاريخ ما حييت، هل تتخيلين الإنجاز يا عُلا؟ أن تخصَّص ساعتان لك أسبوعيًا في التلفزيون القومي ـ رغم سنك الصغيرة ـ هو إنجاز، كان نجاحًا يفوق الوصف فعلًا.

فكرة البرنامج باختصار: مقابلة مواهب عربية لم تسمع عنها من قبل، سواء كانت موهبة متعارفًا عليها كالغناء، والعزف، وكتابة الشعر، أو موهبة غريبة مثل القدرات الخارقة والأمور النادرة (جذب سيارة بأسنانك، بلع الزجاج، تجرِبة غامضة... إلخ).

يعرض الشخص موهبته ويتحدث عنها بشكل موجز، ثم تخصص فقرة في الحلقة التالية لإعلان الفائز منهم بعد تقييم المشاهدين لكلِّ المواهب، بالإضافة إلى وضع رقم هاتف الكنترول أسفل الشاشة لاستقبال اتصالات ـ اتفقنا أن تكون محدودة نوعًا ما ـ لإضافة مزيد من الإثارة في أثناء الحلقة.. لقد سبقت جميع برامج «التوك شو» وبرامج مسابقات الغناء التي تشاهدينها الآن يا عُلا بسنوات طويلة، لكن هذا هو حال الدنيا، الكل يعرف الآن سامح داوود النجم السينمائي، لكن لا أحد يذكر مجهودي في هذا المجال، أنا ممثل موهوب بالطبع لكنني مذيع تلفزيونيّ أكثر موهبة.

هنا قالت عُلا بابتسامة مشرقة: متأكدة من ذلك بالطبع يا فنان.

ابتسمت رغمًا عني ولم أعلق على مجاملتها، ثم استلقيت على السرير آمرًا إياها بصوت يملؤه التكبّر: تدليك يا عُلا، وركّزي على الرقبة والظهر.

t.me/qurssan

هرعت إلى الكومود وأخرجت زجاجة زيت مخصص للتدليك، لسابق معرفتها بالتفاصيل الدقيقة لصومعتي، ومِن ثَمّ صبته بانسيابيه فانتعش جسدي وقلت بصوت ملأته النشوة: أكثر ما كان يقلقني في ذاك الوقت هو فكرة البث المباشر، لُبّ البرنامج، ما مدى قدرتي على إدارة ما يتم في الاستوديو في أثناء الحلقة دون توقف أو خطأ من الآخرين؟ سأكون متواصلًا مع أغلب بيوت الجمهورية في هاتين الساعتين وحديث الشارع بعد انتهاء البرنامج، فلا داعي مطلقًا لأن يترك الناس مادة الحلقة وتكون أخطائي مادة للسخرية في ما بينهم. أنتِ تعلمين يا عُلا أن مُعِدّ البرنامج هو من يرتب كل ما سيقوله المذيع في أثناء الحلقة، والمخرج ينظم خلية النحل هذه لتخرج للمشاهد صورة جيدة.. لكن الفكرة كانت تخصني، ورغم أنني كنت أصغر عناصر البرنامج لكن صراحة -دون غرور- كنت أنا من ثابر حتى يتشكل البرنامج من الأساس ويحصل على ذاك الدعم الخارق، أغلب المسؤولية كان يقع على عاتقي، ومن هذا المنطلق ساهمت في إعداد التصوّر النهائي لشكل البرنامج بدرجة كبيرة، اطلعت على كل تفاصيل الإعداد والإخراج مما منحني بعض الميزات مثل التعديل على تتر المقدمة، ورؤية مختلفة للديكور، ومقابلة نجوم الظل -وهم مادة الحلقة- وفحص كل موهبة على حدة. تقدَّم الكثير والكثير لعرض موهبته، وكان علينا تصفيتهم واختيار من يصلح منهم لشَغل الحلقات العشر الأولى على الأقل، تم فتح باب التقدم للاختبار لمدة أسبوعين

على ما أذكر، في اليوم الأخير من تلك المدة، وتحديدًا في الساعة الأخيرة من اليوم، رأيته للمرة الأولى في حياتي.. علي منير مظلوم.

عند ذكر الاسم سقطت الزجاجة من يد عُلا دون قصد، فقهقهتُ لثوانٍ مما أثار حفيظتها، التقطت الزجاجة من فوق الأرض وعادت للتدليك مرة أخرى، بعد انتهاء نوبة الضحك التي انتابتني قالت بلهجة حاولت أن تبدو مرحة رغم غيظها: أكمل يا باشا.

أكملت في لامبالاة دون تبرير لتصرفي السابق قائلًا: اصطفَّ المتقدمون ذاك اليوم أمامي أنا والمُعِدّ - في غرفة ملاصقة للاستوديو خصصناها لفرز المواهب- وبداخل كل واحد منهم طموح كبير لأن يكون أحد أبطال حلقات «نجوم في الظل»، كل فرد منهم كان يسلم صورة من بطاقته ويكتب هاتف منزله عند عامل الإعداد خارج الغرفة، ومِن ثَمّ يأتي إلينا ليصطفّ في الطابور. تم تقسيمهم إلى مجموعتين، فكان هو ضمن مجموعتي. لا أخفي عليك، كان هناك شِبه استقرار على أكثر من تسعين في المئة من المواهب التي سيعرضها البرنامج في الحلقات الأولى، ظهر علينا الملل من بداية اليوم، جلست واضعًا ساقًا على ساق واسترخيت تمامًا بمقعدي وبدأت في اختيارهم.. بعض المواهب كانت جيدة بالفعل لكنها لا ترقى إلى المستوى المطلوب، هناك من يصفِّر ويطبِّل بأصابعه على فمه، صوت مقبول لكنه خارج المنافسة الجادة. شاعر متميز لكننا ضمنًا وجود كثير منهم، كنت أبلغه وقتها باحتمالية اتصالنا به في حالة اعتذار أحدهم... إلخ، كان علي منير مظلوم هو آخر

المختبرين من مجموعتي، ظهر أمامي مرة واحدة كأنه أتى من العدم، منذ الوهلة الأولى تشعر أنه مختلف، هناك بعض البشر نقول إنّ له «طَلّة» مميزة، لكن الأمر لم يكن كذلك يا عُلا إن كنت تفكرين في هذا. المثير هنا ليس الطلّة أو الحضور أبدًا، كان له سلطان كامل على أفعالك، رجل يستطيع أن يتحكم في اتجاه الحديث بينك وبينه بالشكل الذي يحلو له، يغوص بعقلك فتظهر شخصيتك ضعيفة أمامه، لم أقابل أي شخص بهذا السحر قبله، وأعتقد أن ذلك لن يحدث مرة ثانية.. تريدين أن أصفه لك؟ هو رجل شديد البياض، شديد سواد الشعر وبؤبؤ العين، طويل نوعًا ما.. كان يرتدي حلة سوداء، فوق جيبها العلوي نجمة ذهبية صغيرة، وكذلك حذاء أسود برقبة (بوت).. أمّا عيناه فحدِّثي عنهما ولا حرج، حادّتان وفي نفس الوقت بهما حزن شديد، قاسيتان ولكنك لا تنفرين منهما، بل تتمنين أن تغوصي داخلهما بلا عودة، هذا الرجل بمقدوره سلب قطعة من روحك، لكنك ـ في نفس الوقت ـ تمنحينه إياها عن طيب خاطر.. ظهر أمامي مرة واحدة كما قلت لك بسحره هذا، فوجدتني أعدل من وضع ساقي وأجلس بشكل معتدل، ودار بيننا هذا الحديث:

سألته: اسمك وسنّك وعنوانك؟

أجاب: علي منير مظلوم، أربعون عامًا، أصولي من هذه الأرض، لكني أتنقل كثيرًا في الخارج.

t.me/qurssan

أصولي، هذه الأرض، أتنقل كثيرًا! هذه المفردات لا تأتي مجتمعة في جملة واحدة على لسان إنسان عاديّ بسهولة، وخصوصًا حين تقال باللغة العربية الفصحى.

سألته بشكل مباشر: ما موهبتك يا أستاذ علي؟

ـ قلت لك إنني أسافر كثيرًا، ألا ترى أن السفر موهبة تستحق أن تظهر للنور؟

قلت وقد استفزتني إجابته: في الحقيقة لا أرى هذا. أعرف كثيرين يسافرون بشكل يوميّ تقريبًا، أنا نفسي عندما أكون في مثل سنّك سأكون عبرت محيطات ودولًا كثيرة، ووقتها لن أفتخر بذلك أو أطلق عليه موهبة.

نظرت ببطء إلى عينيه لأرى تأثير كلامي عليه، لكنه بدا متفهمًا وقال في هدوء غريب: قصدت من السفر تجاربه وحكاياته.

صممت أن أحطم نظريته من الأساس وقلت في حدة: حتى وإن كنت تقصد ذلك فهذا لا يعني شيئًا أيضًا، سأصل وأنا في سنّك إلى نفس النتيجة، وهذا لا...

قاطعني قائلًا: إذًا لِمَ الانتظار حتى تصبح في مثل سني؟ أنا هنا لأعرض عليك ما لن تراه أو تسمعه مهما سافرت، ولو عشت إلى يوم يبعثون، فلماذا تحكم على ما لم تدركه بعد؟

صِحت في توتر وقد شعرت بالتحدي: لماذا تتحدث أنت بهذه الطريقة الغريبة وتستخدم كلمات لم يعُد أحد يتكلم بها؟

t.me/qurssan

ردّ بنفس الثبات العجيب: طريقة حديثي غريبة، فما بالك بقصصي؟ وافِقْ يا سيد سامح ولن تندم بعد أن ترى وتسمع، أعدك بذلك مثلما أعدك بأنك عندما تصل إلى سنّ الأربعين سيكون لك اهتمامات أخرى غير السفر.

استلقيت برأسي إلى الوراء ونظرت إلى سقف الغرفة لكي ألتقط أنفاسي، لا أدري يا عُلا لماذا لم أصدّق هذا الرجل منذ بداية لقائي به. يتحدثون كثيرًا عن لغة الجسد وقراءة العيون وكل ذلك الهراء عن علم الفراسة، لكن يظل إحساسي الأول هو الأمين الذي أصدقه دومًا.. هذا الرجل يكذب، وأراد أن يثير فضولي كي أعرف سبب كذبه، ونجح في ذلك.

هنا سكتّ عن الكلام وأمرتها: توقفي عن التدليك، وكرّسي لنا بعض المعسّل ندخنه سويًّا.

على الفور بدأت في تجميع لوازم الجوزة، وفي خلال دقائق كانت الجمرات تتألق بفعل هواء المروحة، جذبتُ الأنفاس واحدًا تلو الآخر بشراهة ثم عدت للحديث ثانية وأنا أسعل قائلًا: فجأة، نظرت حولي فلم أجد أحدًا، الكل اختفى من الغرفة ـ باستثنائنا ـ دون أن أشعر.. للحظة شعرت بالخوف، هذا الرجل كان يخيفني، وهو يعلم أنه يخيفني، ولا تسأليني كيف عرفت.. قمت من مكاني لأقف عند الباب.. لا أحد بالخارج أيضًا، وكذلك الاستوديو خاوٍ إلا من عامل الإعداد.. عدت إليه وأنا أحمد الله على وجود العامل معنا بنفس الدور، ثم جلست على الكرسي واجمًا من الخوف،

وقلت بصوت حاولت أن يكون قويًا لكنه خرج بشكل واهن كالمرضي: أستاذ علي، وقت الاختبار انتهى، وللأسف اليوم كان آخر يوم لفرز المواهب، أنا آسف جدًا، لكن أنت الذي تأخرت.

ضحك الرجل بشدة حتى ظهرت أسنانه شديدة البياض -كوجهه- كان هذا أغرب رد فعل لشخص يُطرّد من مكان «بشياكة»، وقال في تصميم: أنت تريد برنامجًا متميزًا يجذب المشاهد من الحلقة الأولى، وأنا أعدك بهذا، أريد أن تصل حكاياتي إلى الناس، فلماذا تبتعد عني وترفض حتى سماعي؟ أنت متوجس مني يا سامح منذ أن رأيتني، وهذا حقك، لكننا في نفس الخندق يا بني، والكره لا يعني أبدًا أن نفترق.

صدرت مني همهمة ليس لها معنى على الإطلاق وسكت، ظَلَّ ينظر إليّ لبضع ثوانٍ، فأمسكت بعض الأوراق من فوق الطاولة التي بجواري واصطنعت التركيز بها أطول وقت ممكن، لم أرد بالطبع، ولو ظَلَّ واقفًا ليوم الدين ما رددت. لم أعلم بالأساس أي خندق يتحدث عنه، فقط أردت مغادرته دون النظر في عينيه أو حتى رد السلام إذا ألقاه.

- لك مني السلام حتى تطلبني بنفسك يوم العرض.

ختم جملته الغامضة ثم تحرك ببطء ناحية الباب، فتابعته حتى انصرف معلنًا عودتي مرة أخرى إلى وعيي.. تناولت كوبًا كبيرًا من الماء دفعة واحدة في رعب كأنه كابوس ابْتُليت به.. لم

t.me/qurssan

تمرّ عشر دقائق منذ بدأنا الحديث وتركني غارقًا في عرقي بهذا الشكل، فكيف الحال إذا ما طاوعته وأشركته في فقرة تمتد لنصف الساعة؟! بالتأكيد ستكون نهايتي العملية والحياتية كذلك. هكذا همست لنفسي، هكذا بقيت جالسًا دون حراك لبضع ثوانٍ حتى استجمعت قوّتي وخرجت.. هنا تذكرت شيئًا، هذا الرجل خاطبني باسمي -لا عليكِ من إلغائه أي لقب قبل اسمي كأننا أصدقاء طفولة- وهو لا يعرفني أصلًا، فكيف عرف اسمي؟ لا أحد من الذين تقدموا للاختبار كان يعرف أسماء مُمتحِنيه، وراعينا ذلك جيدًا؛ حفاظًا على مصداقية البرنامج. فكرت في عامل الإعداد بحكم أنه القائم على جمع كل بيانات المتقدمين للاختبار، ويستطيع الأستاذ علي شراء ذمّته بسهولة في أثناء وقوفهما معًا، لكن سرعان ما تجاوزت تلك الخاطرة لأنها لا تعني شيئًا.. ما الذي استفاده من معرفة اسمي؟ لم يوصني عليه مثلًا أحد من زملائي أو شيء من هذا القبيل. هنا تذكرت البيانات، بيانات هذا الرجل كانت عند العامل، وتوقعت أن بياناته غالبًا ستكشف الكثير.

اتجهت إلى الاستوديو في الناحية المقابلة لأجد العامل جالسًا وأمامه منضدة صغيرة عليها هاتف القرص وبعض أوراق المقبولين للظهور بالبرنامج، من الواضح أنه يبلغهم بمواعيد البروفات في الأيام القادمة، هكذا فطنت. رآني فوقف سريعًا وسألني في دهشة:

ألم تغادر بعدُ يا أستاذ سامح؟!

أجبت سؤاله بسؤال آخر: هل لديك بيانات شخص يدعى علي مظلوم؟ رجل أبيض البشرة وملابسه كلها سوداء. ألم يترك لديك شيئًا، بيانات، رقم تليفون، أي شيء؟

أجاب دون تفكير: أعرفه جيدًا، لقد ترك جواز سفره ورقم هاتفه، ربما نرغب في التواصل معه، لكن هذا الرجل من المتقدمين اليوم للاختبار يا أستاذ سامح، هل ستوافق على ظهوره بهذه السرعة؟

ـ لا شأن لك بهذا.

نظر إليَ في لامبالاة ثم تمتم: عمومًا هو رجل محترم جدًا.

قالها ثم ظهرت على وجهه ابتسامة سمجة تظهر غالبًا حينما «يغمزه» أحدهم بمبلغ نظير خدمة قام بها. قلت في صرامة: أعطني جواز سفره.

ـ حاضر.

أخرج جواز السفر من درج الطاولة وقدمه لي، ففتحته بلهفة عجيبة أثارت فضوله.. لا شيء.. لم أجد شيئًا مميزًا أو يدعو للدهشة، باستثناء كثرة سفرياته (الهند، إيطاليا، فرنسا، الولايات المتحدة الأمريكية، جامايكا... إلخ)، ثم مَن المخبول الذي يسافر إلى جامايكا؟! شيء مريب لكنه في النهاية حُرّ، لا زوجة، لا أولاد، أما العنوان فكان منطقة شعبية فقيرة في القاهرة حسبما أذكر، إمبابة أو بولاق، لا أذكر تحديدًا، لا أعلم لماذا أُصبت بالإحباط بعد

t.me/qurssan

فحص جواز السفر، غادر هذا الغريب المكان تاركًا خلفه العديد من الأسئلة تدور في بالي. صحيح أن طبيعة البرنامج قائمة على الإثارة، لكن ليس إلى هذا الحدّ، فكرت أن يكون مجرد شخص عاديّ جدًّا، صحيح أنني كنت مبهورًا بالغموض الذي يغلف حديثه وطريقة ملبسه، لكن قد يتضح بعد ذلك أنه شخص تافه، خاوٍ، مجرد هاوٍ للسفر ليس أكثر، أو حتى ساحر ممن يقدمون عروض الأرنب والقبعة وكل هذه السخافات، لم أستطع تحديد ذلك وقتها.

هنا توقفت عن الحديث وشردت ببصري قليلًا، تذكرت سمية، ربما ظهر عليّ الضيق، فهمّت عُلا بالتخفيف عني كعادتها لكنني أشرت لها أن تبقى جالسة، وأكملت بنبرة بها شجن: عدت إلى شقتي ذاك اليوم مرهقًا، وبعد تناول الغداء مع سمية مباشرة شعرت بصداع.. كثير من الوجوه والمناقشات جعلني أصاب بصداع رهيب ومستمرّ، هذا الـ«علي» أيضًا زاد منه بسبب الحيرة التي سبّبها لي، لكن أي ألم ـ حتى العضوي منه ـ كانت هي علاجه دائمًا، سمية، زوجتي السابقة، ذات الروح الحنون التي تقبض على طاقتي السلبية وغضبي فأسكن تمامًا وأتحوّل إلى شخص وديع بين يديها. كنا يوميًّا ـ طيلة خمس سنوات هي مدة زواجنا ـ نجلس عصرًا في الشرفة، فتسألني هي عن يومي، حكيت لها قصة هذا الغريب بالتفصيل ونحن نشرب الشاي، ونظرات الحماس تملأ عينيها، حتى وصلت إلى الذروة عندما ألقى جملته المستفزة وانصرف.. قالت سمية وقد استفزتها الجملة هي أيضًا لكن بشكل

عكسيّ: أنت تهرّج بالتأكيد يا سامح، أنا متأكدة أنه سيكون «BIG SHOW» الحلقة، يجب أن تتصل به.

قلت في استنكار وقد تعجبت من حماسها: هذا الرجل مخيف يا سمية، أنت لم تَرَيْه، مخيف بالفعل.

صاحت كمن وجد ضالَّته: وهذا هو المطلوب كما قال لك، ثم إنك ستسمع منه أولًا قبل أن تتخذ قرارًا في شيء، لِمَ القلق إذًا؟

- ليس قلقًا بالمعنى، هذا الرجل كأنه طاقة شر خالصة، تجلسين بجوار شيء مرعب، بالإضافة إلى كونه غير مفهوم.
- أنا متفائلة جدًّا بهذه الفقرة، وعمومًا أنت حُرّ، لك مطلق الحرية في اتخاذ القرار.
- سأفكر.

كانت تلك من المرات النادرة التي تخالفني فيها سمية الرأي، لكن منطقية تفكيرها جعلتني أعيد النظر في الموقف بشكل عام، وبدأت طريقة تفكيري تتغير جزئيًا هي الأخرى آخر اليوم.. قلت لنفسي إنّ هذا الخوف الطفولي الذي سيطر عليّ لم يكن له داعٍ أصلًا، لقد بالغتُ في النفور من الأستاذ علي رغم عَلاقتنا السطحيةَ التي لا تزيد على دقائق قليلة.

t.me/qurssan

كانت فترة اختبار المواهب قد انتهت كما قلت لكِ، وبدأنا في مرحلة الفرز النهائي. ثم مرحلة تقسيمهم بترتيب معيَّن وعمل بروفات لهذه الوجوه التي ترى الكاميرا للمرة الأولى.. صار لدينا مادة صالحة لعشر حلقات كاملة، إلا أننا ركزنا على فقرات الحلقة الأولى واخترنا اليوم السابق لها لعمل البروفة الأخيرة.. أصارحك القول يا عُلا، بعد نقاشي مع سمية كنت أفكر يوميًا في الاتصال بالأستاذ علي، لم يكن يمرّ صباح إلا وكنت أقسم فيه أنني سأكلمه، ثم توقفني كرامتي في اللحظة الأخيرة، حتى في أثناء البروفات كنت أستحضر صورته في ذهني وأتخيله معي في الحلقة، ثم يأتي إليّ هاجس يثبطني. رهانه بأنني سأتصل به خلق بيننا حاجزًا، كلما اقتلعته نما من جديد. أما الليل فحدِّثي ولا حرج، طاردتني كوابيس بشعة، تارة أكسر إشارة المرور وشرطي يعدو خلفي ليقتلني، وتارة أُزَفّ على عجوز شمطاء دميمة الوجه، وتارة يدفنونني حيًّا... إلخ، كل هذا جعل مظهري كالزومبي بسبب الأرق مع العمل، مما جعل المخرج يهدِّد بالاستبدال بي. سمية ظلت ثابتة على موقفها رغم فقدانها الأمل -تدريجيًا- من مشاركة علي، وأنا بقيت حائرًا بين كرامتي وبين الـ«BIG SHOW»، حتى اتخذت قراري النهائي مع البروفة الأخيرة.

سكتُّ عن الكلام وسحبت نفَسًا قويًّا هذه المرة، فارتفعت قرقرة الجوزة، أدرت رأسي ناحية عُلا وسألتها: هل أنت مهتمة بهذه الحكاية أم ترينها مملة؟

t.me/qurssan

أجابت وعيناها تلمعان: مشوقة جدًّا.

ثم زادت كي تثبت لي شغفها: لم يهاجمني النوم منذ لحظة البداية.

أمسكت يدها وقبّلتها مرتين: رائحتك جميلة، ذكريني بهدية لك، زجاجة عطر من «CHANNEL».

ابتسمت كاشفة عن أسنان بيضاء نضيدة، ثم همست في أذني: أكمل أرجوك.

***

دار المكفوفات الأقرب لنا كانت هنا في القاهرة، تحديدًا بمنطقة المنيل، قابلت المسؤولة هناك وطلبت إلحاق توبة بالدار، كان ردّ السيدة قاطعًا: لا توجد غرف خالية، هناك ضغط مستمرّ من الأهالي والأماكن محدودة. كدت أخبرها بهُويَّتي وطبيعة المهمة وأنني هنا «يا قاتل يا مقتول» كما يقولون.

- أرجوكِ، الفتاة ليس لها أي مأوى.
- الدار ليست مأوى يا أستاذ، هؤلاء مكفوفات ولسن أيتامًا.
- أعرف، أعرف. أقصد فترة قبل أن أسوي لها الأمور بالخارج.

تأملتني بعض الوقت ثم أكملت لعبًا بأعصابي قائلة: هناك حلّ واحد لكن أغلب الأهالي لا يوافقون عليه.

- مهما كان، أنا كفيل به.

- لا توجد سوى غرفة واحدة لكن مع الأسف ليس بها أي تجهيزات، لا يوجد سرير، ولا راديو، ولا مروحة سقف، حتى سخان الغاز يحتاج إلى الإصلاح، ما رأيك؟

- سأشتري كل ما ذكرته.

ابتسمَت في خُبث قائلة: ونحن سنتغاضى عن بطاقة الآنسة يا أستاذ.

- «تبًّا لك»، قلتها في نفسي بالطبع.

قالت إنَ أمامي ساعة أو اثنتين كحدٍّ أقصى حتى أعود، وفي أثناء ذلك سيتم الكشف على تونة للتأكد من كونها عمياء، تعجبتُ مما قالته، لا يوجد سبب مقنع يجعل مبصرة تلتحق بدار تأهيل المكفوفات سوى أنها رجل متنكر. صراحةً، الأوراق هنا في مصر سلاح ذو حدَّين، هنا يجب عليك إثبات كل شيء، ويمكنك في ذات الوقت إثبات أي شيء. في النهاية عُدت إليها قبل مرور ساعتين محضرًا كل لوازم الغرفة في ما عدا الجدران.

تأملتُ تفاصيل الدار قبل خروجي، فهمت أن مهمّتها هي تأهيل المكفوفات للاندماج في المجتمع، طريقة برايل، الطبخ، اكتشاف المواهب، إلخ. الإقامة هناك مؤقتة وليست دائمة كما كنت أظن، لم أجد شيئًا مميزًا، لا شيء يدعو لنزول مَلَك من السماء

أو بَدَل إلى الأرض للضغط على غجرية عمياء كي توجد هناك، حقيقةً لا أدري ما المميز الذي كنت أنتظره، لكن الدار كانت عادية إلى حدٍّ لا يصدَّق. خرجت منها أحمل شعورين، حالة من الحنين تسري في عروقي، وحالة من الهدوء تملأ عقلي.

ـ هل تريد الخلاص مني؟

ـ ما الذي تقولينه يا توبة؟!

ـ إذًا لِمَ الإصرار على إيداعي دار رعاية المنيل هذه؟

ـ قلت إنّ الشقة تحتاج إلى بعض التجهيزات قبل الزواج، وأنا غير مرتاح لبقائك مع خديجة.

ـ هل تغار عليَّ؟

ـ أنا أخاف عليك.

سألتني في حماس: متى ستأتي إذًا؟

قلت بنفاد صبر: قريبًا، قريبًا جدًا يا حبيبتي.

في دار المنيل لرعاية المكفوفين كان الوداع غريبًا، كطفل تبنّيته منذ دقائق، حتى الوداع يجب أن يكون من صُلبك وإلا سيملؤك الشك من بعده ويجعلك تتساءل: هل أحببت حقًّا؟

لم تكن هناك إجراءات معقدة بعد كل ما دفعته، طبعت توبة قُبلة على خدي الأيمن ما زلت أشعر بها حتى الآن، ولوّحت لي وهي تقول في أسى: عُد بسرعة، أرجوك.

انتهى اللقاء، شعرت بأنَ الجميع نظر إليّ وقتها في فخر..
لقد انتهت مهمتي بنجاح أيها البشر، أو هكذا ظننت.

***

خرجتُ حائرًا من الدار وقت الظهيرة، أسير بخطى مشوَّشة نحو الموت، لا يشغلني إن كنت عبدًا صالحًا أم دمية، فقط كنت مفعمًا بتساؤلات مرهقة ولا أملك إلا القليل من الاستنتاجات التي لا تشبع فضولي: هل أنا على صواب لمجرّد أنني أنا؟ إن كان الحق هو مخالفة الهوى، فبربّك يا ٣٠٨ قل لي، لِمَ نُرضي مَن زرعه بداخلنا؟ وإن كان للحياة هدف، فلِمَ كانت الجنّة عيشًا أبديًا مِن مُتَع الهوى؟

المئات يسيرون من حولي ناحية اللاشيء، يحدقون في اللاشيء، ينتظرون اللاشيء، وسيعودون في الليل ليكتشفوا أن يومًا مرَّ ولم يفهموا شيئًا بعد.

فجأة سمعت أحدهم يصيح من بعيد: دار العميان تحترق! دار العميان تحترق!

كان يكررها بطريقة بائع الجرائد في الأفلام السينمائية القديمة حين يهتف بلا توقف: «اقرا الحادثة» ثم يختفي. كنت على بُعد أمتار من الدار ولم أجد شيئًا مختلفًا في الصورة، لا دخان، لا أشخاص تعدو في ناحيته، فقط انتبه الجميع كي لا أشعر أنني الوحيد الذي سمع ما قيل، ثم أكمل البعض طريقه وشعر

t.me/qurssan

البعض الآخر بالمسؤولية فتحركوا باتجاه الدار، هممت بإنقاذ توبة بالطبع ثم انتبهت، لقد انتهت مهمتي بالفعل، لم يعُد هناك مجال لأي حدث جديد هنا على الأرض، توبة كائنة الآن داخل دار رعاية المكفوفات مثلما طُلب مني، صحيح أن جسدها كان على وشك التحوّل إلى لحم مقدَّد تفوح منه رائحة الشواء، لكن ما ذنبي أنا؟ وما أدراني أنها ستحترق أو تموت هناك؟ ربما كان الحريق أبسط من ذلك بكثير، ربما ستتشوَّه قليلًا ثم تموت من الاكتئاب بعد سنين، قد يحالفها الحظ وتصبح الناجية الوحيدة ويتردد اسمها في الصحف لشهور.. تحوّلت الأسئلة الخانقة إلى احتمالات مفزعة، وقضت (ربما) على كل شيء بداخلي، لم يتبقَّ لي سوى فكرة واحدة، إلقاء نظرة سريعة على مصير توبة، ثم نسيان الأمر برُمّته. تُرى هل أخطأت في ذلك يا ٣٠٨؟

تحركت الجموع فتحركتُ معها، نظرة واحدة فقط يا رب، نظرة أخيرة لأعرف السرّ. الفضول كان يحركني مثله مثل الحب، كلاهما قويّ، كلاهما شرس، كلاهما نار تركع أمامها باقي المشاعر الإنسانية. صدِّقني، الفضول عندما يقترن بالحبيب الغائب يعود بالحب إلى سيرته الأولى، كاسحًا.

قابلنا حارس الدار في بلاهة.. الجميع وقفوا أمامه ينظرون إليه في تساؤل، وهو يردد: «خير يا جماعة»، أمّا لسان حالهم فكان يقول: «لا وقت للأسئلة، الدار تحترق أيها الأبله».

بحثت عيناي عن توبة في لهفة فلم أجدها في البداية، رأيت تلك السيدة التي قابلتها في الصباح تقف محنية للأمام وتُراجِع بعض الأوراق، على مرمى البصر رأيتها تسير بجوار عاملة نظافة، كانت هي.. توبة.

عدوت ناحيتها رغم بدء انسحاب الجميع إلى الخارج مرة أخرى، اعتقدوا أنها خدعة مِن أحدهم لإحداث بلبلة أو مزحة سخيفة، شيء ما بداخلي كان موقنًا بأن الأمر غير ذلك. قلت لنفسي: ربما كان الحريق على وشك الحدوث، لكن كيف عرف الرجل وهو بالخارج؟ المبنى ليس كبيرًا إلى هذا الحدّ، والحديقة الملحقة به صغيرة. عدوت بشكل سريع حتى أمسكت بكتف توبة هاتفًا باسمها، نظرَت إليّ العاملة في تساؤل، فقلت على الفور: أنا خطيبها، جئت لأعطيها بعض المال.

تمتمت العاملة بشيء ما في تذمُّر دون سبب، وأكملَت طريقها قائلة دون التفات: الغرفة مغلقة منذ شهور، لا أعرف لِم دفعتِ كل هذا المبلغ من أجل البقاء هنا، عامّةً لا تتأخري، رقم الغرفة ٣٠٩، سأجهزها لك.

أخذت العاملة ترطن حتى اختفت وراء زاوية المبنى، كدت أضحك بعد سماع رقم الغرفة عندما قالت توبة ـالتي عرفت صوتيـ في تعجُّب: يوسف، يكفي ما فعلته من أجلي، السكن والاحتواء وكل شيء، لدي من المال ما يكفي، فلا تقلق.

تأملتها في شغف، في عشق، في هُيام، ربما لم يعرف العرب تلك النظرة لأن وصفهم لدرجات الحبّ كان لوصف البشر. قلت: لا أعرف، ربما اشتقت إليك، وافتعلت هذا الردّ كي...

فجأة دوّى الانفجار، التصقتْ بي توبة صارخةً في رعب، أمّا أنا فقد هاجمني شعور مقبض، ليس بسبب الانفجار المكتوم، إنما بسبب سيل الدم الذي ظهر فجأة عند زاوية المبنى، أتى الجميع من كل صوب مهرولين -حتى النزيلات الكفيفات- لمعرفة مصدر الانفجار، أصحاب الثبات الانفعالي بحثوا عن جرادل الماء بعد تصاعد ألسنة اللهب لتقترب من الطابق العلوي للمبنى، الأكثر ثباتًا بحثوا عن الهاتف الأرضي لطلب رجال الإطفاء. تذكرت حديث مسؤولة الدار، فاستنتجت أن سبب الانفجار هو تسريب الغاز مع شرارة الضغط على زرّ الإنارة.

سألتني توبة في فزع: يوسف، هل ماتت العاملة؟!

أومأت برأسي بمعنى الإيجاب وهي تتحسس ذقني، أما عيناي فكانتا مثبتتين على الدم، كان ينساب ببطء وتزداد رقعته شيئًا فشيئًا حتى شعرت أنه قادر على ابتلاعنا، أكاد أشمّ رائحته من بعيد، رائحة يملؤها العرق، الرطن، وممسحة الغرف، مزيج أعرف أنه لا ينقصه شيء سوى رائحة فتاة عمياء تختبئ بين ضلوعي وتهمس في رقة: أنت ملاكي الحارس، أنا أُحِبُّك.

***

لا تقتلني أيها الرسول، أعلم أنك لن تشعر بالحزن على فقداني، لن تنهمر من عينيك الدموع، من الممكن أن تصبح في سلام بمقتلي، لكنك لن تكون سعيدًا بقتلي، فقط أرجو أن تتخلى عن فوقيتك وتعطيني الحق الكامل للتبرير، ثم اجعل حياتي البائسة فرصة أُولى للغفران.. وأخيرة.

***

عالم الأبدال

فجأة توقف ٣٠٨ عن الحديث، أخذ ينظر حوله متفحصًا تفاصيل بيته البسيطة، استلَ سيفه من فوق أحد الجدران وخرج من بيته الجبلي بخطوات واسعة سريعة صارخًا: أنا لم أفعل شيئًا، إن جِئتَ لتقتلني فمرحبًا بالموت.

وجد رسول السماء أمامه، كأنه كان في انتظاره، وأجنحته الأربعة تتحرك في انسيابية في مشهد مهيب، توقَّف ٣٠٨ كأنه داس سلكًا من أسلاك الضغط العالي، ثم رمى السيف بعيدًا في خوف. بعد فترة قال في كياسة: أعلم أنك كنت تسمعني.

هنا جاء الصوت الصارم كأنه قاضٍ يُصدِر حُكمه: لم تكن قصتك، لِمَ فعلت ما فعلته؟

ـ أمهلني بعض الوقت للدفاع عن نفسي.

ـ لك هذا.

t.me/qurssan

أكمل ٣٠٨ ما كان يقصُّه قائلًا:

عندما جاءني رقم ١ -على غير العادة- بعد زيارتك له، توقعت أن ٣٠٩ قد عاد وأن مهمتي ستبدأ سريعًا، لم أتوقع قَطّ أنْ أزور الأرض للمرة الأولى لمجرد الحديث مع جاري. اصدُقك القول، لقد شعرت بالإهانة، سألته عن موعد مهمتي الأساسية لكنه لم يعطني جوابًا شافيًا.

قال رقم ١: ليس قبل أن ينهي ٣٠٩ مهمته، مطلوب منك أن تصل إلى الأرض في أسرع وقت وتحاول منع جارك وصديقك عما ينوي عمله.

قالها بلهجة آمرة، فقلت في حيرة: وما الذي ينوي عمله؟

ردّ بسرعة كأنه ينتظر السؤال: لا أعلم، هذا كل ما قاله الملك.

- وأين سأجد ٣٠٩؟

أنهى اللقاء بعد أن قال: في نفس المكان.

قالها ثم ناولني لوح الدعاء وانصرف دون إذابة جناحَيّ، فهمت أن دوري إرشاديّ ولن يتخطى ساعة بزمن الأرض.

قُل لي بربّ هذا الكون يا سيدي، ما دوري أنا في تلك المعادلة المعقدة؟ لدينا واحد من الأبدال خرق قوانين عالَمنا ومطلوب مني مساعدته، كيف نساعد من لا نفهمه؟ بعد أن عبرت ذراتي الفضاء، وما صاحب الانتقال من قوة انفجارية سمعتُ صوتها كأنّ قنبلة انفجرَتْ داخل أحشائي، وصلت إلى الأرض، شعرت أن ذراتي تجمّعت وهناك من يغلق جسدي بسحّاب آخره عند الجبهة.

وصلت إلى منطقة المقطم ليلًا، وجدت ٣٠٩ جالسا بجوار عشة صفيح يبيت فيها، عرفته على الفور، فقدَ وزنًا كثيرًا لكنني عرفته، اقتربت منه ثم ناديته، لم ينتفض لرؤيتي رغم الجناحين اللذين زيَّنا ظهري، سلَّم عليّ بنفس طريقة مقابلاتنا السابقة أمام بيته كأنه يعرف بقدومي، تخطيت سلامه المريب والبارد نسبيًّا وقلت لنفسي: «الوضع خطير بالفعل».. نظر إليّ بعينين مهزومتين وقال دون تمهيد: أنا أحِبُّها يا ٣٠٨ ولا أطيق العيش من دونها.

قلت في ثبات كطبيب نفسيّ لا يتفاعل مع مرضاه: مَن هي؟ احكِ لي يا صديقي ماذا حدث.

ساعتان كاملتان حكى فيهما كل شيء منذ أن وطئت قدماه الأرض، أعدتهما على مسامعك بعد أن سمعت خطواتك بالخارج أيها الرسول، لم أكذب ولو بحرف، كان انطباعي الأول عن حالته هو القنوط، هذا البدل كان يائسًا إلى حدٍّ لا يصدَّق، لأما الانطباع الثاني فهو قلة الحيلة، لم يكن يعرف ماذا يفعل، ولهذا أرسلوني رغم أنّ الحل كان بسيطًا.

بختام حكايته كرر جملته الأولى: «أُحِبُّها يا ٣٠٨ ولا أطيق العيش من دونها»، كان صادقًا بحق.

قلت في هدوء: ستلقى مصيرها المحتوم كباقي الكائنات إن عاجلًا أو آجلًا يا ٣٠٩، ومن يعلم؟ ربما تتقابلان في حياة جديدة.

نظر إليّ في حدّة قائلًا: بعد كل ما حكيته لك؟!

كان لديه الاستعداد لتقبُّل نصيحتي، لقد ترك قدميه تنزلقان وهناك من أمسك يده في اللحظة الأخيرة، نظرت إليه وقلت في صرامة: لماذا سمحت لهذا الحبّ بأن ينتشر في خلاياك؟ ألا تخشى العقاب الأبدي؟

لم يردّ، فقلت: لقد عشت من دونها بالفعل يا ٣٠٩، الدقائق القليلة بين خروجك من الدار وعودتك إليها تؤكد أنك قادر على إتمام مهمتك، لا أنكر أن الاختبار كان قاسيًا لأنك علمت بمصيرها، فقط لأنك علمت. الجميع ينتظر عودتك أيها الشجاع، فلا تخذل الجميع.

أدركت أن كلماتي الأخيرة قد لمست جرحه الغائر في روحه عندما سألني: وما الحل؟

- الحل أن تسافر إلى تلك المدن التي بها دور رعاية للمكفوفات وتجبر توبة على الإقامة بإحداها وتعود إلى هنا من جديد لتبدأ رحلة عودتك إلينا.. إلى وطنك.

سقطت دمعة من عينيه، ففهمت أنه موافق، أو كان يجب عليه ذلك، مسحها بيده سريعًا وهو يشكرني بالسريانية ثم قال كمن تذكّر شيئًا وعيناه جاحظتان من أثر الدموع: وإن لم أجد لها مكانًا شاغرًا؟

فكّرت قليلًا ثم قلت الردّ الذي تحاسبني عليه الآن أيها الرسول: في تلك الحالة عليك أن تأتي بمصيرها كما أراده الخالق.

ثم أخذت نفَسًا قبل أن أعقِّب: تقتلها.

عجز ٣٠٩ عن الردّ في البداية، كان يتساءل في قرارة نفسه عن قدرته على تنفيذ ذلك، ثم اكتشف أن القدَر يدفعه إلى ذلك بنسبة كبيرة. قال وكأنه يؤكد لنفسه الفكرة: أليس هذا تعديًا للمسموح؟

قلت وقد استشطتُ غضبًا: لقد تعدَيت المسموح بالفعل، ألا تفهم؟ لا أضمن لك العواقب، لكنها لن تكون أسوأ مما حدث.

أطرق برأسه لأسفل ثم قال بنبرة متوسلة: ألن تبقى معي حتى إتمام المهمة؟

حركت رأسي يمينًا ويسارًا في بطء كي يتذكر أنني لست في مهمة، إنما لشد عضده.

- أراك قريبًا يا ٣٠٩.

توقعت منه إجابة مراوغة لمدّ الوقت، إلا أنه تلفَت حوله لثوانٍ ثم قال هامسًا: هل تذكر الدعاء؟

- بالطبع.
- كرِّره على مسامعي.
- لماذا؟
- أشعر أنني تائه طول الوقت بعد فشل مهمتي، كأنّ ذاكرتي قد مُسحت.
- فلتحتمِ بأيّ صخرة إذًا.

t.me/qurssan

فاحتمى بصخرة ضخمة ولمحتُه يُخرج ورقة وقلمًا من جيبه، نلوتُ الدعاء بصوت عالٍ كي يسمعني ثم... ثم دوَّى الانفجار معلنًا رحيلي.

***

قلت لعُلا، فتاتي المرحة:

السبت، ١٠ أكتوبر ١٩٩٢، البروفة الأخيرة، كدت أفقد اتزاني تمامًا يا عُلا، أكثر من نصف سكان مصر سيلعبون دور الناقد الفني معي غدًا، لهذا أصبح الإعداد الجيِّد هو كلمة السرّ.. وصلت إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون مبكرًا ـعلى غير عادتيـ وصعدت إلى الاستوديو والحماس يعصف بي، اتخذت قراري النهائي ولن أعود فيه، سأكلِّم علي مظلوم اليوم وليكن ما يكون.. سأطلب منه الحضور سريعًا قبل وصول المخرج والمُعِدّ ليظهر أمامهم ولا يكون هناك مجال للتراجع، هناك قاعدة توصلت إليها وما زلت أطبقها إلى الآن: «إذا تعارضت كرامتك مع نجاحك، فيجب أن تختار المستقبل».

كنت متأكدًا من عدم رؤيتي لعلي مظلوم مرة ثانية، لكني حسبت أن نجاح تلك الحلقة سيعيش معي إلى الأبد، كما ترين، الاختيار صار سهلًا هكذا، كان الاستوديو خاليًا تمامًا في ذلك الوقت المبكر، فقط أنا وديكورات البرنامج الباهرة ـقياسًا على تلك الحقبة الزمنيةـ أضأتُ المكان بالكامل وبأقصى طاقة للإنارة، كنت أنتظر عامل الإعداد كي نتصل بعلي، ولكنني سرحت، وقفت

متأملًا المقعد المخصص لي، مقعد المذيع، سأكون جالسًا هنا بعد ساعات أسطِّر صفحة جديدة من كتاب الإعلام المصري، الشهرة الطاغية، المال، حتى النفوذ جاءني بأحلام اليقظة وقتها، ماذا ستنتج الشهرة عندما تجتمع بالمال؟ بالطبع سيكون النفوذ هو...

فجأة سمعت صوتًا يجلجل في المكان: سيكون لك مستقبل عظيم يا سيد سامح، لا تقلق.

الصوت كان قادمًا من الخلف، هذا الصوت الرخيم كنت أعرفه جيدًا رغم أنني لم أسمعه سوى مرة واحدة، التفتُّ لأتأكد من مصدر الصوت فوجدته هو، علي منير مظلوم، كان واقفًا أمامي وجهًا لوجه بنفس هيئة المرة السابقة وبيده حقيبة جلد سوداء صغيرة.

قلت بسرعة: كيف دخلت إلى هنا؟

قال وكأنه لم يسمعني: الوقت يمرّ، وسيأتي الجميع، وأنت لم تسمع مني بعد.

ضربت كفًا بكفّ وأشحت بوجهي بعيدًا كي لا تتقابل أعيننا: أنا لا أستطيع فهمك يا أستاذ علي، أنت شخصية غريبة جدًا. دعني أصارحك، أنا أصبح في غاية القلق ونحن مجتمعان في مكان واحد، فكيف وأنت تظهر لي فجأة؟!

قلت هذا لحفظ ماء وجهي بالطبع. صراحةً كنت مستسلمًا تمامًا من داخلي. باغتني قائلًا: جسدك يبدو عليه الإرهاق الشديد، اهدأ قليلًا يا بنيّ، لقد بعثني لك القدَر لكي يكون لك شأن عظيم،

صدقني، أنا لا أريد الضغط عليك بقدر ما أرغب لك في المجد. كنتَ على وشْك مهاتفتي وأنا وفّرت عليك عناء الإحراج، فلماذا تعاند وتكذب؟

لم أسأله بالطبع كيف عرف بنيّتي، كان الرجل لعنة حقيقية يا عُلا، مهما حاولت أن أبدو قويًا سيظهر ضعفي أمامه.. قلت مصطنعًا اللامبالاة حتى لا أرى نظرة نصر في عينيه: أستاذ علي، تفضّل بالحكي، لكن لو لم يعجبني حديثك فلا تستخدم أسلوبك هذا وانصرف في هدوء لو سمحت.

ابتسم ولم يردّ كالعادة، طلب مني الجلوس بغرفة الإخراج ليريني شيئًا، ذهبنا وجلست أنا أمامه، أخذ يحكي عن الهند، أولى سفرياته، حتى آخرها للولايات المتحدة الأمريكية، مرورًا بأماكن عديدة. الحق يقال، كان كل ما رواه جذابًا فعلًا، حكايات غريبة عن طقوس تلك البلدان، جرائم عجيبة وقعت أمامه، عروض مذهلة لفِرَق تبيّن ثقافات الدول الغربية... إلخ. كان يتحدث ببطء وثقة شديدة وبأسلوب تعشق سماعه. هل قرأت كتاب «حول العالم في ٢٠٠ يوم» يا عُلا؟

ردت عُلا في صدق هذه المرة: نعم، قرأته منذ زمن.

قلت: تمام، لقد وصلتِ إلى جزء بسيط من دهشتي أمامه. الأكثر إثارة في هذا كله كانت الداتا التي يمتلكها، كل ما قاله كان مدعومًا بفيديوهات على كاميرا الشريط الشهيرة وقتها، كان يحكي مثلًا عن جريمة قتل بشعة حدثت في جامايكا أو قبائل إفريقية

تمارس شعوذة ما، فأقوم بتشغيل الفيديو لأجدها مصوَّرة أمامي. قلت لنفسي: ما هذا الرجل؟! وكيف وصلت إليه هذه المعلومات؟!

كان ردُّه جاهزًا دائمًا: أنا أعرض ما لدي فقط وأنت الذي تختار، إما أن تقبل وإما أن ترفض.

هززت رأسي له وقلت في استسلام: فاهم طبعًا.

- كنت أردد لنفسي أمام الفيديو: سوف يسيل لعاب المُخرج بعد رؤيته لهذه الأشرطة، فقرة هذا الرجل ستكون مسك ختام الحلقة بالتأكيد.

بدأ الجميع في التوافد إلى الاستوديو فأظهرت له إعجابي بما سمعته وشاهدته، بل اعتذرت له عن جفائي في البداية، ثم أرسلت في طلب المُخرِج والمُعِدّ لنصل إلى الرأي النهائي، وكما توقعت، تحمّسا للفكرة لكنهما طرحا عليّ بعض الأسئلة.

المُعِدّ: كيف سنختم الحلقة بفقرة الأستاذ علي وهناك مطربة اتفقنا معها؟

أنا: سأعتذر لها وتحضر البروفات للحلقة الثانية، أما علي مظلوم فهو جاهز للأولى.

المُخرج: هل تثق به؟

أنا: لا.

المُعِدّ: هل نسأل عنه في عنوانه؟

- لا يوجد وقت.

t.me/qurssan

المُخرِج: على مسؤوليتك يا سامح؟
أنا: موافق.

الفضول هو سِرّ التجربة، الفضول هو ما يجعلك تنجح، وإذا غاب فلن تكمل شيئًا للنهاية. هو الدافع لكل شيء، هو مَن قتل القط ومَن جعل نيوتن عظيمًا كما يقولون في الغرب يا عُلا. كل من كان بالغرفة لحظة ذلك الاتفاق كان يتنفَّس فضولًا.

الأحد، ١١ أكتوبر ١٩٩٢، جرى العمل على قدم وساق في الاستوديو من التاسعة صباحًا تقريبًا، حضر عليّ وأنهى معنا البروفات بشكل طبيعيّ، أريناه مكان انتظاره لإشارة الدخول إلى الاستوديو في أثناء البث.. كانت هناك حالة جميلة من التفاؤل تسري بين طاقم البرنامج.. المُخرِج والمُعِدّ وأنا نقوم بتكرار البروفات دون ملل، عمّال الإضاءة والديكور يضعون لمساتهم النهائية غير متأففين من طول وقت العمل، مهندس البث كان متحمسًا بشكل لا يصدَّق، كانت المرة الأولى التي تلمع فيها وظيفته بهذا الشكل، كان رجلًا طيِّب القلب لأقصى درجة، والوحيد الذي كنت أرتاح في الحديث معه عن أحلامي وطموحي وأحيانًا حزني لعدم الإنجاب، ويصارحني هو بضيقه من بثّ برامج مسجَّلة مسبقًا طيلة سنوات و... لحظة، هل كنت تعلمين بموضوع عدم الإنجاب؟

قالت عُلا في أسف: توقعت ذلك، خمس سنوات مع مدام سمية ليست بالقليلة. صراحةً، لا أعلم أين المشكلة عند إياكما، أنا آسفة على...

t.me/qurssan

قاطعتها قائلًا: لا، لا تأسفي، مشكله الإنجاب كانت بسببي أنا.

أطرقَت برأسها للأسفل في أسى، فاستطردتُ: هل نسيت شيئًا يا علا؟ بالطبع، التقطنا صورة تجمع طاقم العمل للذكرى.. ثم بدأ البث.

***

قال ٣٠٨:

عُدت لأجد الأبدال قد اختفوا! تجربة غريبة مررت بها، لكن الأغرب كان هذا الهدوء المريب، لم أجد أحدًا في مقابلتي، طرت ناحية ٣٠٧ فلم أجده، ٣٠٦ أيضًا، هنا قررت الطيران إلى رقم ١ مباشرة، وجدت كل الأبدال الباقين يقفون أمام النهر مصطفّين كأنك على وشك القدوم يا سيدي، رفعوا رؤوسهم جميعًا يتابعونني حتى استقرّت قدماي خلفهم والجميع عيونهم متعلقة بي، أفسحوا لي الطريق حتى وصلت والدهشة تغمرني من هذا التجمع. قابلني رقم ١ بلهجة متلهفة قائلًا: هل قابلته؟

أومأت برأسي ثم انفردت به داخل بيته. قال: ولماذا لم يعُد معك؟

حكيت له القصة بالكامل فكان ردّ فعله مخيبًا لآمالي، تمنيت أن يبدي تعاطفًا مع ٣٠٩ لكنه علّق قائلًا: بئس الأمر، قلت لك إنه فشل، وأنت بعنادك زدت فشله فشلًا.

ابتلعت الإهانة وقلت مبررًا موقفي: ٣٠٩ على وشك إتمام المهمة، كان يحتاج إلى بعض التشجيع فقط.

ـ أتمنى ألا يسوء الوضع أكثر من ذلك. هناك محاذير هامّة يجب أن ألقيها على مسامعكم الآن، اغرب عن وجهي.

خرجتُ لأصطفّ مع زملائي والدماء تغلي بعروقي. بدأ رقم ١ حديثه بصوت مجلجل: اسمعوني جيدًا أيها الأبدال، لم يتبقَّ منا سوى العشرات، أي إنّ رحلتنا هنا قد أوشكت على الانتهاء، ،حيا بهذا العالَم في سلام وسنموت على أرضه في سلام، والسلام ليس كلمة نرددها فقط، السلام أهم قواعده أن يتأثر كل منا بما يحدث للآخر ويتعلم منه وإن أخطأ يقوِّمه، وقتها سيعمّ السلام. لدينا حالة هي الأولى من نوعها وأرجو ألا تتكرر، يجب أن ننتبه إليها، زميلكم ٣٠٩ ينتظره استجواب دقيق بعد ما فعله من استهانة بالأمر الصادر له، قد يصل العقاب إلى مهمة جديدة، النفي فترة طويلة، أو الحرمان من الجنّة، لا نعلم هنا شيئًا عن قرار الخالق، لكن كيف نستهين بطموحتنا وأحلامنا؟ كيف نستهين بالقرب من خالقنا وملاذنا؟ كيف...؟

لم أعُد أسمعه، لم أعُد أراه، كأنني انعزلت عن عالَمنا فجأة وصارت الأرض لوحة يجلس عليها ٣٠٩ بجسده الواهن وعضلاته الضامرة التي أهلكها الفكر. شعرت أن حديث رقم ١

t.me/qurssan

يبطش بالواقع، ربما كان مهمًّا لكنه لا يمتّ إلى الواقع بِصلة، مَن لم يجرِّب بنفسه لا يحقّ له التفوُّه بالنصائح والأحكام، الإيمان بداخلنا جميعًا ـنحن الأبدالـ راسخ، فلِمَ يضحّي واحد منا بالجنّة على مذبح عَلاقة عاطفية؟ الأمر أقسى وأعقد من إرادة قوية، وألطف من أفكارنا عن النعيم. قد يملؤني الكره للبشر يا سيدي بسبب ما حدث لصديقي، لكن أذِب رُوحك داخل عالَمهم وستجدهم مثيرين للشفقة، زيارة سريعة قمت بها لحياتهم البائسة وما يسودها من فقر، شعرت بالخوف يخرج من أسفل أعتاب البيوت ـالتي لا تصلح حتى للحيواناتـ ليعلن سيطرته على الجبل نفسه، سمعت حكاية واحدة فقط فأُصبت بالغثيان، كذبت وضللت كي ينجو صديقي، كيف ننضج دون تجربة بالله عليك أيها الأحمق؟

هنا صرخت قائلًا: ٣٠٩ لم يخطئ في شيء.

نظر إليّ الجمع في تساؤل، أما رقم ١ فكانت نظرته استنكارية وغاضبة بعض الشيء، لكنني أكملت دون توقُّف: جميع الأبدال هنا معرضون لما حدث لـ٣٠٩، الخطأ وارد.

هتف رقم ١: احذر يا ٣٠٨.

رمقته بتلك النظرة المتهمة وصِحت: أنت كاذب أو جاهل.

ابتسم ابتسامة ثقيلة وحاول مداراة خجله وإكمال خطبته عن التمرد، لكن لم يلتفت إليه أحد، قلت بصوت جهوري وقد جعلتني متابعة الأبدال أبدو في صورة أسطورية: الحكاية هي أن ٣٠٩ شعر

t.me/qurssan

ناحية بشريَّة بأحاسيس تشبه ما بيننا من صداقة، كان يريد البقاء مع حبيبته حتى ينتهي أمره، هذا كل شيء.

رفع رقم ١ سبّابته أمام شفتيه المطبقتين محذِّرًا، لكنني هتفت كالمسحور: أنتم لا تعلمون شيئًا، المهمة ليست بنفس السذاجة التي تقال بها، هناك كواليس ملأى بصراعات، أحداث، مشاعر لا حصر لها. إن كان ٣٠٩ أخطأ فقد أخطأ في أمر واحد.

عمّ الصمت المكان بشكل غريب فاستطردت: قبول تلك المهمة من الأساس.

صرخ رقم ١ وهو يترنّح وكأن الأرض تذوب من تحت قدميه: كفى أيها المغفل، كفى.

قلت بصرامة: قل لنا مَن نحن، لماذا نساهم في تحديد مصير هؤلاء؟ ولماذا نحاسَب على شيء شعرنا به؟ الفتاة كانت على وشك الموت وأنقذها واحد منا، فهل جزاؤه النفي أو الجحيم؟

ازداد ترنحًا وهو يقول: مثلي مثلكم، لا توجد إجابات، لكنني متأكد من كون الطاعة هي الحل. اتقِ الشبهات يا ٣٠٨.

ـ لا توجد شبهات هنا، هل هناك ما يمنع البدل مِن حُب البشر؟

نظر إليّ نظرة طويلة والجميع ينتظره، لكنه لم يردّ.. قلت: هناك من يلعب بنا يا رقم ١، ولقد اقتربت ـ أنت ـ منهم كثيرًا.

قال بعصبية: لقد اختار الله لكم النهاية الأفضل.

ـ إن كنت تعلم شيئًا فقُله، تلك الأكاذيب المتتالية تهدم كل شيء، الآن حصحص الحق، لكنه لن يشفع لك.

سقط على ركبتيه وهو يتمنى أن أخرس. الحق أقول يا سيدي، لقد شعرت بذاتي جدًا تلك اللحظة. حاول بعض الأبدال مساعدته للوقوف لكنه قام بسرعة ودخل بيته ثم عاد في لمح البصر وبيده سيف وعيناه تلمعان ببريق مخيف والزبَد يسيل من شدقيه محاولًا الهجوم علَيّ، هنا اعترض طريقه مجموعة صغيرة من الأبدال محاولين وقفه، الأبدال مفتولو العضلات منتصبو القامة، لكنه كان شرسًا بحقّ، كأنني كشفت سرّه. كان مسلّحًا، وبعد الالتحام وجدنا أحد الأبدال يسقط أرضًا مدرجًا في دمائه، اقترب أحدنا لفحصه ـ يبدو أنه جاره ـ لكن سرعان ما اكتشف موته، أعلنها للجميع فتراجع رقم ١ خطوات إلى الوراء غير مصدِّق أن الأمور انفلتت منه بتلك السرعة.

تمدّد جسد البدل على محفّة من الخشب، وتحرّك الكلّ معي لدفنه، أما رقم ١ فبقي ببيته مرتعدًا لا يقوى على الخروج. بعد دفن الشهيد ببيته وقراءة القرآن بجوار جثته حكيت لهم ما عرفته من ٣٠٩، أوضحت لهم وجهة نظري بخصوص قتل توبة، فأصابتهم الحيرة مثلي، وهذا تأييد في حدّ ذاته، أليس كذلك؟ انقسمنا بعد جدل طويل إلى فريقين، هناك من نظر إليّ متّهمًا كأنني قائد متمرّد على حال عالَمنا، والبعض الآخر نظر إليّ كأنني نبيّ يريدون قبسًا

من قريحته، والفريقان ينظر كل منهما إلى الآخر في كراهية، الفريق الأول عاد إلى رقم ١ يواسونه في فعلته، أما الثاني فكانوا خمسة وثلاثين بدلًا، وهم نصف الأبدال الباقيين بعالَمنا تقريبًا، وقف جميعهم أمام بيتي يطالبون بمزيد من المعرفة.

بعد فترة قصيرة سمعت أنّ بدلين اقتتلا وأنا جالس بداري ليس بيدي شيء، ثم توالى القتل، أليس بعد الفتنة حرب؟ استمرّ العدد في التناقص بالخارج وأنا غير قادر على المواجهة، دماء، سيوف، طيور تأكل الجيَف، عشنا صراع الأفكار دون مبادئ وصراع الهوية دون نضج، اتخذنا قرارًا بانتظارك لكنك تأخّرت كثيرًا، أم تراك اكتفيت بالمراقبة؟ عذرًا سيدي، لم تكن الفتنة هي مقصدي لكنه القدَر، الفتنة هي من صنعت بنا هذا، وأنا وإن كنت أحمل ذنب الجثة الأولى مناصفة مع رقم ١ فلا ذنب لي في الثانية والثالثة وكل من قُتل، لا أريد لتلك الذكرى أن تظهرني أمامك بالضعف، أنت الذي أمرتني أنْ أحكي لك.

قُل لي يا سيدي، هل لا يزال أحد غيري في هذا العالَم؟ أجئت لتقتلني؟ أين رقم ١؟ هل قُتل هو الآخر؟ ولماذا لم يعُد رقم ٣٠٩ إلى الآن؟ أم تراه عاد ومات في سلام كمن حالفهم الحظ في السابق؟ منذ وقت قصير قررت الانتحار لكنني جَبُنْتُ، لكن عندما رأيتك أمامي شعرت أنها النهاية وتمنيت أن تقبل توبتي حتى وإن لم أرتكب ذنبًا، فلِمَ لا تقتلني وتريحني من هذا العذاب؟

نظر إليه الرسول طويلًا ثم قال بصوته الرخيم: الملائكة لا يقتلون.

نظر إليه ٣٠٨ في تساؤل مشوب بالحذر، فاقترب الملك أكثر قائلًا في ثبات: إلى الآن لم تعرف مهمّتك. أبشِر، لقد حان الوقت.

تبدلَت ملامح ٣٠٨ بسرعة وصاح في لهفة: كُلِّي آذان مصغية.

***

صباح الأحد ١١ أكتوبر

سافر يوسف إلى مدينة أسيوط بصعيد مصر، دار المنيل احترقت، لم يعُد سوى دارَي أسيوط والإسكندرية. وصل في السابعة صباحًا، ثم توجَّه إلى الدار على الفور. كانت آخر كلمات ٣٠٨ تتردد داخل عقله طَوال رحلته بالقطار.

- عُد بسرعة يا ٣٠٩، وإلا اعتبروك متمرِّدًا.

عندما وصل إلى الدار كان الوضع مخيبًا للآمال بشكل كبير، هناك ألواح خشبية وشكائر إسمنت وجبال من الرمل أمام المقر. سأل أحد المارّة فأخبره أنّ المبنى قديم منذ عهد الرئيس جمال عبد الناصر، وأنّ المحافظة قررت إخلاءه.

- متى سينتهون؟

- هذا الوضع منذ الخميس الماضي فقط، يوم الحكومة بسنة.

t.me/qurssan

هتف بعصبية: ما معنى هذا الكلام؟

ـ عامان، ثلاثة، الله أعلم.

ـ كيف؟ كيف؟!

كرّرها يوسف غاضبًا ثم ترك الرجل وهو يضرب كفًّا بكفٍّ وأخذ يتمتم: ما الحكمة في تلك الورطة؟

عاد إلى القاهرة ثم توجّه إلى شقة المقطم في السادسة مساءً، جلس أمام توبة ينظر إليها في شوق. لَكَمْ يحبّها ويتمنى البقاء هكذا أمامها إلى آخر العمر.

قالت في عتاب خفيف: أين كنت يا يوسف؟

ـ بعض الأعمال.

ـ أراك مهمومًا.

ابتسمَتْ ثم أضافت: ولا تسألني كيف.

قال على الفور: لا أبدًا.

قالت بعد تفكير: يوسف، هل تشعر أنك متورِّط فيَّ؟

السؤال له مغزى وأبعاد أخرى في ذهن توبة، لكنه متورِّط فيها بالفعل، حياته، آخرته، عاطفته، كيف يكون التورط إذًا إن لم يكن متورطًا؟ قال: لا تتفوّهي بهذا السؤال مرة أخرى، أنا أُحِبُّك.

قالت في حيرة: ربما قلتُها فقط بسبب اختفائك عدة أيام بشكل مفاجئ.

t.me/qurssan

ثم آثرتْ عدم الخوض في أحداث قد تضايقها فأردفت: تشرب شايًا؟

قامت تتحسَّس طريقها قبل أن يردّ وعادت إليه بعد دقائق حاملة صينية عليها كوبان من المشروب الساخن. رشف رشفتين وقال: سنسافر إلى الإسكندرية غدًا.

أسندت ذقنها على قبضتها وسألته: لماذا؟

رشف رشفة أخرى وقال بلهجة جافة: سنقدِّم أوراقك لدار المكفوفات هناك، والله المستعان.

قالت بغيظ: أنا لا أفهم سِرَّ اهتمامك بإدخالي تلك الدور! لا أريد تجهيزات أو تجديدًا أو حتى حفل زفاف، إن كنت لا تريد إبقائي مع خديجة، وهذا حقك، فاتركني هنا ولنتزوَّج فورًا. إن كنت تريد التخلي عن حُبِّنا، وهذا حقك أيضًا، فقُل الآن أو حتى قل ما تريده لخديجة وهي ستخبرني.

قام واقترب منها ثم أمسك رأسها وقبَّلها قائلًا: ألم تُطلِقي عليَّ ملاكك الحارس منذ أيام؟ أنا رجل غيور، وفي نفس الوقت أريدك أن تكتسبي بعض الخبرات للمساعدة ليس إلا. حكيتِ لي عن حياتك السابقة، فلِمَ لا تمارسين حياتك بشكل طبيعيّ؟ حتى عيناك، سنذهب لعرضك على أطبّاء متخصصين.

ـ هل تعايرني يا يوسف؟

ربت على كتفها برفق قائلًا: مَن يحبّ لا يعاير.

t.me/qurssan

تبدّلت ملامحها إلى الفرحة وقالت: طيِّب، اشرب الشاي.

ـ سأشربه في المقهى. نحتاج إلى كثير من المال في هذه الفترة.

لم يخبرها بالطبع بنيّته وداع لبلب وصاحب المقهى.

لو أنعم الله على تلك الفتاة برجوع البصر إلى ثوانٍ لأيقنت أنه مخادع، كانت سترى الغصة في صدره مجسمة كأنها ورم خبيث يصدع خلاياه.

قد تنخدع كل الحواسّ، لكن عين المحبّ دومًا كاشفة.

***

الثامنة مساءً..

حجرتا النوم بفيلا المقطم كانتا أقرب إلى مقبرتين، هدوء غريب داخل الفيلا أربك سلمان العبيدي عند زيارته تلك المرة، وضع المأكولات المجففة والمشروبات بالثلاجة ثم نادى الشقيقين لتناوُل وجبة ساخنة فلم يردّ أحد. أحيانًا كان الظني يشاركه الطعام، لكن الغضبان لم يفعلها قط. بعد أن اطمأنّ إلى وجود كل منهما بغرفته وتناول طعامه وحيدًا، ترك كلًّا منهما شاردًا في دنياه.. الظني كانت نظرته حماسية للمستقبل، السفر والمال، البداية الجديدة تعني أملًا جديدًا بكل تأكيد، الشاب كان فرحًا، صار أكثر نحولًا وطال شعره وأظافره، وعيناه كانتا بلون الدم أغلب الوقت، لكنه كان فرحًا، كان يقضي أغلب وقته في مشاهدة التلفاز، فقط حين

يسمع أي ضوضاء بالخارج كان يهبّ من رقدته ويتلصص كالأفاعي بجوار النافذة ليطمئنّ أن الشرطة ليست بالجوار. الأيام ثقيلة لكنه كان فرحًا، لم يعُد يجالس أخاه أو يتكلم من الأساس بعد أن كان فمه يصدح بالسباب طَوال الوقت، الصمت يقتله لكنه كان فرحًا

أما الغضبان فكان مثقلًا بالهموم التي جعلته مائلًا إلى النوم أغلب الوقت، ذلك العضو غير الماديّ والمسمى بالضمير جعله رافضًا للحياة، لو وجد يومًا أسلحة الشرطة مصوبة إليه عند الاستيقاظ لم يكن لينزعج. كان يفكر في تلك الجثة التي خلّفها وراءه، هناك أسرة سعودية حزينة الآن تلعنه، مشهد شقيقته توبة وهي واقفة تهتف خلف سيارة الظني محاوِلة الاستنجاد به يأتي إليه في كوابيسه، مشهد عزاء والده، مصير والدته المجهول، لقاؤه الأخير بخديجة. خرجت منه تنهيدة حارقة وهو يئنّ، ثم قال لنفسه: آه يا خديجة، كيف تعلّمت منك كل شيء في ليلة واحدة؟ كيف تقتلين كل الشرور بتلك الابتسامة الهادئة؟ كيف أنساكِ وقلبي يحدثني أنك الحق وباقي الجسد هو الباطل؟

ارتمى على الفراش في وضع الجنين ثم شعر بدموع ساخنة تبلل خدّه، قرر أن يقف سيل الدموع هذا وإلا سيموت كمدًا أو سيُصاب بالجفاف، أخرج الورقة المدون عليها رقم هاتف منزلها من بنطاله، والتي لم تفارقه لحظة حتى بعد دخوله السجن، تأمّل الرقم طويلًا، شعر بحبه الشديد لها وتذكّر فضلها عليه.

t.me/qurssan

في التاسعة مساءً خرج متسللًا كي لا يراه الظني، كانت لديه الشجاعة للمواجهة، لكنه كان يعرف أن الخلاف بينهما سيحتدّ بسبب مخاطرته بالخروج من الأساس.

«تلك العواطف لن يفهمها الظني مهما حدث»، قالها لنفسه وهو في الطريق إلى سنترال بالجوار.

أمام موظف السنترال أخرج كل ما معه من نقود، واضعًا إياها أمامه دون عدّ.

- كم مدة؟

- وقت مفتوح.

دخل الكابينة ثم سمع صوت الرجل يهتف: كابينة ٣، ارفع السماعة.

دعا ربه أن يأتي صوت خديجة، فجاءه بالفعل صوتها ناعسًا وهي تقول: ألو، مَن؟

قال في فرح: أنا محمد يا خديجة.

اهتزّ كيانها فجاء صوتها مهزوزًا: مَن المتحدِّث؟

أخذت تكرّرها، ثم قالت مخاطبة إياه بصيغة الأنثى قائلة: أين أنتِ؟

علم أنّ أحدًا بجوارها فقال: بعد منتصف الليل سآتي إليك، انتظريني في شقة الدور الأرضي. اشتقتُ إليك كثيرًا يا خديجة.

t.me/qurssan

ألجمتها جملته الأخيرة فلم تقوَ على النطق لثوانٍ، حتى استعادت توازنها النفسي وقالت وهي تبلع ريقها: حاضر.

أنهى المكالمة وهو ينظر إلى سماعة الهاتف في حُبّ، ثم جلس مثنيًا ركبتيه، مسندًا ظهره إلى جسم الكابينة، وانفجر ضاحكا في رضا تام.

ثلاث ساعات من السعادة المستمرة، أخذ يتجوّل في الشوارع دون هدف، ويضحك للمارة الليليين في بساطة، ابتاع شطائر الفلافل وأكلها في تلذُّذ، بعدها اتجه ناحية المقهى. لم يسمع الغضبان بالطبع عن مقولة الفيلسوف الألماني نيتشه: «كل الأماني العظيمة تولد في أثناء المشي».

نيتشه لم يجلس على مقهى من قبل ممسكًا قصبة النارجيلة ليمتصّ دخان المعسّل، هذه ميزة أن تكون من أهل الشرق. هكذا بدأت الأماني تولد برأسه، إقناع خديجة بالزواج به ومِن ثَمّ السفر إلى أوروبا، إنجاب الأطفال والعمل، الحياة ستستمر لكنها...

ـ نار يا يمني عند الأستاذ.

أخرجه صاحبِ المقهى من أحلامه بعد أن لاحظ توقُّفه عن التدخين، كان موشكًا ـ داخل عقله ـ علَى التنزُّه بصحبة خديجة في أوروبا، فوجد نفسه تهمس له قائلة: حجر آخر لن يضرّ قبل لقاء الحبيب.

ـ اسمك يمني؟

t.me/qurssan

قالها ليوسف بعد أن لفت الأخير نظره بسبب الاسم والهيئة الغريبين.

ـ نعم.

قالها يوسف وهو يبدّل حجر المعسل المحترق بآخر جديد.

ـ هل أنت من اليمن أم الاسم فقط؟

ـ الأصل من اليمن.

ـ ولماذا جئت إلى مصر؟

ـ للعمل.

ـ ألا توجد مقاهٍ باليمن؟

ـ هناك وهنا أرض الله.

في ظروف معقدة تحوّل يوسف اليمني إلى صبي قهوجي، وفي ظروف أكثر تعقيدًا صار بطلًا في نظر شقيق حبيبته، نظر إليه الغضبان في إعجاب حقيقيّ وسأل نفسه: لماذا لا أكون مثل هذا الرجل؟

ـ أنت متعجُب؟

لم تصل صيغة الاستفهام إلى الغضبان فلم يلتفت إلى ما قاله يوسف، وسأله: هل أنت متزوِّج؟

نظر إليه يوسف في دهشة وقال بصوت مبحوح: ليس بعد، لكن على وشك.

ـ مصرية أم ستعود إليها في اليمن؟

ـ مصرية.

قالها ونفخ في الحجر ليزداد توهُّجًا ثم وقف أمام الغضبان في تردُّد كمن يريد إنهاء الحوار، سحب الغضبان نفَسًا عميقًا جعله ينتشي، أشار بإبهامه علامة الرضا وهو يقول باسمًا:

ـ تسلم يدك، ربما من حسن حظي أنني قابلتك، لعلها إشارة.

تغيرت تعبيرات يوسف من نظرة الراحة في البداية إلى نظرة الشرود، حدس الغضبان أن كلماته لامست وترًا حسّاسًا فبادر بملامسة ذلك الوتر مجددًا وقال وهو يتعمد النظر في عيني يوسف: أنت بطل حقيقيّ. قل لي، كيف تقنع خطيبتك مثلًا بالعودة معك إلى اليمن؟ وهل المعيشة كأعزب أفضل في الغربة أم مع زوجتك؟

ـ خطيبتي لها ظروف خاصّة، وحيدة وعمياء، لكن بشكل عام فإنّ السفر لا يؤثر على المشاعـ...

قاطعه الغضبان وهو يكرر: وحيدة وعمياء؟

نظر إليه يوسف في توجُّس، لكنه كان متخذًا القرار بإنهاء بقائه على الأرض، فأومأ برأسه وعاد إلى جملته قائلًا: السفر لا يؤثر على المشاعـ...

فقاطعه الغضبان للمرة الثانية في حماس، مما أثار حفيظة يوسف: وحيدة وعمياء؟!

ثم قام من جلسته ولكز يوسف وهو يسأله: ما اسمها؟

t.me/qurssan

ـ ما بك يا رجل؟

ـ توبة، اسمها توبة، أليس كذلك؟

قالها الغضبان بنبرة أعلى، فوضع يوسف يده على جبهته من فرط المفاجأة، ثم هزّ رأسه بالنفي مجيبًا: لا، لم يسبق لي أن سمعت بهذا الاسم من قبل.

جذبه الغضبان من يده خطوات بسيطة للأمام كي لا يسمعهما أحد، وقال: لا تخَف، لست من المباحث، أريدك فقط أن تبلغها سلامي.

بدأت تروس عقل يوسف في الدوران ثم هتف فجأة: أنت الغضبان إذًا.

قال الغضبان: لم أكن أتوقع أن أعرف شيئًا عنها قبل...

سكت فجأة بعد أن شعر أنه تكلَّم أكثر مما ينبغي، ثم سأل قائلًا: أين هي الآن؟

أجابه يوسف كاذبًا كعادته منذ وصل إلى الأرض: في دار رعاية للمكفوفات، لا تقلق.

ـ أبلغها سلامي يا رجل، وأخبرها بأن شقيقيها بخير وسيعودان إليها قريبًا.

قالها ثم انطلق مبتعدًا ـوهو شاعر برضا الله عنهـ نحو الدويقة.. حيث بيت المحبوب.

***

t.me/qurssan

- فور.. ثري.. تو.. وان.. هوا!!!!!.

- أهلًا بحضراتكم مشاهدينا الكرام في كل مكان وأُولى حلقات البرنامج الخاصّ جدًّا «نجوم في الظلّ». نحن الآن نسطِّر حدثًا هامًّا في تاريخ ماسبيرو، بوجود مثل هذه النوعية من البرامج المميزة بكونها تذاع لكم غير مسجَّلة، إذ استطاعت مصر أن تكون أُولى دول الشرق الأوسط في تنفيذ تقنية البث المباشر كما تشاهدون.. «نجوم في الظل» يجعلكم تقتربون من أشخاص ترونهم في كل مكان من حولكم، هم ليسوا نجوم سينما ولا أبطالًا في الرياضة، لكنهم متفردون بأشياء أخرى سنعرضها لكم الأحد من كل أسبوع، وفي انتظار رسائلكم بدءًا من الغد لتقييم المواهب على ١٨٦ ص.ب مبنى الإذاعة والتلفزيون، كورنيش النيل.. أعزائي المشاهدين، بداخل كل شخص موهبة يجب المحافظة عليها جيدًا، وفي نفس الوقت إمتاع الجماهير بها، شاشة القناة الثانية ستكون منصة لعرض هذه المواهب من اليوم، فلنبدأ مباشرة بموهبة رقيقة جدًّا للآنسة... ستعزف لنا بآلة الفلوت الخشبية و...

كنت مضطربًا بعض الشيء في البداية، لكن بمرور الوقت ومع بدء ظهور المواهب تباعًا تلاشى القلق.

t.me/qurssan

- آخر فقراتنا اليوم أعزائي المشاهدين هي موهبة، أو حالة تستحق أن تتابعوها، لكن قبل ما تبدأ فقرتنا الأخيرة يجب أن نعرفها في جملة قصيرة، وهي: سفر وترحال في أماكن ودول كثيرة، ثم العودة إلى مصرنا الحبيبة مشحونًا بحكايات ومشاهد أقل وصف لها أنها عجيبة.

ثم هتفت بقوة: تفضَّل يا أستاذ علي.

دخل ببطء وجلس أمامي على مقعد الضيف.

قلت حسب ترتيب الأسئلة أمامي: اسم حضرتك؟

- علي منير مظلوم.
- أستاذ علي، حضرتك قلت لنا إن موهبتك، أو بمعنى أدق رصيدك الضخم من الخبرات والمواقف المصورة، نتيجة سفرك حول العالم، وهو ما سيوصلك للفوز بتقييم مشاهدينا إن شاء الله، صحيح؟
- بالفعل.
- عرفنا قبل الحلقة أن القصص كثيرة، لكن أنت اخترت للمشاهدين ثلاثًا منها، تستطيع أن تبدأ. مع العلم أعزائي المشاهدين أن القصص ليها فيديوهات تثبت صحتها، سيتم عرضها عليكم تباعًا بعد كل قصة.
- في الواقع يا سيد سامح أنا لن أقص عليكم سوى واحدة، وهي ليست مدعومة بالفيديو للأسف.

t.me/qurssan

- ...

- ليس هناك سوى حكاية واحدة نعيشها جميعًا، أريد أن أقصّها عليكم باختصار، ألا وهي التوبة.

- «التوبة!».. قلتها في تعجب حقيقي؛ لم يكن هناك أي كلام عن التوبة في أثناء البروفات.

- نعم.. مقابلة الخالق بنفس تائبة يوم الفصل، هذه هي أمنية الجميع بما فيهم أنا.. عندما تخطئ أنت مثلًا، تسرق، تزني، أو حتى تقتل، ثم تتوب فيتوب عليك ربك، بل وأحيانًا يجعلك من أحبائه. لكن ماذا عني أنا؟ أنا علي منير مظلوم، آخر نسل عائلتي وحامل دماء الموحّدين، لماذا لا يتوب الله عليّ؟ لماذا أشقى للأبد ويأتي إلى الأبد بأبدٍ آخر أشدّ قبحًا؟

- عذرًا أستاذ علي، لكن حلقتنا اليو...

قاطعني بطريقة طفولية مستفزة وهي الحديث بصوت عالٍ فجأة قائلًا: منذ فترة عرفت أن أجلي قد اقترب بسبب مرض عضال، مرض الحب، فقررت أن تعرف الناس قصتي وقصة أجدادي حتى لا أرحل وتموت قصتنا بالنسيان كالعادة. منذ زمن سحيق كان جدي الأكبر رجلًا مشهودًا له بالطاعة وحُسن الخُلق، يعلم قَدْر نفسه جيدًا، لكن القدَر وضعه في اختبار من نوع مختلف، فوقع في الخطأ دون عمد، ومن بعدها أصبح ملعونًا مذمومًا من بني جنسه

t.me/qurssan

، حدوًا لكل الخلق. اختيار خاطئ لكنه كلّفنا كثيرًا من الصراعات، ،أورثنا ـنحن أحفاده ـ لعنة بشعة تنضج بداخلنا كلما مرّ عليها الوقت ولا نستطيع الخلاص منها إلا بشيء واحد.

قلت مصطنعًا التجاوب معه: أي لعنة؟ وما هذا الشيء؟

ـ لعنة الشرّ.. نحن يا سيد سامح مأمورون بالشرّ، ويرتبط وجودنا بإيجاده، لا نستطيع العيش في مكان أو زمان إلا بزرعه بين بني آدم، والأدلة على ذلك كثير.

قلت في توتر: آسف لضيفنا الموهوب الأستاذ علي، لكن ،قت البرنامج...

لم ينتظر إتمام جملتي وقال بصوت جهوري يشبه السوبرانو: لا تقاطعني مرة ثانية، فقط دعني أوضح مأساتي لكم قبل فوات الأوان، وأجِب عن هذه الأسئلة وستعرف من نحن.. مَن قتل النبي يوسف؟ مَن أقنع العالَم أن النبي عيسي له مظهر أوروبي رغم ولادته في بيت لحم؟ مَن وسوس لهرتزل الصحفي المغمور بإقامة إسرائيل؟ مَن أقنع الصبي غافريلو باغتيال ولي النمسا لتقوم الحرب؟ مَن صاحب فكرة غزو الكويت الحقيقي؟ مَن ومَن ومَن يا سيد سامح؟ أقول لك الآن أمام الملايين دون خجل.. أجدادي مَن فعلوا هذا، لكن وعزته وجلاله كان ذلك بلا قصد، كانوا يحترقون من نار الظلم بداخلهم فينفثونها دون وعي بين أجدادكم، يريدون التوبة وما من مجيب، يُعلنوها بين الناس أملًا في كلمة حقٍّ عنهم

t.me/qurssan

فيلعب القدَر لعبة النسيان الشهيرة، والآن وقد اقترب الأجل وجب قتل تلك اللعنة بالتوبة للمرة الأخيرة.. في كل عصر كان أجدادي يعلنون فيها التوبة تفور البراكين وتقوم الحروب وتنتشر المجاعات والأوبئة، أتدري لماذا؟ كي ينسى البشر وتستمرّ الخدعة.

قلت دون فَهْم في محاولة أخيرة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه قبل الفضيحة: في الواقع... أستاذ علي، هل يمكن أن تشرح للجمهور قصتك لكن دون مقدمات طويلة لو سمحت، كي لا نخرج عن الموضوع الأساسي؟ لو سمحت.

اعتدل في جلسته وقال بلهجة من يشرح لك درسًا أو يعطيك نصيحة: هذه قصتي وسبب وجودكم، أنتم ترددون دائمًا أنه من دون شرّ لن يكون معنى للخير، أليس كذلك؟ هراء.. من دون شرّ ستعودون للعدم، ستتبخّرون مثل قطرة ماء، لذا يجب أن تتغير نظرتكم لنا، أنا لا أسعى لاحترام متبادَل، لكن لنجعلها صفقة، أترككم لنفوسكم توجُّهكم دون تدخُّل مني، مقابل الشيء الذي سيمنحنا الخلاص.

- وما هو؟

- عدم النسيان لتوبتي الآن مهما حدث.. فقط عدم النسيان.

قالها ثم صوّب نظره ناحية الكاميرا وأكمل حديثه بصوت متهدِّج كحال المعترفين في الكنائس: اليوم أشهدكم أنني لن أبغي

t.me/qurssan

الشرّ بعد الآن، ولن أعود إليه مهما حدث، وكل ما أخشاه أن تنشغلوا عن توبتي بأمر عظيم أو حدث جلل ينسيكم ما يحدث اليوم.. هذا هو رجائي الوحيد، أرجوكم.. تذكّروا ظهوري هذا ولو اشتعلت الأرض غدًا، لقد زُرت الفاتيكان وقابلت الحاخامات واستشرت حتى علماء الأزهر، الكل أجمع على أننا ظلمناكم قبل أن نظلم أنفسنا، واتفقوا على أن إعلان التوبة شَرْطُه الاعتراف بالذنب، وها أنا أُهين نفسي بطلب المغفرة من أعدائي، معترفًا بالخطيئة بعد أن تسرَّب الحبّ إلى قلبي، لكن هل أعداء الأمس سيبخلون عليّ بعدم النسيان؟ أتمنى ألا يبخلوا بذلك.

كان المُخرِج وصل إلى ذروة الانفعال وأخذ يشير بيده إلى مهندس البثّ كي يوقف البثّ، لكن الإرسال استمرّ دون سبب واضح، وساد الهرج والمرج لحظات حتى وجدتُني أقول في محاولة يائسة لإعادة النظام إلى المكان: اهدا يا أستاذ علي، سنساعدك، لكننا نحتاج على الأقل إلى معرفة ماهية تلك اللعنة وسببها كي تكون لهذه المساعدة جدوى.

- أنتم سبب اللعنة.. جدّي كان يخشى مكر الله واختار عدم السجود لغيره، لكنّ الله ضحّى به، اختار جدي التقدّيس المطلق، وأراد الله اختباركم.

قلت في ذهول: جدّك؟! جدّك مَن؟! مَن جدّك هذا؟!

نظر إليّ والدموع في عينيه وقال بحزن لم أرَه من قبلُ في حياتي: هو... هو المظلوم.

قالها وقام من مقعده بهدوء واتجه ناحية باب الخروج في خطوات بطيئة كعادته، ثم التفت بحركة مسرحية مخاطبًا الجميع قائلًا: الحب مثل التوبة، لا يطهّر النفوس، بل يكشفها.

أمّا كل مَن في الاستوديو فكان ينظر إليه في هلع، وفكرة واحدة تسيطر عليهم، بل وتمنعهم من الاقتراب منه.. علي منير مظلوم.. ليس بشريًّا!!

***

ما زلنا يوم الأحد، الحادية عشرة والنصف مساءً..

صدر قرار من رئيس اتحاد الإذاعة والتلفزيون بتوجيه من السيد وزير الإعلام شخصيًّا، وبموافقة اللجنة المشكّلة للبت في هذا الشأن، بالإجماع على البنود الآتية:

أوّلًا: وقف برنامج «نجوم في الظل» بشكل نهائي وبلا رجعة.

كان أسرع قرار يصدر منذ بدء العمل في ماسبيرو على ما أظن.

ثانيًا: نقل المسؤول الأوّل عن سقوط البرنامج، الأستاذ سامح عبده داوود، المذيع بالقناة الثانية التلفزيونية، منتدبًا إلى قسم التطوير بنفس القناة، وكذا نقل مهندس البث إلى إدارة الوحدات الفنية.

t.me/qurssan

ثالثًا: وقف المستحقات المالية لجميع العاملين بالبرنامج احين الانتهاء من التحقيقات.

رابعًا: مخاطبة الصحف القومية بشكل ودّيٍّ لمنع نشر أي أخبار أو تعليقات تخصّ ما حدث.

خامسًا: تحرير محضر بقسم شرطة بولاق أبو العلا لاتهام المدعو علي منير مظلوم بإثارة البلبلة داخل المبنى ومحاولة تكدير السلم العام بعرضه قصصًا كاذبة للمواطنين، مخالفًا ما تم الاتفاق عليه قبل البث.

انتهى القرار..

خرجتُ من ماسبيرو بعد اختفاء هذا الكائن متجهًا إلى بيت والديّ، لم أكن مستعدًّا لرؤية سمية في تلك الحالة رغم إلحاحها عليّ بسرعة العودة. كنت محتاجًا إلى شخص آخر لا يناقشني أو يستفسر عن سبب ما حدث، شخص لا تتغير صورتي أمامه مهما كانت الظروف، الشخص الوحيد القادر على هذا وسيراك ناجحًا حتى بعد فضيحتك على الهواء أمام مصر كلها هو أمّك.

كانت الأفكار تعصف بي طَوال الطريق إلى كفر شكر، أسئلة كثيرة تدور في بالي بلا إجابة أو تفسير، هل الكائن الذي كان يقوم بالبروفات معنا وجلس بجواري منذ قليل.. شيطان؟! هل الشيطان قرر أن يتوب هكذا بكل بساطة، وبعد أن قرّر التوبة اختار برنامجي أنا بالذات ليعلن به ذلك؟! هل هو أحد زملائي مثلًا وقرر العبث

t.me/qurssan

معي أو الكيد لي؟ ثم كيف اختفى رغم إغلاق المبنى بإحكام؟ لماذا كان مصرًّا على عدم نسياننا له؟ هل العالَم أصبح خاليًا من وسوسة الشياطين حقًّا؟ توقعت أن تستمر الوسوسة، حتى لو كان علي منير مظلوم شيطانًا لكنه لم يكن إبليس بالطبع، لم تصل شهرة برنامجي إلى برنامج «أوبرا».

ضحكت عُلا لهذه المزحة حتى دمعت عيناها، لكن دموعها لم تتوقف، حاولت مداراتها ثم استسلمت في النهاية، ارتمت في أحضاني وأطلقت لدموعها العنان، مثلما فعلتُ أمام والدتي منذ سنوات.

بعد أن هدأت تمامًا قلت لها وهي تصبّ لي كأسًا رابعًا أو خامسًا: عدت إلى شقتي فوجدت سمية تشاهد التلفاز.. أعتقد أنها ظلَّت على وضعها أمام الشاشة هكذا من وقت عرض الحلقة المشؤومة. ما إن رأتني حتى مارست دورها المعتاد في تهدئتي لكنها لم تفلح تلك المرة، لم أكن في حالة ثورة أو غضب أو حتى ضيق طبيعي من ضغط العمل، هذه المرة كانت نكسة من كل الجوانب، شعور بالفشل ورغبة ملحّة في البكاء بعد ضياع كل شيء، الشهرة، المجد، الأرض الصلبة التي كنت أقف عليها في العمل صارت هشة لا طائل منها في المستقبل، تظاهرت بالتماسك وابتسمت لها بمعنى «كل شيء سيكون على ما يرام»، ثم جلست أتابع معها الأخبار فزاد الوجع.

t.me/qurssan

نسي الناس ما حدث لي، لم أقابل إنسانًا يذكر الليلة، لدرجة أنني كنت أتشكك أحيانًا في خوضي التجربة من الأساس.. النسيان نعمة تظهر منافعها طَوال الوقت، دون أن نشعر، لو كنت حزينًا فالنسيان دواؤك، ولو فرحت فالنسيان سيُعدّك للبدء في تجهيز فرحة أكبر، النسيان أكبر نعمة للبشر في نظري يا عُلا، لهذا لم يمُنَّ الله عليَّ بها.

ساد الصمت بضع دقائق حتى أنهته عُلا قائلة في حيرة وقد شعرت بتشوُّش أفكارها: هل كان الشيطان حقًّا؟! لاحظ أنني حتى الآن لم أفهم لماذا انفصلتَ عن مدام سمية، لو لم يكن لديك بال رائق أو مزاج للفضفضة فأنا آسفة، خذ راحتك.

قلت بحزم: أولًا أنا الذي اخترت الحكي، ثانيًا لم يعُد هناك الكثير. بعد نقلي إلى قسم التطوير، شهرت أن عَلاقتي بماسبيرو انتهت، لم يعُد لي أكل عيش بهذا المكان، أهملت العمل، أحيانًا كنت أقضي أسبوعًا كاملًا دون خروج من البيت، أعتقد أنها حالة قريبة من الاكتئاب، ولكي أخرج منها كان لا بد من نجاح يعوّض المصائب السابقة، أو طفل ننشغل به وأحس معه بشعور الفرحة. بالطبع لم يكن هناك أي نجاح قريب أو ظاهر حتى لو بعيد، زاد شتاتي وزاد الاكتئاب. أتدرين ما الأسوأ من الفشل يا عُلا؟

سألتني: ما هو؟

t.me/qurssan

- نسيان الفشل، كأنّ ما حدث لم يحدث، الكلّ تعامل معي على أنني نكرة، لم يشعر أحد بمحاولات النجاح ولم يرتقِ فشلي إلى درجة التذكر.

- ألهذه الدرجة؟

- نعم وحياتك. سمية شعرت كذلك أنني أتعمد إهانتها يوميًا، لا أخفي عليك هذا ما كان يحدث بالفعل، لم أكن أطيق النظر إلى وجهها أو حتى سماع صوتها، ربما كان ذلك مِن فِعل الشيطان علي مظلوم، عندما كنت أختلي بذاتي كنت أتخيل إنجاب سمية رغم أن تلك الأحلام لم تكن تشغلني، زادت المشكلات وصار الشجار عادتنا اليومية، فضلًا عن انهيار وضعنا المالي. في ليلة سوداء قررنا الانفصال، لم نخبر أهلنا بشيء، فقط أحضرنا المأذون وانفصلنا في هدوء شديد، كأننا صديقان أنهيا نزهتهما الليلية وعاد كل منهما إلى بيته.

***

فجر الاثنين ١٢ أكتوبر ١٩٩٢

التقى العاشقان مرة أخرى، يبدو أن الحياة تحترم الحبّ أحيانًا..

الثالثة فجرًا أعلنت أنّ سنوات العمر قد تهون أمام حضن الحبيب. وجدت خديجة نفسها بين أحضان الغضبان لمدة تقترب

.. خمس دقائق، الثالثة وخمس دقائق أعلنت أنّ تشابك أيادي المناق أقوى بكثير من اليد المضمومة التي تتخذها الحركات الثورية شعارًا، الثالثة والنصف أعلنت أن نظرات العشاق تعادل جمال التقاء الأكوان، أعينهما كانت نوافذ تطلّ على رُوحَيهما المذبتين، فكشفت كل واحدة منهما شوقها للأخرى. دقائق عديدة أعادت الاتزان إلى كليهما، لم تعُد الفتاة حزينة ولم يعُد الغضبان غضبانًا. الرابعة فجرًا أعلنت بدء النقاش..

- هل قتلت المستثمر السعودي؟
- أقسم أني لم أفعلها، بل لم أكن أعرف من الأساس.
- ما الذي حدث؟
- لقد خدعَنا الظني.

حكى لها ما حدث تفصيلًا فشعرَت بالراحة وقالت في خجل: كنت أعلم أن حبيبي لم يفعلها. وأين الظني الآن؟

- في فيلا قريبة من هنا، يستعدّ للهرب خارج مصر.

هتفت في جزع: وأنت؟

- جئت أودّعك أو أطلب منك المجيء معي.
- أنت تهزّج، لن أترك أهلي وبلدي وأهرب يا محمد، عليك أن تُثبِت براءتك.

t.me/qurssan

حاول الغضبان تأخير النقاش بعض الوقت فغيَّر الحديث قائلًا: عرفت أنَ توبة بخير، في دار رعاية للمكفوفات هنا بالقاهرة

ارتفع حاجباها في دهشة وتساءلت: كيف عرفت؟ هل قابلت يوسف؟

- أنت تعرفينه إذًا.

- الموضوع حدث صدفة. لا تخف، لقد وقف معها في الوقت الذي هربتَ...

توقفت برهة ثم أكملت قائلة: لا عليك، هذا ليس وقت اللوم بالتأكيد.

أطرق برأسه في خجل، فقالت وهي تضع يدًا على كتفه في حنان: اهدأ يا غضبان، لم أقصد مضايقتك، ربما من حبي لتوبة.. ولك.

سكتت برهة ثم قالت في خيبة أمل: هل السفر هو قرارك النهائي؟

نظر إليها في خيبة وهو يسألها: وهل هناك بديل سوى السجن؟

هتفت في حماس مشوب بالمرارة: سأنتظرك.

- يوم السجن بألف عام يا خديجة.

- والغربة سجن.

- السجن معك جنة.

ـ لن أُلحِق العار بأهلي يا محمد، هل أنا رخيصة في نظرك إلى هذا الحد؟

ـ أنا أحبك يا خديجة، لكن عقلي مشوش، سامحيني.

عاد إلى الصمت حتى قالت بحرقة: سأبيع كل شيء وأوفر لك أشطر محامي البلد. ما زلنا صغيرين يا حبيبي، سنة، خمس أو حتى عشر، لن أكون لأحد غيرك، فقط ابتعد عن الظني، حتى السفر معه سينتهي بكارثة. لو جئت بصبيّ في الصف الأول لقال لك نفس الكلام.

تنهّد الغضبان في نفاد صبر قائلًا: سأفكّر.

ابتسمت أخيرًا وقالت وهي تتخلل شعرها بأظافرها: ستوافق، لن آتي بصبيّ في الصف الأول غيرك.

ثم استطردت في دلال: هل اشتقت إلى معلِّمتك؟

الخامسة فجرًا بدأ الطالب محمد معوض السنيورا مراجعة ما تعلَّمه، لو قلنا إن لذّة تعلُّم مبادئ اللغة العربية قاربت النشوة الجنسية فما كذبنا، الفتاة بذلت مجهودًا خرافيًّا على مدار ثلاث ساعات متواصلة، كأنها كانت تؤهِّله للالتحاق بالجامعة، ولِمَ لا؟ أليس بعد الاكتئاب والوحشة يأتي أمل وسعادة؟ هكذا الحياة، أما هو فكان متفهِّمًا لأقصى درجة، العلم كان يجعله أكثر طيبة وعقلانية. قال لاهثًا وقد بدا منهكًا: فلْنسترِح قليلًا.

فرَدَا جسدَيهما على السرير وكل منهما يتأمّل ملامح الآخر في حُبّ، الثامنة والنصف صباحًا أعلنت أنّ النوم مهما غلب العشاق، تبقى قلوبهم يقظة.

في الواحدة ظهرًا استيقظا على صوت دقات عنيفة، خديجة كانت أوّل مَن فَهِم، شقيقها كان واقفًا بالخارج كي يطمئنّ عليها لأنه سندها كما تعلمون. في لحظات كانت تقف خلف الباب مباشرة وتهتف بصوت عالٍ:

ـ اتركوني وحدي، عندما أهدأ سأصعد.

ظلَّ أخوها يبرطم بكلمات لم تميزها حتى خفت صوته تدريجيًا. أشارت للغضبان بالصمت والبقاء في مكانه، ثم خرجت من الشقة متسللة في سرعة.. في الثانية ظهرًا عادت إليه حاملة بعض شطائر الجبن والفول المدمّس.

قالت: الحمد الله، لم يلحظوا شيئًا غريبًا، تعللتُ بحالتي النفسية المضطربة منذ حبسي.

كان يفكِّر في كيفية الخروج والسير هكذا في عزّ النهار، شعرَت بتوتره فطمأنته قائلة: الله هو الحارس يا حبيبي.

الثالثة عصرًا أعلنت أنّ وقت الرحيل قد حان، ندم كل منهما على ضياع الوقت في النوم، لكنهما طرِدا ذلك الشعور بسرعة.. هكذا هو الحبّ، يرتبط دائمًا بالشيء ونقيضه مهما فعل الأحبّة، الندم على سنوات العمر الفائتة من دون الحبيب، على عدم

t.me/qurssan

الانصهار بداخله، أو حتى على أي عَلاقة عابرة في وجوده، ثم حطم الندم دائمًا على صخرة اليقين، اليقين بالمستقبل المشرق، اليقين بتوبة شياطين الفراق، وإبطال نفثة سُمّ الظروف.

نهضا في تردُّد ومشيا في تؤدة حتى باب الغرفة، توقّف الغضبان ليلقي نظرة أخيرة على الورقة والقلم، ثم غادرا الغرفة. قالت خديجة وهي تجذب حبيبها من كمّه: سأوصلك إلى الشارع.

حاول إثناءها لكنها صممت. درجتا السلّم، البوابة، هواء الخريف المنعش، عودة سريعة إلى مدخل البيت، ثم تلاصق صدر العاشقين في ذُعر.. همست خديجة: أنا خائفة يا محمد.

ثم أضافت وهي تدفن رأسها في صدره: هل سأراك ثانية؟

ضمّها بقوة وأومأ برأسه دون أن تراه، ثم أفلتها برفق وسبقها إلى الخارج وهي مسندة رأسها إلى البوابة تتابع خطواته السريعة، والدموع تبلل كل شيء.

الثالثة وعشر دقائق عصرًا أعلنت حدوث زلزال مدوٍّ بقلبَي هذين العاشقين قد يودي بعَلاقتهما كاملة، الثالثة والربع أعلن مؤشر ريختر أن هناك زلزالًا عصف بمصر، شعر به أغلب قاطني الجمهورية، لكن الغريب أنه كان أقلّ قوة وقسوة من سابقه.

***

t.me/qurssan

في صباح ذات اليوم، الاثنين ١٢ أكتوبر، كان يوسف ويصحبته توبة مسافرين إلى الإسكندرية، كما توقعتم تمامًا، لم تكن هناك أماكن شاغرة، قائمة الانتظار كانت طويلة ولا توجد عمياء تنوي الرحيل.

قال مسؤول بالدار: بعد حريق دار المنيل وترميم دار أسيوط صار الضغط علينًا مهولًا.

ـ سأدفع أي مبلغ.

ـ عيب يا أستاذ، هذه دار رعاية للمكفوفات وليست بابًا لحجز المصيف.

هكذا عادا وكلاهما يحمل شعورًا مختلفًا، يوسف أيقن أنَ الأقدار تدفعه دفعًا إلى قتل توبة، أو بالأصح إلى المقامرة، المقامرة الأهمّ في حياته دون شك، مقامرة لن يعرف نتيجتها إلا بعد فوات الأوان.

أما توبة فأخفت سعادتها قدر المستطاع، صحيح أن بعض القلق كان ينتابها عند الوصول إلى نقطة تفكير معينة، لكنها كانت سعيدة؛ لقد أصبح يوسف واقفًا أمام مرآته الآن، إما الزواج بها وتأجيل البحث عن دور المكفوفات الخالية لوقت آخر، وإما مصارحتها برغبته في الهروب، حتى وإن كان الاحتمال الثاني بغيضًا لكنها سترتاح على أي حال. كانت تعرف أن البقاء عند خديجة مهما طال ليس حلًا، وأنها خسرت المال والوظيفة، والأهمّ

t.me/qurssan

أنها تعشقه حتى النخاع، لكنها لم تكن مستعدّة للخداع مرة أخرى من أي شخص، حتى لو كان يوسف.

وصلا إلى المقطم في الثالثة عصرًا، وأنتم تعرفون ما الذي حدث وقتها، الفاجعة التي بقيَت في مخيِّلة المصريين لسنوات طويلة، الجميع صار يعرف معنى تحرُّك الصفائح التكتونية، تنبؤ الحيوانات بالزلزال، إرادة الله في عمارة مصر الجديدة والناجي الوحيد منها، فلا داعي للإطالة إذًا.

هرولت توبة كأنها صارت مبصرة فجأة، وهي تصرخ باسم حبيبها، أما هو فشعر بالخوف، توقع أن يكون الزلزال هو نهايته الكارثية بسبب غضب الخالق عليه، نظر إلى خطيبته في هلع ثم أمسك يدها جارًّا إيَّاها إلى الخارج. بعد دقيقة، كانا يقفان في الشارع يحاولان استيعاب الحدث، وجدا المارّة لا يتحركون والمباني المحيطة يقف سكانها في تجمّعات أمامها. بعض من النسوة كنّ يقفن بملابسهن الخفيفة، ورغم ذلك لم تتحرك أي شهوة بداخل الرجال، كأنها القيامة. أفلتت توبة يدها لشعورها بالاختناق بسبب الزحام، بعد ثوانٍ انزعج من اختفائها فنادى عليها حتى وجدها في وسط تجمّع من النسوة يحاولن مساعدتها، تقدَّم باتجاهها فتبعه شخص لزج كان يقف بجواره ويتحرك كلّما تحرك هو. لم يُعِر الأمر اهتمامًا، كان معتادًا على هؤلاء الفضوليين

الذين يقتحمون خصوصيته مهما كان وضعه. وصل إلى توبة فقالت في هلع وهي موشكة على البكاء: ما الذي حدث؟ هل هي القيامة؟

تنحَّى بها جانبًا وذلك اللزج يتابعهما، ثم قال لها مداعبًا: هل تخشَيْن الموت يا توبة؟

- لم يكن للأمل معنى قبلك، حياتي مهمة الآن بسببك، لهذا أعترف أني صرت أخشى الموت بالفعل.

إجابتها أثَّرت فيه، فكر في كلِّ إنسان قد يسمع هذا الكلام، إن كان من البشر فهناك مرحلة ما يقف بها القدر شاذًا أجزاء أسلحته، تلك المرحلة التي تقف بها شرورك، خيانتك، لامبالاتك، أو حتى قسوتك مع مَن تحبّ مهزومةً، هنا تتمثل أسلحة القدر ثم تبدأ نيران الحرب، آلاف الطلقات التي توقظ فطرتك، تلك الفطرة القابعة داخل ذاتك من قبل أن تأتي حتى طفولتك. هتلر الذي قتل الملايين تزوّج إيفا براون قبل انتحاره بساعات، اختصر انتصارًا مزيفًا، وإصلاحات لمدن هدمت، بل وأرواح فارقت عالمنا، في الزواج بإيفا. لكن يوسف ليس ملاكًا ليكون ضميرًا يمشي على قدمين، وليس نبيًّا ليدفع الله بكبش سمين فداءً له قبل اللحظات الدرامية الأخيرة، ليس بـ...

قطع أفكاره ضحكة مكتومة منها لا تناسب الموقف، فانتبه..

- ما الذي يضحكك هكذا؟ كنت تصرخين كأنك على وشك الولادة منذ قليل.

- صراحةً أشعر بالخجل، لا نجتمع يومين إلا وحاولت السماء قتلي أو قتلنا معًا.

ضحك مجاملة ولم يعلِّق، وجد ذات الرجل يتابعهما بعينيه، فنظر إليه يوسف في ضيق ثم أمسك يد توبة مبتعدًا وهو يهمس لنفسه: لا داعي لتلك النظرة الثاقبة أيها الوغد، تلك الجميلة التي تابعها على وشك الموت محترقة.

***

- هل أختك متزوجة؟

قالها سلمان العبيدي، أو ذلك الفضولي الذي كان يراقب يوسف منذ دقائق. نظر إليه الظني في عدم فهم ثم قال في برود:

- أختي؟ مَن تقصد؟

- توبة، هل هناك غيرها؟ أليست عمياء؟

- بلى، كيف عرفت؟

- أنت حكيت قصتها وقت زيارة السجن الأولى.

نظر إليه الظني في شك، ثم تذكّر زيارته مع المحامي فقال: أين رأيتها؟ هناك آلاف العمياوات في مصر.

نظر إليه سلمان نظرة جانبية وقال بخبث: وأسماؤهُنّ جميعًا «توبة»؟

ردّ الظني في غضب: ولماذا تنظر إليّ هكذا؟ حتى إن تزوجَتْ، فماذا يعني ذلك؟

t.me/qurssan

قال في برود: لا يعني شيئًا.

سكت برهة ثم تساءل: وأين الغضبان؟

- لم أسمع صوته منذ مساء أمس.

- هل شعرت بالزلزال؟

- لا، لكنني فرحت به؛ الحكومة ستبعد عيونها عنا ولو لبعض الوقت.

ضحك سلمان قائلًا: تقريبًا أنت الوحيد الذي فرح بالزلزال.

- دعك من الزلزال الآن وقل لي، هل عرفت عنوانها؟

ردّ سلمان قائلًا في لا مبالاة مفتعلة: عنوان مَن؟

أصدر الظني صوتًا حلقيًا ثم قال في عصبية: توبة يا عم.

- لم أعرفه تحديدًا، كانت تقف بين أعداد كبيرة، لكنني سأعرف وأبلغك

- سأنتظرك.

غادر سلمان الفيلا وبقي الظني يفكر في الانتقام قبل سفره، حالة من الكره الشديد تنتابه كلما سمع اسمها، ربما كان السرّ في الاسم نفسه، ربما هي مشاعر زُرِعَتْ بداخله في الصغر، ربما نظرتها البريئة في أثناء قتله لتوأمتها كانت تعذِّبه، ربما لكونها سبب طرده من العزبة بشكل مهين، لن نعرف أبدًا، نعرف فقط أن الإنسان يسعى طَوال الوقت لتحقيق أحلام طفولته ولو دون قصد، لكن ماذا عن كوابيسها؟ لن نعرف أبدًا.

t.me/qurssan

تناول طعام الغداء وبقي جالسًا أمام التلفاز يتابع أخبار الزلزال، حتى سمع باب الفيلا يُفتح، جحظت عيناه في رعب وهمّ بالاختباء خلف الأريكة، لكنه لمح الغضبان قادمًا..

- أفزعتني.

قالها وهو يلهث، فرمقه الغضبان بنظرة نارية.

سأله الظني: أين كنت؟ ألم يتم التنبيه بعدم الخروج لأي سبب؟

- تلك الأوامر عليك أنت.

زمجر الظني غاضبًا: هل جُننت؟ لماذا تكلَمني بهذه الطريقة؟ وماذا يعني...؟

قطع حديثه فجأة ثم ابتسم بسخرية وقال: أنت كنت عندها، أليس كذلك؟

ثم أردف: هي الوحيدة التي تقلب حالك هكذا.

صاح الغضبان: بل تعدله.

- وماذا تنوي أيها العاشق؟

قال الغضبان في تحدٍّ: لن أسافر.

ردّ الظني بسرعة: على راحتك، لكن نعرف السبب على الأقل.

هدأ صوت الغضبان قليلًا وهو يقول: المسكينة، انهار منزلها وماتت أسرتها بالكامل.

t.me/qurssan

- وهي؟

- كانت معي.

قالها وذهنه يسترجع المشهد القاسي، ثم قال فجأة: سأتزوجها.

سأله الظني: ثم؟

- هل تقصد السجن؟ لم أعد أهابه مهما كان، سأسلِّم نفسي ثم أخرج للعيش كباقي بني آدم، ما رأيك؟

- سأسافر بالطبع، تعرف أنَ الإعدام ينتظرنا.

- ...

فجأة فتح سلمان باب الفيلا فتحرك الظني نحوه، سلَم على الشقيقين ثم انفرد بالظني لدقائق، شعر الغضبان بالتوتر عند رؤية سلمان دون سبب واضح، شيء ما جعله يتوقع كُنه المحادثة بين شقيقه وسلمان، صحيح أنه لم يبُح للظني بشأن مقابلة يوسف، وأخفى المعلومة لنفسه حتى يقضي الله أمرًا، لكن ذلك الإحساس الخفي لم يتركه ولم يستطع تفسيره.

غادر سلمان المكان بعد دقائق تاركًا الشقيقين يتحاشى كل منهما النظر إلى الآخر. قطع الظني الصمت قائلًا: سأخلد إلى النوم.

- وأنا كذلك. غدًا نتحدث.

- اتفقنا.

t.me/qurssan

صعد كلاهما إلى غرفته، لكنّ الغضبان لم يخلع ملابسه، وقف بجوار النافذة منتظرًا خروج شقيقه، كان لديه شعور مبهم بأن الظني ينوي شرًّا، لم يكن ليخطئ تلك اللمعة بعيني شقيقه وقت دخول سلمان، يعرفها جيدًا، ويعرف أنها تخصّ توبة.. الظني لن يخرج من جُحره إلا للقضاء عليها. المسكينة رغم هشاشتها لم تزل صامدة أمام قُبحه، بل إنها على وشك الزواج بشابّ تحبه، هكذا قال لنفسه.

كانت الساعة تقترب من الواحدة صباحًا، حين لمح الظني يخرج متسترًا بالظلام، انطلق على الفور مغادرًا الفيلا ليصبح ـ في خلال ثوانٍ ـ خلف أخيه بعدّة أمتار، يسرع فيسرع، يبطئ فيختبئ لثوانٍ كي لا يلحظه. بعد السير لعشر دقائق، وجد الظني يقترب من إحدى العمارات بشارع جانبيّ، لكن الأخير تراجع بسرعة عندما خرج منها يوسف وتوبة. لم يعرفه يوسف، ولم تَرَه توبة بالطبع، تظاهر بربط حذائه ثم رجع عن طريقه ليتبعهما.

«الأمر يخصّ توبة إذًا كما توقعت»، قالها الغضبان هامسًا.

***

هكذا نرى العاشقين من بعيد يمشيان في تؤدة، كانت توبة ترتدي فستانها الأسود وحذاءها الفضّي والعقد الأبيض بالطبع، كانت تميل أحيانًا لتمسك بذراع يوسف القوية، وأحيانًا أخرى يميل عليها هو بطوله الفارع ليهمس لها بكلام الغزل. من بعيد يراقبهما

t.me/qurssan

الظني ولا ينفكّ عقله عن التخطيط لقتل شقيقته، ومِن خلفهم الغضبان يدقّ قلبه في سرعةٍ خوفًا، فبخلاف أنها شقيقته، كانت هي الشاهد الوحيد الذي يستطيع الجزم بعدم اشتراكه في جريمة القتل. صحيح أن الفرج سيأتي مؤلمًا لكنه شعر بأن النهاية باتت قريبة، وستأتي هناك، أعلى تلك الهضبة التي يصعدها أربعتهم الآن.

قال يوسف بعاطفة حقيقية: لم أحبّ أحدًا قبلك أو بعدك يا توبة.

قالت وهي تمسك بذراعه في قوة: لا أعرف من أين جئت يا يوسف، أعرف جيدًا أنك لست سائق السيارة الكبوت، ربما اختلط عليّ الأمر بسبب تطابق صوتكما، لكن الغريب أنني لم أتذكر اسمه سوى أول من أمس، علي منير مظلوم، وأنت يوسف اليمني، الاسمان غير متشابهين، لكني لا أريد حتى التفكير في كيفية وصولك إلى العزبة وقت الفجر، تلك الليلة، تمنيت أن تكون شخصًا تجمعني به أي ذكرى كي لا يتركني، ولو كان الخوف تملّكني يومها منك لبقيت إلى الأبد نادمة.. ربما تجرحني المعرفة وتشوّه من صورتك في خيالي، لكن تأكّد، إذا عاد إليّ بصري يومًا ما فسيزيد حبي لك مهما كانت هويتك.

تمسَّكت بذراعه أكثر ثم أردفت: أتمنى ألا تضايقك ظنوني، بل أن تفرح بيقيني.

لطيفة أنتِ يا توبة، لطيفة كهدوء ما بعد الضجيج ويجعلنا نسأل: كيف تحمّلناه؟

t.me/qurssan

لم يعلّق..

لطيف أنت يا يوسف، لطيف كهدوء يسبق العاصفة ويجعلنا نتعجب: كيف ضمر لنا كل هذا الضجيج؟

ـ لقد تعبت.

ـ تحمّلي قليلًا، ألا تريدين مشاهدة سكني القديم؟

ـ تعرف أني عمياء.

قاوَم شعور الندم الذي تضخَّم داخله قائلًا: على الأقل شاركيني آخر ليالي العزوبية. هناك أشعر بعصاميتي وكفاحي وهدوء نفسي.

وضع كشافًا كان يحمله بجيب بنطاله الخلفي، ثم بحركة سريعة حملها بين ذراعيه، أطلقت صرخة خفيفة وضحكت من قلبها حتى القهقهة، وأخذت تحرِّك قدميها لأعلى وأسفل بحركة تبادلية وهو يتأمل ملامحها، لم يصدِّق أن تلك الفراشة ستموت بعد قليل، بل تحديدًا ستُقتل، سقطت دمعتان ساخنتان على وجنتيه وانحدرتا حتى شعر بالطعم المالح في فمه، حمد الله أنَ توبة لم تشعر بهما.. رفع رأسه لأعلى فشعر بمدى خِسَّتِه، الجبل كان ينظر إليه في تربُّص، صدى ضحكاتها يتردد ويعود إلى أذنيه كالصراخ، الأرض لا تقدِّر انتماء رُوحه إليها، والسماء تشيح بوجهها وتنتظر نتيجة إيجابية دون الدخول في التفاصيل، أما الشقيقان فكانا مدهوشَيْن مما يحدث، والفضاء الواسع كان على وشك فضح كل شيء.

أشار إلى العشة الصفيح بحركة لا إرادية كأنها تراها وقال في شرود: هنا بدأ كل شيء.

قالت كأنها تتأمل مشهدًا جليًّا بداخلها: هكذا حال الدنيا، من ضعف، إلى قوّة، إلى موت.

تحرّكا بخطوات حثيثة حتى دخلا إلى العشة، ثم أضاء يوسف الكشاف ووضعه جانبًا بإحدى الزوايا، اتخذ قراره بالتوقف عن التفكير واسترجاع أي أحداث ماضية، لن يحنّ، لن يتراجع، لن يرى الأرض مرة أخرى، لم يعُد بينه وبين الأبدال سوى الدعاء، فقط الدعاء، سيعود إليهم بعده ليَفْهَم كلَ شيء.

قال: تنفّسي جيدًا يا حبيبتي، لا يوجد أفضل من هذا المكان النقي.

قالت في براءة: أشعر أن حياتي صار لها ألف معنى الآن.

غمغم: وأنا أيضًا.

ثم أردف في ثبات مفتعَل: سأتلو دعاء قضاء الحاجة على تلك الهضبة المباركة كي يبارك الله لنا في الزواج.

سألته في جدية: هل أردده خلفك؟

هتف بلهجة قاطعة: لا لا، أريد التركيز.

أخرج الورقة التي كتب بها الدعاء يوم لقاء ٣٠٨ وبدأ التلاوة..

t.me/qurssan

قبل ذلك بخمس دقائق تقريبًا، كان الظني ممسكًا بمطواة حادّة كان يخفيها ويهمّ بدخول العشة، هنا ظهر الغضبان من مخبئه خلف صخرة ضخمة، وجرى صوب شقيقه بسرعة، التفت إليه الظني لكن الغضبان عاجله بلكمة قوية في ساعده أسقطت المطواة أرضًا، بعد عديد من اللكمات والركلات وتبادُل النظرات المتوعِّدة، بدا المشهد مهيبًا تحت ضوء القمر والظني يهمس بصوت كالفحيح: ابتعد عن هنا يا غضبان.

هتف شقيقه في تحدٍّ: لن أدَعك تقتلها.

- يمكنني إرغامك على مشاركتي هذا الاحتفال إن أردت.

صاح الغضبان: قتل توبة احتفال؟! لماذا؟! أنت جُننت رسميًّا.

- عندما تشي بنا ثم تهرب مع هذا البغل دون زواج، يجب قتلها.

- لا تلعب على هذا الوتر، لقد قابلته وعرفت أنه خطيبها، ثم إنها لم تقتل، ولم نكن نعرف بنيّتك السوداء من البداية.

أدرك الظني أن حديثه لن يكون مؤثرًا هذه المرة، فحاول التحرك بسرعة لالتقاط المطواة، إلا أن الغضبان كان له بالمرصاد، وثب الأخير بسرعة على ظهر شقيقه وهبط بقبضته بقوة على رأسه،

لكزه الظني بمرفقه بقوة في البطن، ثم التحما في هجمات متتابعة حتى تمكن الغضبان من ركل المطواة بعيدًا، لم يجد الظني ما يفعله بعد أن صار أعزل، صحيح أنه أشرس، إلا أن عيني الغضبان كانتا تحملان الرغبة في إنهاء هذا العدوان بأي شكل، حتى وإن كانت حياته ثمنًا لذلك. هنا قال الظني في غيظ: لنا لقاء آخر في الفيلا يا ابن عبلة.

قالها ثم تحرّك مبتعدًا بخطوات واسعة حانقة حتى اختفى عن النظر تمامًا، أما الغضبان فهوى فوق الرمال وفرد جسده على شكل حرف x ناظرًا إلى السماء، تمثّل له وجه خديجة الصبوح مكان القمر وهي ترفع حاجبيها له في رضا، فقال باكيًا: ثبتني يا رب.

***

صراحةً، سيكولوجية القتل يصعُب فَهْمُها، أو فَهْم ما يدور في ذهن القاتل، لأن ذلك سِرٌّ لا يُفشيه أبدًا، لكن غالبًا ما تكون مشاعره مزيجًا من النشوة والنصر والذهول من وجود تلك الطاقة العنيفة بداخله، لن تقتل أحدًا إلا بغرض التخلُّص من عائق، أو بعد انفعال شديد، أو نصر لدينك، أما حالتنا تلك فلم تنطبق عليها أيٌّ مِن تلك الخصائص.

يبدو أن الدموع لن تنتهي تلك الليلة..

غمرت العاطفة توبة في أثناء تلاوة يوسف للدعاء، فاستغفرت ربها سرًا، لم تعرف به من قبل لكنها شعرت بذرّات جسدها تهدأ،

وهاجمتها رغبة مُلِحّة في البكاء. قالت هامسة كي لا تشتت تركيزه: اللهم لا تؤاخذني بما فعلت.

أمّا يوسف فقد انهمر في البكاء لكنه لم يتوقف، بل رفع صوته أكثر وهو يتحاشى النظر إلى حبيبته، شعر بها تمسك كمّه لكنه أكمل..

«يوسف».. قالتها توبة قبل أن تتعلّق بقميصه من أسفل ثم تتهاوى في سلاسة وهي تهمس: ربّاه، إنك جميل.

وجدها مستقرّة عند قدميه، هنا توقّف وقد شعر بالقلق، عدل جسدها ورفع رأسها بيد واحدة عن الأرض قليلًا ليرى وجهها بوضوح، ثم صاح في جذع: توبة! هل أصابك مكروه؟! حبيبتي! لِمَ لا تردّين عليّ؟!

وضع خدّه على صدرها فلم يجد نبضًا، حرّك أصابعه أمام فتحتَي أنفها فلم يحسّ بزفيرها، شعر بالخوف لدرجة أنّ رأسه كاد يغزوها الشيب، تحدّث إليها مع حركة متعجّلة قائلًا: توبة، قولي إنك فقدت الوعي، لا تخافي مني، لم أكن لأوذيك، لا تتركيني هنا أرجوكِ.

أمسك يدها ثم شبّك أصابعه بأصابعها وتهدّج صوته وهو يقول: كان بيننا لقاء مرتب في الجنة، كنت سأشرح لك كل شيء هناك، صدّقيني، لم أسعَ لقتلك يومًا، بل كان قدَرًا مكتوبًا.

أمسك بالورقة وأخذ يتلو الدعاء للمرة الثانية ولكن بصوت مبحوح، وبعد الانتهاء لم يحدث شيء. أخذ يردد في هستيريا: القدَر، القدَر، القدَر، الآن فهمت.

رفع رأسه إلى السماء وهو يبكي: هل حكمت بفشلي؟ بسجني هنا؟ ما الذي فعلتُه كي تكون قاسيًا معي هكذا؟ لماذا لم تغفر لي زلّتي وزلتي كانت الحب الذي جبلتنا عليه؟ كيف لمخلوق أن يترك مخلوقًا ليموت؟ أما أنت فتركتها تموت قبل ثوانٍ من النجاح، أنت لم تُمِتْها، بل قتلتني يا رب، حكمت عليَّ بالسجن هنا ليوم لا يعلمه إلا أنت، سجن بلا رفاق، بلا حب، بلا رحمة، وبلا توبة.

سقط على ركبتيه بجوارها ودفن رأسه بين ضلوعها باكيًا لدقائق..

كان يتعجّب من إقدام البشر على خطوة الانتحار في ما مضى، تلك الخطوة الجريئة وصارخة العداوة مع الله. الغريب أنه شعر أن الانتحار لم يعُد مستساغًا، لا لجرأته، إنما لتفاهته كعقاب للنفس.

وجد نفسه يتحسس عنق توبة حتى أمسك بالعقد، فك الدبوس من حلقته الأخيرة ثم صوّبه ناحية عينه اليمنى وغرزه بداخلها بقوة، عضّ شفتيه من الألم وخرجت منه صرخة قوية رغمًا عنه حتى شعر بانطفاء نورها، نزفت الدماء في غزارة وبللت محجره الأيمن كالشلال، لكنه أكمل دون لحظة تردُّد.. العين اليسرى نالت

t.me/qurssan

.صبيها هي الأخرى، هنا أظلمت الدنيا تمامًا، وصرخ صرخة ارتجّ
اها جبل المقطم، ثم...
ثم فقدَ الوعي.

***

- هل تخشين الموت يا توبة؟
- لم يكن للأمل معنى قبلك، حياتي مهمة الآن بسببك، لهذا أعترف أني صرت أخشى الموت بالفعل.

***

بعدما فرد الغضبان جسده على الرمال، لم يفكر في التلصص على شقيقته وخطيبها، رغم أنه لم يكن من هذا النوع الخلوق، إلا أنه قارن بين مشاعر خديجة ومشاعر شقيقته تجاه حبيبها فلم يجد فارقًا، لم يكن ليفرح إن اقتحم أحدهم خلوته مع حبيبة العمر.. قال لنفسه: ثم إنها خطيبته، فلأسترِح بعض الوقت حتى يخرجا.

فجأة سمع صرخة ذكورية شديدة فانتفض، تلتها واحدة أعلى فأسرع ناحية العشة، لم يكن هناك مجال لآداب دخول المنازل وقتها، فتح الباب بقدميه فارتعد من المنظر، وجد شقيقته ملقاة على ظهرها لا تنطق، ويوسف بجوارها لا يتحرك والدماء تسيل من وجهه وتغرق المنطقة الفاصلة بينهما، دخل وهو يترنح كأنّ ثيابه صارت أوسع، وأمسك برأس يوسف فشاهد منظر عينيه، وضع يده على فمه بحركة سريعة كي يكتم صرخة كادت تخرج.. أخذ يفكر،

t.me/qurssan

ما الذي حدث؟ لو كان قد وجد آثارًا لخدوش علي وجه توبة أو تمزُّق بملابسها لقال إنها كانت تدافع عن شرفها، لكنّ هيئتها كانت تدل على أنها سقطت دون تمهيد، وحتى إن كانت هناك محاولة للتحرُّش، فلماذا لم يسمع صراخها من البداية؟ ومنذ متى كانت العمياء تخزق أعين المتحرشين؟

فكّ زرّين من ياقة قميص يوسف في محاولة بائسة لفهم ما حدث، لم يجد شيئًا غريبًا، لم يضربه لصّ أو يهاجمه حيوان مفترس، تأكد أنه لم يزل يتنفّس، كان فاقدًا للوعي، حرّك توبة، لا شيء البتة، لقد ماتت شقيقته، نظرة الموت لن يتوه عنها أبدًا، فكر في طلب الشرطة لكن الأمر كان مستبعدًا تمامًا. الإسعاف، لِمَ لا؟ سيطلب سيارة الإسعاف ويصف لهم المكان بدقة ثم يعود لمعرفة مصيره مع الظني..

عدّل من وضع يوسف استعدادًا لمغادرة العشة فتحرك الكشاف. مهلًا، كانت هناك ورقة في إحدى الزوايا، أمسك الكشاف وصوّبه ناحية الورقة وبدأ يقرأ، القراءة جعلته يتذكّرها، خديجة، معلّمته الحبيبة التي يفتقدها.. التعتعة كانت تطربه، الدليل الأعظم على نجاح عَلاقته بها، والأثر الباقي على شفتيه منها لآخر العمر، كان يرتعد دون سبب، لكن اللذة كانت تدفعه للاستمرار، الدعاء ـ رغم غرابته ـ كان يريح قلبه ويهدئ من روعه، شعر بحالة من الصفاء النفسيّ ذكّرته بأوقات تدخين الحشيش، الهموم الكثيفة كانت تتلاشى داخل عقله، المشكلات تختفي،

الحب يتجسد، رُوحه تسمو، الكون بأكمله أصبح راضيًا عن نفسه. انتهى من قراءة السطور المتربة ودوِّي الانفجار.. ليلة قاسية مرّت على تلك العشة الصغيرة المصنوعة من الصاج، ليلة مريرة خلّفت وراءها جثة هامدة، عاهة مستديمة، بعض الملابس التي تخصّ الغضبان و... ورقة مترِبة مدوَّنًا عليها دعاء الانتقال إلى عالَم آخر، عالَم الأبدال.

***

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ: إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاءِ..
الحلّاج.

***

الثلاثاء ١٣ أكتوبر ١٩٩٢، الرابعة عصرًا

أين اختفى علي منير مظلوم؟

للإجابة عن هذا السؤال يجب أن نعود بالزمن إلى الوراء كثيرًا.. نحن لا نعلم شيئًا عن علي منير مظلوم، قبيلته، طفولته، شبابه، ماذا يأكل، ماذا يفعل طيلة يومه، الذي نعلمه عنه هو أنه عبد من عباد الله لكنه عبد فاسد ومفسِد، وكذا آخر مهامُّه توبة معوض السنيورا، صار قرينًا ملازمًا لحياتها وصوتًا خفيًّا تجده في روعها، يزيِّن لها المعصية ويبرِّر لها الخطيئة ويدفعها إلى الشرّ.

بعد أن اختفى من الاستوديو بعدة ليال، عاد للظهور مرة أخرى في شوارع القاهرة، كان يفكّر في كل شيء يخصّ حياته،

كيف عاشها مفسدًا؟ لماذا لم يحبَ أحدهم من قبل؟ تذكَر حين جلس أمام صينية البسبوسة وابتعد مفتعلًا التبوُّل كي يغوي الطفلة توبة بالسرقة، قلة حيلتها وعيشها وسط بيئة لا تفهم شيئًا من ألاعيبها لم تكن لها أي سطوة على قلبه، هل كانت تلك حياة؟ حين وضع طرطورًا وسرح بصندوق خشبي تبرز منه قوالب الثلج، مفتعلًا عَلاقة مع زوجة أبيها ليغوي المراهقة توبة بممارسة الجنس، هل كانت تلك حياة؟ حين قاد السيارة الكبّوت خصيصًا كي يوصل الشابة توبة إلى قرية يفطر شبابها بنبات البانجو بدلًا من الفول، هل كانت تلك حياة؟ لم تكن حياة أبدًا.. تذكَر كيف انتصرت العاطفة على الغرور بداخله ولم يعُد البشر حُقَراء كسابق عهدهم.

الأمر يشبه السيرك تمامًا، كأنَ جدَك افترسه أسد منذ زمن وأنت مستمرَ في ضرب أشباله بالسوط، ثم نظرَتْ إليك شبلة في ضعف وكأنّ ذلك يحدث لأول مرة.. الحبّ، السرّ الأعظم، تلك الكلمة القصيرة التي يبحث عن معناها الفلاسفة منذ الأزل، من خلال مراقبته على مدى عشرات السنين للبشر، اكتشف أن الحبّ شعور بانٍ وهادم، مُهلِك ومُحْيِي، قويّ ومتسلِّل، لا يحدث إلا بين طرفين سويين، لا يهمّ العمر ولا اللون ولا العقيدة، المهمّ أن تكون العقول والأجساد سوية. كيف لمريض العقل أو الجسد أن يحبّ؟ قد تتشكَل الصورة في خيال أحد الطرفين وتتزين بثوب الحبّ، وقتها يكون واهمًا، وليعلم أن شريكه لا يهتمّ البتة بتلك الصورة، كان يضحك كثيرًا لتلك الأكاذيب المسماة بالحب، يرى الأغلبية

وقد غلبتهم شهوة الجنس، لذة الشفقة على الآخرين، الاحتياج إلى المال أو «أي شيء» مادي، فانتفت عنهم صفة الحبيب. القليل فقط والذين بَرئُوا من الـ«أي شيء» صاروا عشاقًا حقيقيين، أمّا هو، علي منير مظلوم، فكان الـ«أي شيء» متجسِّدًا. لله حِكمة في ندرة الحب وانتشار الـ«أي شيء»، ربما كانت في دفع الناس بعضهم بعضًا لصُنع الحدث..

نعود إلى عليٍ، الذي كان يطوف مشارق القاهرة ومغاربها باحثًا عن توبة، تذكّر واقعة تحرُّش سامح داوود بتوبة منذ سنوات فابتسم، يومها اكتشف أنّ جميع الكائنات ستتعرض للاختبار مِن قِبل الربّ، وأنّ الحب جريء لدرجة أن هاجمه هو نفسه، هاجم الـ«أي شيء»، وقتها ارتكب جُرمًا في عُرف قبيلته وأنقذها متخفيًا في صورة رجل مريض بالانزلاق الغضروفي ونبّه شقيقَيْها إلى ما يحدث.

بعد أن اطمأنّ على عملها الجديد بالمصنع وابتعادها عن شرور شقيقَيها، قرّر نسيان أمرها ولو لشهور قليلة، كان رافضًا فكرة الغيرة، واعتبر تدخُّله في مشهد التحرش خللًا بسيطًا بمعتقداته، سيعالجه بمرور الوقت.. لكن الأمور لا تسير كما نريد، وإلا ما سُمي الاختبار اختبارًا. هناك قبيلة كانت تراقبه، ولن تسمح بتكرار تلك الذكرى المخجلة، وبما أن الاختبار التالي للتجربة الفاشلة هو معيار التعافي، فقد جاءه الاختبار سريعًا من جدّه الأكبر نفسه، وسوس له بأنّ توبة سيُعميها القدَر قبل الحادث بثوانٍ، لكن كل

شيء كان أسرع من علي، يومها صرخ باسمها في حبّ، في لوعة، في حيرة، ثم عاد إلى نقطة الصفر من جديد.. قرر بعدها ألا يزيد الطين بلّة وانتظر اختبارًا آخر بعد ذلك الفشل، أخذ يراقب توبة من بعيد وهي تتقاذفها المآسي، من العمى إلى التورط بجريمة قتل، ثم دون سابق إنذار جاءه الاختبار الثاني، اختبار يُدعى يوسف، خطر مساوٍ له في القوة استطاع تحريك مشاعر الغالية توبة، لاحظ هو شيئًا مختلفًا في هذا الـ«يوسف»، كان يشبهه كثيرًا، لم يستطع قراءة أفكاره في الأثير، ولم يجد منه أفعالًا شهوانية رغم سهولة ذلك، الكثير من الغموض كان يحيط بالأمر، بعد تفكير طويل وشعور بالغمّ كلما رأى غريمه، أضمر التوبة في نفسه، وجد البرنامج فرصة ذهبية كي يزيح هذا الهمّ من صدره، سيعلن توبته على الملأ، سينتقم من سامح بعد ما فعله مع توبة في الماضي، كانت فرصة شاملة لن تتكرر..

أعلن توبته بالفعل من كل الآثام السابقة، ثم خرج لبدء حياة جديدة بأفكار جديدة مع واحدة من معسكر الأعداء القدامى.

كان يتلفّت حوله طوال الوقت كأنه ينتظر العقاب أو الانتقام، أيهما أقرب، لم يجد أثرًا لتوبة بمنزل يوسف، فعاد للهيام على وجهه مرة أخرى بائسًا وهو يفكر: كيف يتوعد الله قبيلته بالعقاب؟ هل هناك عقاب دون إرادة؟ وهل هناك إرادة دون اختيار؟ لا يوجد بشر بلا خطيئة رغم فطرة الخير بداخلهم، فهل قبيلته بلا عاطفة؟ أم أنهم جُبلوا على الشرّ فقط؟ الكفّتان كانتا أمامه، وقد اختار التوبة

t.me/qurssan

من أجلها، من أجل توبة، أبعْدَ هذا كله تختفي؟! أمَا آنَ لتلك اللعنة أن تنتهي؟ همَس لنفسه وقدماه تقودانه باتجاه المقطم: نهار طويل عليك يا علي، وليل بألف ليل.

كان مدركًا أنه بات ملعونًا وانتهى الأمر، إنه ملعون من يوم ولادته عند الله، وملعون بعد توبته في البرنامج من جدِّه، في الحالتين ملعون. ابتسم عندما تخيَّل جلوس الطرفين معًا لتحديد مصيره النهائي...

قطع تساؤلاته صوت نحيب قادم من رجل يجلس أمام عشة على مرمى بصره، كان المكان خاليًا رغم اصفرار الشمس في السماء، صحيح أنَ المقطم بطبيعته الصحراوية لا تدبّ الحياة فيه ليلًا أو نهارًا، لكن لا أحد يجلس به للانتحاب هكذا. هكذا قال لنفسه.. اقترب فوجده هو، يوسف، اقترب أكثر في ثبات حتى صار على بُعد خطوات منه، ثم تفحَّصه دون كلام.. اتضح له أن عينيه قد زال نورهما، مما منحه هيئة مخيفة بعض الشيء. العدوّ غير المفهوم كان أمامه يبكي عاجزًا، البكاء الشديد أقلقه عندما تذكّر محبوبته، تنحنح علي مرتين، لكن يوسف استمر في نحيبه، هنا سأله علي بصوته الرخيم المميز: ما بك يا يوسف؟

رفع يوسف رأسه بسرعة، كان هناك من يعرفه ويسأله عن حاله، تولّدت بذهنه خاطرة بوصول رقم ١ ومعه عفو من الله، فقال بصوت مبحوح ملهوف: مَن؟ مَن أنت؟

t.me/qurssan

قبل أن يعرّفه باسمه، قرر علي أن ينحّي أيّ خلاف جانبًا، بعد التوبة كان مصممًا على ألّا يُقْحِم نفسه في صراعات جديدة، لن يدفع يوسف إلى الانتحار، لن يغويه بعمل أو بمال وفير، لن يشوِّه صورة حبيبته في نظره، لن، ولن. لقد أصبحت التوبة حاجزًا بينه وبين تاريخه المهني الآن.

- علي، علي منير مظلوم.

أطرق يوسف بزأسه إلى أسفل في خيبة أمل وهو يقول بيأس: صديق توبة القديم.

صاح علي معترضًا: بل حبيبها كلَّ الأوقات.

هتف يوسف بحدّة: لم يكن لها حبيب سواي، صارحتني بذلك، وهي صادقة.

قال علي بهدوئه المعتاد وبلغته العربية الفصحى: الآن زادت عاهاتك واحدة، إما في سمعك وإما في لسانك.

لم يحتدّ يوسف أو يدافع عن عَلاقته بتوبة، لكنه شعر بنفور غريب ناحية الزائر الغامض، كان يتوقع من نفسه ردّ فعل أعنف وأكثر شراسة، لكنه اكتفى بسؤال مكرر، لكن تلك المرة بأبعاد مختلفة: مَن أنت يا رجل؟

لم يُعِرْه علي اهتمامًا ودفع باب العشة فخرج صوت حركة الصفيح المميز. لم يجد أحدًا، التفت برأسه بسرعة ناحية يوسف وهو يصيح: أين توبة يا يوسف؟

قالها وهو يضرب رمال المقطم بقدمه في غضب، ثم انقضّ على يوسف بعدها ليكتم أنفاسه بكفه، وقرّب وجهه منه قائلًا في صراخ: أين هي؟ أين هي؟

أبْعَدَ يوسف فمه عن كفّه وقال بصوت مختنق: ماتت، توبة ماتت يا علي. لا أدري كيف حدث ذلك، لكنها إرادة الله.

انهار علي وأغمض عينيه تاركًا جسمه ليسقط على الرمال بجوار يوسف..

صحراء القاهرة وقلاعها المحصنة وقت الغروب كانت تعيش أوقاتًا عصيبة، لو رأينا هذا المشهد بشكل مختلف لقلنا إنهما صديقان يستمتعان بالتخييم في الجبل.

بعد دقائق همس يوسف مؤنبًا نفسه: عاقبتني في نفسي وفي قلبي يا الله، فأيّ فعل يعقب توبتي لترضى؟ رحم الله الأبدال التي فازت برضاك.

هنا صرخ علي وهو يستجمع شتات نفسه قائلًا: الله، الله، مَن فعل بنا هذا سواه؟ الله يرفضنا ولا ينجّي إلا الضعفاء، وكأنّ قوّتنا اختبار فوق الاختبار.

ثم تغيرت نبرة صوته إلى الدهشة وأردف: لحظة! ماذا قلت؟! الأبدال؟!

أنهى سؤاله ثم انفجر ضاحكًا في هستيريا لمدة دقيقتين كاملتين، ثم جذب يوسف لأعلى في عنف، جارًّا إياه، محاولًا

تهشيم رأسه على الصخور وهو يهتف: أنت مِن الأبدال إذًا، يا لي من أحمق.

تملَّص منه يوسف وعاد للجلوس أرضًا بسرعة وهو يحمي وجهه بذراعيه، ثم قال: لو كنت مبصرًا لكنت أوسعتك ضربًا، مَن أنت لتعرف الأبدال أيها الجبان؟

اقترب علي منه وجعل وجهه في مواجهة عينَي يوسف مباشرة، وقال في بطء وبصوت كالفحيح: أنا أصل الأبدال أيها المغفَّل.

ردَّد يوسف في حيرة: أصل الأبدال؟ الأبدال هم الأبدال، مخلوقات عاشت فترات طويلة بلا هُويَة، حتى زارهم رسول من السماء لتكليفهم بمهامّ في الأرض مقابل الاقتراب من الذات الإلهية.

مطَّ علي شفتيه بهدوء قائلًا وهو يتراجع بعض الخطوات إلى الوراء: حتى الآن لم تقُل لي مَن هم الأبدال.

فكَّر يوسف للحظات ثم سأله: بل أجبتُك، ولم يعُد لديَّ ما أقوله. قل لي أنت، كيف عرفت الأبدال؟

بدأ علي التحدث بلهجة استعراضية قائلًا: أسمع عنكم منذ ميلادي، يحذروننا منكم دائمًا. أنتم منَّا يا يوسف، سبعمئة شيطان على مرّ العصور اختاروا التمرّد، أو التوبة كما تسمّونها. فجأة يختفي الواحد منكم بعد إعلان توبته ولا نعلم شيئًا عن مصيره بعد ذلك. احكِ لي، ما الذي تتذكّره عن حياتك السابقة؟ هل تعرف

أنك في الأصل شيطان، مخلوق مِن نار، لك صولات وجولات في العدَاء مع البشر قديمًا؟

سكت قليلًا ثم استطرد: أتعرف يا يوسف؟ نحن الاثنان متشابهان في كل شيء، المهمّة، الحبّ، الاختبار، حتى التوبة. شيء واحد فقط أتعشَّم ألا نختلف فيه، هل تعرف ما هو؟

لم ينتظر الإجابة من يوسف وأكمل: المصير. ما دام الأمر قد انتهى بموت توبة ولم أصِل إلى مُرادي، فالأرجح أن يكون كلام جدّي هو الصواب.

كان حديثه كالخيال، وجملته يتردد صداها عشرات المرات داخل عقل يوسف، فلم يعُد الأخير منتبهًا إلى ما يقوله..

- سبعمئة شيطان تائب.

وقتها أدرك يوسف أنه عاش حياة صاخبة في ما مضي، وحياة مملة بعد توبته في عالَم الأبدال، وحياة تعيسة قادمة هنا.. على الأرض.

***

عزيزي/...

أعلم أنك ستقرأ ما أكتبه الآن، أعلم أنك تعرفني وتعرف عبث الشيطان برأسي، وأعلم أيضًا أنك مَن خَلَقَ هذه الرأس، أفكار مثيرة تُلْهِب حماسي للكتابة لك، أفكار قد تقودني إلى معرفتك أكثر، أسئلة عديدة تراودني وتراود الجميع مثلي لكن لا يجرؤ أحد

t.me/qurssan

على طرحها: مَن أنت حقًا؟ هل يعني لك البشر شيئًا؟ لماذا نعمر هذه الأرض؟ وكيف نكون خلفاءَك وقد أخبرتنا بحتمية دمارها في النهاية؟ هل تفرح حقًّا بتقرُّبنا إليك وتغفر، أم أنك تجهِّز لحفل شواء كبير؟ يقولون إنك رحيم، فهل سترحمني؟

أذكر طفولتي جيدًا، أذكر كيف كانت مُرْهِقة رغم كوني لست عاديًا، ذلك الشعور الذي يلازمني منذ الصغر، أنني لست عاديًا، كيف زُرِعَت الفكرة في رأسي؟ ربما كانت الخلافات المستمرة بينها وبين أبي، وذلك التناقض الرهيب بين شخصيتَيهما قد حفر بداخلي كل ما هو متناقض، الأمّ ذات الطموح المبالَغ فيه مع الأب القنوع، الأمّ التي تحترق من أجل الظهور مع الأب الذي يتحاشاه، الأمّ التي تبحث عن المجد مع الأب الذي يتكاسل عن غسل أسنانه. لن أحكي لك عن الأجداد وأجداد الأجداد، فأنت تعرفهم جيدًا. هناك آلاف الحكايات التي أنتجت زواج أمّي وأبي و... مأساتي. كل هذا جعلني فارس أحلام أمّي، تخبرني أنني سأكون ذا شأن هامّ، وأصدقها، لا أذكر ما الذي كانت تهمس به إليَّ في سنوات عمري الأولى، لكنه ما زال يحركني إلى الآن.. في الصباح كنت طالبًا مهذبًا، في المساء أنا طفل يحرق ورشة جاره. في الصباح أتحرَّش برفيقات الفصل وكأنني صرت مراهقًا، في المساء أنام قرير العين كشابّ يحافظ على صلواته. لم يكن لديّ وقت لممارسة حياة البشر المملة، إما المغامرة وإما النوم كمدًا.

ذات مرة عبثتُ مع إدارة المدرسة، طلبوا مني توقيع وليّ الأمر على ورقةِ إجابتي السيئة، يومها سرقت إحدى أوراق أبي ثم نقلت توقيعه منها إلى ورقتي بواسطة بيضة مسلوقة وبعض الحبر، رأيت تلك الطريقة بأحد الأفلام. في يوم آخر -على النقيض تمامًا- ما زلت أذكره، حين مررت بجوار سيدة تجرّ أسطوانة غاز ولا تقوى على حملها، كانت تُدْعَى الجازية، قالوا إنها غجرية أو هاربة من الإعدام، بينما أكد العقلاء أنها هربت من جحيم ضُرَّتها بعد وفاة ابنتها، لا نعلم. كانت تسكن فوق سطح أحد المنازل المجاورة مقابل خدمة سكّانه، يومها استحضرتُ وجودك أمامي وملأني الإصرار أن تفخر بي. قلت لها بجدّية: ارفعيها على كتفي وسأوصلها لك يا حاجّة.

في براءةٍ احتميت من جحيمك بالأسطوانة، لم يكن بداخلي شكّ -رغم صغر سنّي- أنّ حبّات العرق التي لمعت فوق جبيني هي مُرشدي إلى جنّتك، ملاذي من مكرك. ألست أنت مَن أدخل في نعيمك رجُلًا سقى كلبًا؟ حتى الآن ما زلت أعتقد أنني سأنال مثل حظ هذا الرجل..

الآن يا سيدي، لم أعُد أرى ملامح الطريق أو تلك السيدة، لكن الأسطوانة لم تزَل محمولة على كتفي. فهل لي بالحماية؟

عزيزي، ارتكبتُ كثيرًا من الموبقات عملًا بفلسفة «الانغماس في الرذيلة يزهدك فيها»، وأنت تعلم ما فعلته، وتعلم كُنهه جيدًا، لهذا لن أقف عند هذه النقطة كثيرًا، يكفيني من الألم

ما أعانيه كل يوم. تعلم أنني لستُ من محبّي النساء كما يردّد المقرّبون، كما أنني لستُ مِن هُواة الحشود الغفيرة التي تهتف باسمي كما يظنّ الكثيرون، فقط أردت أن أُشهِدك على حُبّ الخلق لي، جميع الخلق، حتى القطط الأليفة التي أطعمتها العام الماضي سرًّا ستشهد، حتى عُلا، مغامرتي الأخيرة، تلك الفتاة التي كانت تستمع إلى حكاياتي بالخارج، أنت تعرف أنها تحبّني، أظن أنها فتاة صالحة، غير مدركة للفخ الذي سقطت به، لكنه السرّ الذي يجعل الجميع يحبني، هناك شيء ما مُدهِش أملكه، يجعلني أربح العالَم بسرعة جنونية، ورغم ذلك خسرت سمية، لربما كان زيف نفسي، قد يكون السرّ هو أن يظلّ حبي لسمية ـ الجميلة أكثر من اللازم ـ مستمرًّا، وهل هناك عقاب أقسى من فقدان حبيب غادرته طواعية؟ أحيانًا أفكر بأن السرّ هو اختبارك للآخرين بي، فجعلتني شَرَكًا للمؤمنين ومصيدة للمذبذبين وناقوسًا للغافلين، ربما لم أرتقِ لأكون كلمة برواياتك، وكنت صفحة بيضاء يسطرها الملهمون فقط.

سيدي، لقد أسرتْني الآمال لسنوات وسنوات، ورغم أنَّ الأحلام صارت حقائق بعد خسارة سمية، فإنها افتقدَت المتعة وراحة البال. غريب أمر هذا الضمير الذي زرعتَه بنا، ما الذي يوقظه؟ بل بالأحرى ما الذي يحييه بعد موته؟ قُدّر للضمير أن يعمل معي دائمًا بصحوة النهايات وكأن أواني لا يناسبه، الضمير

t.me/qurssan

هو كائن حي له طاقة مثلنا تمامًا، ويبدو أنني أهلكته حتى إنني اسمع أنينه الآن، فهل يُعقل أن يخنقني الأنين ولم يقتلني صاحبه؟

الاختبار كان فوق احتمالي يا الله، أنا أخطأت بالفعل، لكن كيف لي بمقابلة الشيطان وهزيمته؟

لقد حكيت لعُلا ما حدث بيني وبين علي منير مظلوم، لكنني لم أحكِ لها نهاية القصة أو الجزء الأهم، إذ ظهر مرة أخرى بعد طلاقي من سمية مباشرة، بنهاية عام ١٩٩٢ تحديدًا، كنت جالسًا على أحد مقاهي القاهرة، رث الثياب، طويل الشعر، غير حليق، ...سري في جسدي قشعريرة إحباط مستمرة حتى لتراها واضحة بعينَيَ، حدجني باهتمام فقمت من مجلسي وقد تحجَّرَت الكلمات على شفتي..

- اجلس يا سامح.

جلستُ دون تفكير، ثم فكرت أن أصرخ في الجالسين على المقهى: «هذا الرجل الجالس بينكم ما هو إلا شيطان أو ساحر!»، لكنني لم أفعلها.

قال بثقة: لم يعُد لك أحد سواي.

قلت بقلق لم أستطع أن أداريه: مَن أنت؟ ولماذا تظهر لي وتهتم بأمري وتفسد حياتي أنا تحديدًا؟ لا أذكر أنني أخطأت أو ظلمت أحدهم كي ينتهي بي الحال هكذا.

t.me/qurssan

ـ لكنك ظلمت.. مثلي.

نظرتُ إليه بارتياب وقلت: أرجوك أيها المظلوم، اتركني وشأني، لا أريد أن أسمع حكاياتك السخيفة مرة ثانية.

ابتسم قائلًا: هذه المرة أعِدُك بالتغيير للأفضل. برنامجك كان سقطة في حياتي.

ترددتُ قليلًا ثم سألته: ماذا تعني؟

ـ أعني أن حياتك الجديدة ستبدأ من اليوم، الشهرة، المجد، الحياة الرغدة.

سكتَ قليلًا ثم أضاف بلهجةِ مَن يعرف بَوَاطِن الأمور والحسناوات.

قلت بصوت مرتفع قليلًا بعد استنكار: بعد سمية لم يعُد لي مزاج لأي حسناء بسببك.

قال وهو يقوم تأهُّبًا للذهاب: كما تشاء إذًا.

ابتلعتُ ريقي ثم قلت بصوت مبحوح: انتظر يا علي، لا تكن ضيِّق الخُلق هكذا.

كانت هذه الجملة هي بداية سقوطي في الهاوية، استطاع هذا الشيطان امتصاص توتُّري بشكل غريب، وبدأ يطلب مني الذهاب إلى منتجين ومخرجين بأعينهم، تعجَّبتُ في البداية لغرابة الطلب. كيف عرف بأمر هذا الحلم؟ لم أكُن أعرف حتى قدراتي التمثيلية. وقَّعتُ عقودًا لأدوار ثانوية، وأدركت أنه لم يكُن يكذب تلك المرة

t.me/qurssan

..مل. فُتِحَتْ شهيَّتي للرجوع إلى حياتي الطبيعية، وحاولت العودة ل. .مية لكنها رفضت بشكل قاطع، وصل إلى درجة طردي من .ا، والدها.

طلب علي بعدها مقابلتي في المنزل، توترتُ كثيرًا وقتها، ..ي وافقت في النهاية. في الصباح وجدتُه أمامي دون سابق ..ار، ممسكًا بخنجرٍ داخل جراب أنيق، وقال: هل تذكر واقعةً ..دثت لك منذ سنوات عندما ضربك شابٌ يُدعى السيد معوض ..سنبورا؟

قلت بمرح مصطنَع: نعم، واقعة قديمة، كنت شابًا طائشًا ..منها. كانا أخوين على ما أذكر، لكن كيف عرفت بتلك الواقعة؟

ردّ في جدية وبهدوء كعادته: لأنك ستقتل هذا السيّد.

تبادلنا نظرة طويلة ثم سألته: ولماذا؟ لقد تحرشتُ بشقيقته ثم تشاجرنا وانتهى الأمر.

- يا لك من رجل رحيم.
- الأمر ليس له عَلاقة بالرحمة، لكنه لا يستوجب القتل كذلك.
- السيد تاجر سلاح، سيغادر البلاد اليوم على متن سفينة متجهة إلى قبرص، سيتحرك من فيلا بالمقطم إلى الإسكندرية بعد أربع ساعات من الآن، الأفضل لك أن تلحق به وتقتله، سيكون بمفرده، بلا أخ أو صديق

t.me/qurssan

أو حتى سائق، لا شهود، لا عائلة، وستُقيَّد القضية ضد مجهول. صدقني، ستفرح الشرطة كثيرًا بتلك النهاية

- وماذا لو دافع عن نفسه وفرّ هاربًا أو قتلني؟

- عندما تكون أمامه مباشرة أخبره أنك تحمل له خطابًا من أخيه الغضبان، وسينتبه إليك. بعد أن يطلب منك قراءته، فاجِئْه بطعناتك.

وصف لي العنوان تفصيلًا ثم تركني، تركني مشتَّت الخاطر تنهمر فوق رأسي الحيرة من سماء ملبَّدة بالغيوم، سرح بي الخيال إلى عهد الطمأنينة قبل أن يظهر هذا الـ«علي» في حياتي، وتنهدت قبل انتهاء المدة اتخذت قراري وتحركت ناحيه المقطم.. الفيلا كانت من طابقين، تقف أمامها سيارة ماركة مرسيدس، موديل ١٩٩٠، أعرفها جيدًا لأن هذا الموديل كان واحدًا من أمانيَّ في تلك الفترة. كان المكان هادئًا لأقصى درجة، بعد منتصف الليل وجدتُ السيد الظني خارجًا من الفيلا وهو زائغ النظرات، وضع حقيبة ضخمة في السيارة وهو يكثر الالتفات، فتح باب السيارة وجلس على مقعد القيادة، هنا اقتربت ووقفت ملاصقًا لباب السائق وقلت بصوت حاولت أن يكون هادئًا: لديَّ رسالة من أخيك، الغضبان.

- مَن أنت؟

- لا يهمّ مَن أنا، فقط رسول من أخيك.

كان جسده أكثر نحولًا عن المرة الأولى التي قابلته فيها، لكن شراسة عينه لم تتغير.. بلطجي أو تاجر سلاح، سيموت الآن، ولنهنأ النار بعن سنلتهم، هكذا قلت لنفسي.

قال بعصبية: الخط غير واضح.

كان أميًّا، لا يعرف القراءة مثلما قال علي مظلوم. قلت بشهامة كاذبة:

ـ دعني أقرأه عليك.

مددت يدي لأمسك الخطاب ثم أفلتُّه متعمدًا ليسقط بالدواسة، فأحني جذعه كي يلتقطه، فغرزت الخنجر في عنقه من الخلف بقوة وجريت مبتعدًا.

كانت ضربات قلبي تنبح ككلاب المقطم، وشعرت بالاختناق وضيق التنفُّس. التفت مرة واحدة فوجدته يحاول الخروج من السيارة، ونظر إليّ نظرة لم أنسَها حتى الآن، تلك النظرة التي تطاردني كل يوم ولم أستطع البوح بها مطلقًا لأي شخص. بعد أيام عرفتُ أنهم وجدوا جثته، وأُغلِقَت القضية ضد مجهول.

أما عن مقابلتي الأخيرة بعلي منير مظلوم فأنت تعرف عنها كل شيء، كانت قصيرة للغاية، وكان هو سعيدًا للغاية، شعرت لوهلة أن الموضوع شخصيّ، ربما كان القتيل على خلاف معه، لكن مَن هذا الذي سيُعادي شيطانًا وهو مِن المفسدين؟ لم أسمع من قبل عن تاجر سلاح رفض مصاحبة الشيطان. في النهاية

أصرّ علي أنْ يكافئني بعد ما فعلته، طلب مني الذهاب إلى أحد المنتجين المتعثرين، الذي كان على وشك الدخول إلى موسم الصيف السينمائي بأحد الأفلام ضعيفة الميزانية. عرضت عليه العمل دون أجر مقابل بطولة الفيلم، لم يكن لديه ما يخسره فوافق على الفور، السيناريو كان مكتوبًا بطريقة جيدة، وبذلتُ به مجهودًا خرافيًّا فتحوَّل الفيلم إلى أيقونة جماهيرية ملأت مصر صراخًا من المعجبين، وصرت سامح داوود كما يعرفه الجميع الآن.

صراحةً، لم ينجُ مني أحد بعد ذلك، صارت نفسي معبدًا للمقربين ومزارًا للغرباء وعملًا مملًّا لصاحبها، صار الجميع يسأل نفسه كل صباح في تعجُّب عندما يرونني: لما صنعت مخاوفنا هذا السجن؟

عزيزي.. تراني أطلت عليك الحديث، لم يكن له داع لكنني كتبت كلامي هذا لسببين، أولهما الجميلة عُلا، فخطابي هذًا ودفتر الأوراق سيكونان الدليل على براءتها في حالة توجيه أي اتهام إليها بقتلي. أما الثاني فهو أنني أبحث عنك منذ فترة ليست بالقصيرة لكن دون جدوى، كتبت لك كي تذكرني بعفوك بعد أن قررت الانتحار. حينما تدرك معنى اللاجدوى فإنّ الاستمرار يصبح ضربًا من الجنون، ثمة شيء خفيّ يتربص بي ليكدِّر صفوي ويقوِّض بنياني طَوال الوقت، لهذا حان وقت الرحيل، ربما الانتحار هو قمّة تجلّي العقل، وقد يكون فقدان الإحساس برحمة الخالق. عندما ألقي نظرة على ماضيَّ ترتدّ إليَّ بصورة موجزة وصريحة أنني

حسرت. ما يشجعني على الانتحار هو أنني بلا ذرّية، مات والدي، ضاعت مني سمية للأبد، وأخاف أن أقابل علي منير مظلوم مرة أخرى، فأي أمل يمكن أن تجود به عليّ هذه الحياة؟

في العموم، اشتقت إليك كثيرًا وأريد البكاء أمامك حتى لو حكمتَ عليّ بالعقاب، أجد فيك المنجَى والمعتصَم، وربما أجد الجازية واقفة ببابك تطلب منك أن ترحمني.

ملحوظة: أتمنى أن تجيبني على سؤال سأنساه غالبًا عند رؤيتك لكنه باقٍ بأعماقي سنوات عمري السابقة: لماذا خُلِقْنا مِن الأساس؟

عبدك طفولي النيَّات/ سامح داوود.

طبيعة الحرز: أوراق من دفتر خاصّ بالمدعو/ سامح داوود، كُتِبَت بخطِّ اليد.

نوع القضية: لم يتم التوصيف بعد.

رأي الأدلة الجنائية:

أولًا: القضية رقم ٩٤٥ إداري قسم شرطة المعادي لسنة ٢٠٠٨م.

- بعد التأكد من كتابة تلك الأوراق بخط يد المدعو/ سامح عبده داوود، وكذا وجود أثر بصمة الإبهام اليمنى للمذكور على موسى حلاقة ماركة جيليت، قطع حادّ بشرايين المعصم الأيسر نتج عنها بِركة من دماء

t.me/qurssan

المذكور، لهذا نؤكد بطريقة لا تقبل الشك في وجود نية للانتحار لدى المذكور، وبالتالي عدم تورط السيدة/ عُلا خازم عواض بالحادث.

ثانيًا: القضية رقم ١٧ جنايات قسم شرطة المقطم لسنة ١٩٩٣م.

نرى الآتي: تبيَّن كتابة تلك الأوراق بخط يد المدعو/ سامح عبده داوود، لهذا نرجِّح قيام المذكور بقتل المدعو/ السيد معوض الظني الشهير بالظني.

يتم عرض الأوراق على النيابة العامَّة للفصل في إعادة فتح التحقيق بالقضية من عدمه، نظرًا لمرور ستة عشر عامًا على ارتكابها.

***

t.me/qurssan

الفصل الخامس
الحيوات تبدأ بثلاثة دائمًا

أحبّت غجرية فتى جميلًا لكن من غير جنسها، فجفاها. بكت واستعطفت ولم تجِد خلاصًا إلا بعقد اتفاق مع الشيطان، إذ شرط عليها تقديم آلة مصنوعة من أعضاء أسرتها، وبهذه الآلة يمكنها تنفيذ ما تريد. وبعد كثير من المعاناة وافقت، فجعل الشيطان أباها صندوقًا خشبيًّا يردد الصوت، وأمّها قوسًا للعزف، وأخواتها أوتارًا. علّمها عزف الكمان، فجعلت النافر منها يعشقها، ومنذ ذلك الوقت تعلّم الغجر الموسيقى.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

المكان/ عالَم الأبدال- كهف رقم ١.

الزمن/ عام ٢٠٠٨ بتاريخ الأرض.

الحدث: أول زيارة لرسول السماء بعد حرب الأبدال.

نعرف هذا الكائن النوراني ذا الأجنحة الأربعة، الذي لا تستطيع تمييز وجهه، يكفيك إحساس الرهبة والجمال اللذين يعصفان بك عندما تراه. بعد أن ماجت الأرض واهتزت السماء كأنها لوحة ضخمة يمسك بها طفل صغير، ظهر عمود النور المميز لطلّته، قابله رقم ١ بضحكة عريضة تختلط بها الدموع، تبادلا نظرة كالإشارة الغنية بنفسها، وقال الرسول بنبرة الحزم الصادق: الحياة تعيسة عندما تكون وحيدًا.

قال رقم ١ متحمسًا: لكنني لم أتجرّع تعاستها حتى الثمالة، دائمًا كان لديّ أمل في رؤيتك مجددًا.

- كيف الحال؟

- السائل أعلم من المسؤول.

قال الرسول في جدية صارمة: سألتُك فأجِب.

قال رقم ١ متراجعًا: كدت أفقد عقلي، فتات طعام، ذكريات مريعة، والذكر يعيد إلى الثبات.

- الآن حان دورك، ستعبر إلى عالَم الأرض.

قال بدهشة: مهمّة؟!

- نعم.

- كُلّي آذان مصغية.

t.me/qurssan

- ستعبر إلى مصر، منطقة تسمى المقطم.

قطب رقم ١ حاجبيه كأنَّ ذكرى سيئة تمرّ بخاطره، ثم هز رأسه كي يكمل الرسول، فقال الأخير: رقم ٣٠٩ هناك، ستزوره وتطلب منه السفر إلى منطقه تسمى عزبة القرود أو الفجر. هل تذكر ملامحه؟

هتف رقم ١ بسرعة: ملامحنا واحدة تقريبًا.

- لم يعُد كذلك.

- سأصل إليه بإذن الله.

بقي صامتًا بعض الوقت ثم قال في حياء: عذرًا سيدي، فلم... قاطعه الرسول قائلًا: لستُ سيدك.

- عذرًا أيها الرسول، لا يوجد من يذيب جناحيّ.

أمسك الرسول بجناحَيه وبدأ يتلو شيئًا ما ـ كالعادة ـ حتى سقط ليظهر لحم البدل.

- هل تحفظ دعاء النور؟

- عن ظهر قلب.

- هناك أمر أخير قبل الانتقال، لا تخبر رقم ٣٠٩ بما حدث هنا للأبدال.

- أنا مسرور بما سمعت.

- الآن، أنصت إلى ما أقوله جيدًا.

***

t.me/qurssan

فجر السبت، ٦ سبتمبر ٢٠٠٨
هضبة المقطم

سكون الصحراء لا يتغير أبدًا مهما مرّت السنون، الرمال، الكهوف الصغيرة، الحيوانات الضالّة، الأضواء القادمة من بعيد، ربما زادت قليلًا عن ذي قبل، حتى العشة ما زالت كما هي. هل ترون ٣٠٩، أو يوسف اليمني؟ لقد تغيرت ملامحه كثيرًا وأصبح يُلقب بـ«عم يوسف الأعمى». يبدو أنه خضع أخيرًا لقوانين عالَمنا الفيزيائية، أهمّها أنّ الزمن يمضي فلا بد من الشيخوخة في الظهور. أين ذهبت كتلة العضلات والملامح الوسيمة والشعر الأسود الطويل؟ صار هزيلًا يأكل الخبز الجافَ مرة واحدة في اليوم، يرتدي نظارة سوداء، عطَفَ عليه بها أحدهم، كي يخفي شكل عينيه، وغزا الشيب كل رأسه. لم يكن رث الثياب أو طويل الأظافر أو يسيل اللعاب منه، على العكس، كان نظيفًا خجولًا، يقضي أغلب وقته في الذكر، وينتظر أهل المقطم حديثه الغامض عن فتاة تُدعى توبة معوض السنيورا.

لم يكن أحدهم واعيًا لتلك الرموز التي يستخدمها يوسف وهو يتكلم عنها، تلك الإنسية التي قلبت حياته، بل قلبت حياة العشرات في عالَم آخر دون حتى أن يعلم، فقط كانوا يحبونه ويقرؤون الفاتحة لتوبة باعتبارهما «بَركة المقطم».

t.me/qurssan

تلك الليلة وجد رقم ١ نفسه أمام يوسف، نظر حوله في البداية فلم يجد من رآه أو حتى شعر به، على مرمى بصره وجد إضاءة خافتة تخرج من غرفه أقرب إلى الكشك بوسط الصحراء الممتدة، اقترب وهو يتحسس جسده بعد رحلة العبور حتى وصل إلى باب الغرفة، وجد يوسف نائمًا، لكنه عرفه على الفور، حالته كانت أقرب إلى الأبدال قبل الموت، رآها من قبل لكنهم لم يكونوا بهذا الهزال. أيقظه من النوم فانكمش يوسف في ذعر وهتف: مَن؟!

لم ينبس رقم ١ بكلمة، فرجع يسأل: مَن؟ أنا أعمى يا رجل.

ضرب رقم ١ كفًا بكفّ وهو يتمتم: لم أكن أتصوّر. يا للقدر.

قالها باللغة السريانية ففهمها يوسف، فوقف على الفور وانقضّ ناحية الصوت صارخًا: أنت، من أنت؟ ما رقمك؟ انطق أرجوك.

قبض رقم ١ على ذراع زميله بشدة وهو يقول بصوت متهدج: رقم ١، لا تخَف، جئتك ببشرى.

أجهش يوسف في بكاء عنيف كأنه إعصار اجتاح أعصابه، فربت رقم ١ على كتفه محاولًا تهدئته قائلًا: خطؤك فاجع بلا أدنى شك، ولكن سامحك الله، أو هكذا نتعشّم.

صرخ يوسف بصوت كالرعد: سامَحني، سامَحني، هو رحيم وسامَحني.

- اهدأ، اهدأ.

t.me/qurssan

كفّ يوسف عن البكاء ثم فغر فاه في بلاهة، حلّ صمت مربع قطعه يوسف بعد دقائق قائلًا وهو يزدرد ريقه: احكِ لي، كيف حال الأبدال ومَن بقي منهم؟

قال رقم ١ بهدوء وكأنه ينتظر سؤاله: لا تشغل بالك بشيء، العدالة تتحقق رغم كل شيء. لقد جئت في مهمة أولها أن أطمئنك وأن أبلغك بوجهتك الأيام القادمة.

قال يوسف منزعجًا: ألن أرحل معك؟

قال رقم ١ بالهدوء نفسه: لا، ستسافر إلى عزبة تسمى عزبة الغجر، هل تعرفها؟

أومأ يوسف برأسه إيجابًا وقال في قهر شديد: نعم، بلد الغالية توبة، رحمها الله. لكن لماذا؟

ـ لا أعرف، اذهب واعرف بنفسك، ربما كانت راحة البال هناك، حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

ـ طيب. كيف حال ٣٠٨؟

أجاب رقم ١ بإصرار ممزوج ببعض الغضب: قلت لك ذلا تشغل بالك.

قالها ثم استطرد: قل لي، هل تعرف مَن تُدعى خديجة فضل الله؟

أجابه بلهفة: نعم، صديقة توبة.

ثم سأله بلهفة: فيمَ تريدها؟

تجاهل رقم ١ سؤاله ووجَّه إليه سؤالًا آخر عن مكانها.

ـ لا أعرف أين تسكن الآن، في الغالب تزوجت وعاشت هنا في القاهرة، لكن أين؟ الله أعلم. كانت تسكن مع أسرتها في منطقة هنا بالجوار تسمى الدويقة. اسأل عنها هناك.

كان رقم ١ يودّ لو كان مسموحًا له، لكنه تذكّر رسول السماء وتنبيهه بعدم الخوض في أحداث سابقة، فقال وهو يتنهد: هذا فراق بيني وبينك، ولكنه فراق قصير، أنت للموت، أما أنا فادعُ الله أن يوفقني لألحق بك.

ربما طبيعة الحوار بينهما يرفضها العقل الإنساني، لكن الوداع كان إنسانيًا جدًا، إنسانيًا لدرجة تظن منها أنّ ظلّيهما سيبقيان متعانقين للأبد.

طلب رقم ١ من يوسف الرحيل على الفور، فتعجّب الأخير مردّدًا: حالًا؟!

ـ هيّا تحرك.

قال يوسف في توسُّل: ائذن لي بدقيقة واحدة مع توبة.

فَهِم رقم ١ أنّ توبة ترقد أسفل تلك الرمال والحصير، لكنه لم يعلّق، خرج بهدوء ثم أغلق باب الحجرة من ورائه لم يبتعد كثيرًا، لكنه لم يسمع شيئًا غير مألوف، مجرد همهمة أعقبها نواح متوقَّع،

t.me/qurssan

جملة واحدة فقط تبيَّنَها عندما اقترب قليلًا من الباب: «لم ولن أعتبرك يومًا خطيئتي، لقاؤنا في الجنة عما قريب إنْ غُفر لي».

بعد الوداع، رقد رقم ١ أمام عشة زميله منتظرًا شروق الشمس، ليبدأ البحث عن آخر مهامّ الأبدال على الأرض، خديجة هاشم فضل الله..

فلنترك رقم ١ ومهمّته الآن ولنرحل معًا لآخر فصل في حياة زميله. نعرف أنّ الجميع سيستيقظ في الصباح ولن يجدوا يوسف اليمني، لن يعرفوا أنه ليلة رحيله كان يتجاذب أطراف الحديث مع كائن من عالَم آخَر، لن يعرفوا وجهته الجديدة، لن يعرفوا بعظام توبة الراقدة أسفل حصيرته، لن يعرفوا شيئًا بالطبع، وغالبًا سينسون الأمر برُمّته بعد فترة.

بمجرد استقلاله سيارة الأجرة المتجهة إلى الزقازيق، شعر كأنّ بصره قد عاد إليه. قد يكون نور البصيرة الذي نسمع عنه كثيرًا. أحضِر مريضًا بمرض عضال وضَعْ أمامه أملًا في الشفاء، ستجده راكضًا أمامك كالحصان. أحضِر آخر وضَعْ بداخله الحُبّ، سيموت سعيدًا بالتأكيد. أما ذوو الاحتياجات الخاصة فيأتي إليهم الحبّ منقوصًا معطرًا بالشفقة، بينما شفقة الرحمن هي الحب بعينه، ويا له مِن حُب.

كان منتشيًا، يتحرك داخل مقعد السيارة بشكل مستمرّ، لا يعرف كيف سيمضي الباقي من حياته لكنه سعيد، راضٍ، هادئ البال.

وصل إلى الزقازيق وسأل حال عن عزبة الغجر، قالوا له: كما هي يا حاجّ، الغجر لا يتغيرون.

نزل من السيارة الكبوت على مشارف العزبة، ذلك المكان الذي قابل فيه توبة للمرة الأولى، ابتسم رغمًا عنه وتمتم: اشتقتُ إليكِ يا صغيرتي.

لم يكن يعرف بيتًا في العزبة سوى بيت معوض السنيورا، وتوقَّع أن يكون مهجورًا. تطوَّع أحد المارّة بإيصاله إلى هناك، فسأله في الطريق: هل هناك من يعيش بالمنزل؟

ـ لا أظن، صراحةً لا أعرف، العمل يجعلني متابعًا غير جيد لأحوال العزبة.

«لقد تغيَّر الزمن وصار الغجر يمتهنون وظائف حكومية إذًا، غالبًا كانت الحكومة تنتظر شتات عائلة السنيورا بالكامل حتى تهتمّ بأمر الغجر»، قالها يوسف لنفسه.

ـ أهو تحقيق صحفي؟

قالها الرجل بحماس حقيقيّ، فضحك يوسف حتى بانت نواجذه وقال: لو أن فكرتك عن الصحفيين أنهم عميان فلا داعي للذهاب إلى العمل بعد الآن.

ضحك الرجل كما يضحك لنكتة وعاد يقول: عذرًا، العزبة لا يدخلها غرباء سوى الصحفيين.

ـ الحق أني أحببت العزبة من أول نظرة.

t.me/qurssan

قالها ثم ضحك مره أخرى لكن هذه المرة على نفسه، فقال الرجل بتلقائية: عقبى لنا.

كان مزاج يوسف رائقًا طَوال الطريق حتى وصلا إلى البيت. استأذن منه الرجل، فأخذ نفسًا عميقًا ثم دق الباب بقوة قائلًا: يا أهل الدار.

لم يأتِه ردّ. دق الباب عدة مرات حتى جاءه صوت عبلة وهي تهتف: الصبر.

ضحك ضحكة خفيفة وهو يسمع أزيز الباب وقال: أترين أنه يجب أن أصبر أكثر من ذلك؟

صاحت في فرحة لم تشعر بها من قبل: إنك لأنت يوسف.

ساد الصمت برهة واغرورقت عيناها بالدموع، وضعت يدها على فمها كفتاة خجول قائلة بصوت مكتوم: لا أصدق عودتك.

ابتسم في خجل قائلًا: كيف حالك أيها العجوز؟

- العجوز حلمت بك بعد صلاة الفجر، ولقد تحققت رؤياي.

- صرتِ مِن الأولياء إذًا.

- البشر في العشق جميعهم أولياء.

بدأت النسوة في التجمُّع أمام المنزل ينظرن إلى يوسف في فرحة غير مبررة، ربما سعادتهم كانت لسعادة جارتهم، وربما طمعًا

t.me/qurssan

في رؤية مشهد لم يشاهدنه من قبل يجسِّد عودة الغائب. قالت إحداهن: سمعنا الكثير عنك يا يوسف.

ابتسم في حنان محركًا يده، فأفسحن له مجالًا للحركة، أمسكته عبلة من يده ودخلت به إلى بيتها ثم أغلقت الباب بإحكام، أما النسوة فمصمصن شفاههن وهمست واحدة منهن: ملامحه جميلة، مَن كان يصدق؟

أما بالداخل فاحتضنت عبلة يوسف لدقائق وبللت دموعها كتفيه، قال لها: هل تودّين الزواج بأعمى؟

شهقت ثم أخرجت نفسها من بين أحضانه قائلة في دهشة ممزوجة بسعادة غامرة: هل تتكلّم بجد؟!

ـ دون شكَ، لكنني كما ترين، أعمى غير راغب في مُتَع أخرى غير الونَس.

كانت تلميحاته واضحة لكن دون كشف لطبيعته ككائن غير مؤهَّل لممارسة الجنس، فهتفت قائلة: إن كنت أعمى فمَن المبصر إذًا؟ والله إن كنت تزحف على بطنك ـ أعاذك الله ـ لقبِلْتُ، أما الونس فهو مراد العجائز.

قالتها ثم ضحكت في خجل.

ـ قل لي، هل وجدت توبة؟

قال بشكل قاطع: لا.

ـ هل كنت تحبها؟

t.me/qurssan

ـ لن أستطع البقاء هنا معك دون زواج، فعلتها مرة ولن أكررها ثانية.

فهمت أنه لا يريد البوح بما يموج داخل أعماقه، فقالت: عشر دقائق ويصير الطعام جاهزًا.

قالتها ثم أطلقت زغرودة جعلته ينتفض بشكل كوميديّ، ثم زفر باسمًا وهتف: يا للنساء.

في المساء انطلقت عاصفة من الزغاريد المنغمة، وأخذت النسوة والبنات يصفقن ويغنين الأغاني المشهور بها الغجر، وتحزمت أكثر من واحدة للرقص، أما عبلة فكانت تتأمل يوسف بنظرة إعجاب وهو يجلس أمامها بحوش البيت باديًا كفارس عاد إلى داره بعد أن أنهكته الحروب والظلمات.

***

اسمها خديجة هاشم فضل الله، وكان يؤلمها الفراق في ما مضى..

تتذكّر الأيام التي مرت عليها بعد غياب الأحبّة، وتسأل نفسها: كيف أندمج مع روحي الوحيدة بعد الآن؟

الأب متوفى منذ الصغر، الأم والأخ وزوج الأم ماتوا جميعًا ـ كما نعلم ـ بحادثة الزلزال، أما الغضبان فبعد تأكيده لها بأنّ سنوات السجن لن تفرّقهما، لم تعثر له على أثر. حتى صديقتها توبة، تركتها وحيدة بائسة ولم تعُد ـ ولو مرة ـ لزيارتها، حتى باتت

t.me/qurssan

شبه متيقنة من زواجها. بحثت عنها بضراوة في كل مكان، لكنها ـكالعادةـ لم تفلح. كانت تتوق إلى مقابلة أي منهما ـمحمد وتوبةـ وبخاصة الأول، كانت تحبه، وكان بينهما ذكريات سعيدة لم تنسَها، وتركت في نفسها أثرًا لم تكن تتخيله. كانت تردد كل يوم ـدون فائدةـ في خوف: لماذا يؤلمنا الفراق؟

يؤلمنا الفراق لأننا جبناء، نختار التعايش معه لأنه الألطف رغم كل شيء، يؤلمنا الفراق لأن ألمه أقل شدة من مواجهة وضع لا نحبّ به أنفسنا، يؤلمنا الفراق لأن الألم ـرغم شراستهـ أقل حدة من دفن أرواحنا حية.

اسمها خديجة هاشم فضل الله، وباتت لا تخشى الموت..

معارك خاضها الموت زاحفًا حتى حاصر مدينتها لياليَ وأيامًا، مَن يراها يظنّ أنها على وشْك مقابلته رغم كونها لم تبلغ الأربعين بعد. شاخت ملامحها وصار الموت بالنسبة إليها ضيفًا غير مؤذٍ، إنْ زارها فلن تغلق بابها في وجهه. الغريب في الأمر أنه لم يفعل شيئًا حتى بعد استسلامها، يبدو أنه سئم الحرب معها فلجأت هي لإغوائه بالحيَل النفسية، ففضلًا عن التفكير بالانتحار، صارت ترتدي كنزة والدتها ـرحمها اللهـ دائمًا، التي لم تتلفها أنقاض الزلزال. تزور المقابر بشكل دوريّ، وتسأل عن توبة بدار رعاية المسنين بانتظام. لا فائدة، بقي الموت جامدًا كما هو.

t.me/qurssan

بسبب تلك الآثار السلبية وانشغال عقلها بالماضي، لم يتقدم للزواج بها سوى جارها بمساكن الإيواء (أقامتها الحكومة فوق صخرة الدويقة بعد الزلزال ويسمونها تلاتات)، كان أرملَ يريد أمًا وممرضه وتجويفًا رطبًا من لحم ودم لتفريغ شهوته به. رفضت بالطبع، المرأة تتزوج إما بسبب الحب وإما من أجل الراحة المادية، هذا الرجل كان فاقدًا للحافزين، أما العفة فكان هناك حاجز ضخم من الحزن يحول بينها وبين التفكير في الجنس.

بعد أن استقرّت بإحدى شقق «التلاتات»، وضعت خمسة آلاف جنيه (تعويض الحكومة لها عن البيت والأسرة) في البنك وبدأت البحث عن عمل، تذكرت دبلومها التربوي فاستقرّت بها الحال إلى التدريس بإحدى رياض الأطفال المتواضعة.. كانت تقاوم فكرة الانهيار كل يوم، الانهيار الأخلاقي، النفسي، البدني، وحتي الغرائزي، تمسكت بغريزة الانتماء إلى الجماعة أو الونَس لآخر رمَق، تقربت من جارة لها بعد أن كادت تُجَنّ من الوحدة، حاولت أن تجد بها «توبة جديدة» لكن هيهات، كانت جارتها ماكينة للنميمة الوقحة، أما هي فالصداقة بالنسبة إليها ليست كشفًا للأسرار، الصداقة هي ألا تتغير ملامح من يجلس أمامها مهما كانت طبيعة تلك الأسرار.

تلك المقاومة العنيفة أورثتها المرارة، عدم الثقة بالناس والنقمة على الحياة، شيئًا فشيئًا امتدت نقمتها إلى الأطفال المسؤولين منها، أحيانًا كان صوتها يعلو عليهم أو على ذويهم،

وأحيانًا أخرى على أصحاب المكان نفسه. كانت في قرارة نفسها تتوق إلى تمزيق عَلاقتها بالأطفال بعد أن اكتشفت مدى حبها لهم، لم يكن بمقدورها أن تنزع غريزة الأمومة من خلاياها، فأرعبتها فكرة رؤيتهم لثلث اليوم تقريبًا، واستقالت.

العام جرّ عامًا، ستة عشر عامًا عاشتها دون لذة، فهل كانت الحياة موجعة إلى هذا الحد؟

لو استثنينا تلك الساعات التي قضتها على رمال شاطئ الإسكندرية، نستطيع الإجابة بقلب ثابت: نعم، كانت كل أيامها موجعة.

يوم السبت، السادس من سبتمبر عام ٢٠٠٨، الموافق للسادس من رمضان ١٤٢٩ علي سبيل المثال، كان يومًا متفردًا بغرابته في حياتها.. استيقظَت خديجة في الثامنة صباحًا وبدأت يومها ـ كعادتها في الشهر الكريم ـ بالتوجُّه إلى المقابر، مشاعرها كانت مختلفة تلك المرة، لم تقُم بتوزيع الصدقات على الزائرين، وبدا القلق على وجهها الحنطي وهي تتلعثم في تلاوة الفاتحة. تركت نفسها تسقط أرضًا على ركبتها وهي تقول بأسى: أنا تعبت، تعبت جدًا يا الله، كأنّ فوق صدري صخرة ثقيلة، لا هي تسقط ولا أستطع تحريكها. أعلم أنه لا يرضيك حزني، أنا حبيبتك خديجة، على اسم ستِّنا خديجة، هل يرضيك ما أعيشه؟ إن كان يرضيك فلن أعترض.

t.me/qurssan

قالتها ثم استطردت بصوت مُنهَك: إنّ حُبَّهُ في القلب يُهلِكني يا رب.

بسطت يديها في تضرُّع أمامها وأغمضت عينيها ثم أضافت هامسة: لقد زرعت حبَّه في قلبي، وهو كاذب، أم تراه كان مضطرًا؟ بت لا أعرف شيئًا. أعِدني إلى حياتي السابقة، وإن كان الأهل تحت التراب فخذني إليهم أو أزِلْ صخرة الهَمِّ مِن هُنا.

قالتها وهي تضرب بيدها على صدرها، ثم وضعت جبهتها على التراب، وصلَّت على النبي محمد، وأقسمت على الله برحمته أن ينقذها.

عادت خديجة إلى مسكنها لتجده قد اختفى؛ هناك صخرة انشطرت من حافة هضبة الدويقة وانهالت على عشرات المنازل، دمَّر الانهيار الصخري الأول وهو الأكبر ـ حجم القطعة الواحدة كان يماثل حجم بيت صغير ـ أكثر من ١٦٦ مسكنًا، منهم منزلها، ولقي نحو ١٢٠ شخصًا مصرعهم أسفلها، تلا الانهيار الأول عدد من الانهيارات الصخرية الأخرى في الأسابيع التالية للكارثة، مما غيَّر وجه المنطقة إلى الأبد، لكن هذا لا يعنينا الآن، لن نترك خديجة أمام فاجعتها الجديدة لنتكلم عن الإحصائيات. تلك العانس كانت في أزمة حقيقية حقًّا، من النادر أن تجد إنسانًا دُفنت كل ذكرياته تحت الأنقاض، في الغالب لن تجد توثيقًا بالأشخاص أو بالأماكن لأي ذكرى مرَّت بها. للمرة الثانية نستبق الأحداث ونترك تلك السيدة وحيدة.

t.me/qurssan

أين خديجة؟ إنها هناك، تلك الواقفة بين السيدات الباكيات واللاتي صرن -في لحظات- يحملن لقب «أرملة» أو «ثكلى» أو «جثة هامدة». الغريب كان هدوؤها، كانت واقفة في ثبات تراقب حركة الأهالي، الشرطة، الإسعاف، الدفاع المدني، وحتي الغبار، دون أن ترمش. وجدت نفسها تفكر في مشهد مرّ عليه ستة عشر عامًا، عندما أمسك الغضبان يدها بقوة ليجذبها بعيدًا، خوفًا عليها من الحجارة والأعمدة الخرسانية.. فابتسمت.

بعد رفع الأنقاض بحثت عن الكراسة التي كانت تكتب بها الحروف للغضبان فلم تجدها. فجأة ضحكت، ثم قهقهت، نظر إليها الواقفون في عدم اكتراث. من المريب أن تقهقه وقد باتت حياتك حطامًا. اقترب منها أحدهم محاوِلًا تهدئتها، لكنها صرخت في وجهه. على عكس الشائع، فإنَ عدم الاهتمام مؤلم جدًّا لمن يملكون الأمل، أما من انطفأت ذواتهم -مثل خديجة- فأفضل ما يمكن تقديمه لهم هو عدم الاهتمام أو تطهير ذاكراتهم بنيران عاطفة صادقة، لهذا اكتفى جميع الواقفين بالحل الأيسر، أفسحوا لها المجال حتى انسحبت من بينهم وسارت بالاتجاه الآخر، كانوا يتابعونها ولسان حالهم يقول: كيف لنا أن نعيدك إلى الحياة مرة ثانية يا خديجة؟ لديك خمسة آلاف جنيه في البنك، تنفقين من عائدها، ولديك تجربة سابقة مع الكوارث، والأهمّ من ذلك أنك تتذكَرين الماضي وتقهقهين، إذًا لديك مشاعر وذكريات يا خديجة.

نبًا لك، أتريدين من جثة اللا شيء هذا أن يهتمّ بأمر محظوظ مثلك؟ نحن لا شيء يا خديجة، لا شيء، بينما أنت لا شيء مميز.

قابلها في الطريق مئات من اللا شيء ممن لم تُهدَم منازلهم بعد، شعرت بالاغتراب عن العالَم مِن حولها، حتى إنها لم تشعر برجل تبدو هيئته غريبة نوعًا، كان يتبعها حتى ابتعدت عن الأنقاض...

ـ سوف تنقشع الهموم قريبًا يا خديجة.

التفت إلى مصدر الصوت فوجدت رجلًا طويلًا، مهيبًا، عريض المنكبين، أسود الشعر، ذا ملامح جميلة، مد يده لمصافحتها ففعلت إكرامًا لمعرفته باسمها.

سألته: مَن أنت؟

قال بلغة عربية فصحى: غريب عن هذه الأرض، لكنني أعرفك، ولديَّ رساله لك.

قالت بحدّة: ليس لدي بال رائق لقراءة شيء. ثم لماذا تتكلم هكذا؟

رفع حاجبيه العريضين المتناسبين مع صفحة وجهه وبدا مستنكرًا للحظات، وقبل أن يجيب اعتذرت بنبرة متراجعة قائلة: عذرًا، حياتي بعافية هذه الأيام، كل سنة وأنت طيب.

ثم استطردت ببساطة: يخيَّل إليَّ أنني أعرفك أو رأيتك مِن قبل.

t.me/qurssan

قال ضاحكًا: لا أعتقد، هناك الكثير يشبهني.

قارنت بين هيئته ووجوه جيرانها البادية من بعيد فضحكت بدورها قائلة: أنا أيضًا لا أعتقد.

حاولت جاهدة أن تتذكر ملامحه لكنه عاجلها بإخراج ورقة متربة ومهترئة، فسألته مازحة: هل أرسلتَها لي جثة مِن المقابر؟

جاء ردُّه مخيفًا حين قال: بالفعل، لقد ماتت صديقتك توبة، ولكنها أوصتني بأن أُوصِل إليك هذا الدعاء لردّ الغائب.

كانت الصفعات فوق احتمالها هذه المرة، فأخذت تردّد: توبة! توبة ماتت؟! يا حبيبتي، يا حبيبتي، توبة ماتت.

أشاحت بوجهها بعيدًا كي لا يرى دموعها، ثم سألته كأنما تذكرت شيئًا: أنت يوسف؟

- لا.

- إنك تشبهه كثيرًا، هل مات هو الآخر؟

- لا أعرف عنه شيئًا. اقرئي الدعاء بقلب خاشع، وسوف يستجيب الله.

كررت خديجة كأنها تسمع الاسم الأعظم للمرة الأولى: «الله»، ثم نظرت إله في امتنان وقالت في سماحة: أشكرك، على الأقل أستطيع الترحُّم عليها الآن.

ثم استطردت: آسفة، لا أستطيع مضايفتك، فكما ترى، لا أعرف أين سأبيت ليلتي.

ابتسم ولم يعلّق، ثم استأذن في الانصراف. صافحته مودِّعة وهي تقول بنبرة حميمية للمرة الثانية: شكرًا.

تابعته بعينيها حتى اختفى وسط الزحام، وسمعت صوت أذان الظهر، فأمسكت الورقة وقلّبتها عدة مرات ثم ضمّتها إلى صدرها في حُبّ، وشرعت في قراءتها..

أما رقم ١ فانزوى جانبًا بعد أن أدى مهمته على الوجه الأمثل، وقد شغل تفكيره ـ مثلنا تمامًا ـ مستقبل خديجة، وبعد دقائق اتخذ طريق العودة مجددًا إلى المقطم.. فجأة سمع صوت انفجار مكتوم، فتوقف عن السير. نظر المارّة بعضهم إلى بعض وقد توقع الجميع سقوط صخرة أخرى، أما هو فأدرك أن انتقال خديجة إلى عالم الأبدال قد تم بنجاح، فابتسم في راحة بعد أن هدأت سريرته واطمأن قلبه، واستأنف السير مرة ثانية وهو يحلم بلقاء ربِّه بعد العودة إلى عالَم الأبدال سالمًا، وأخذ يردد: لا أحد يأمن مكره إلا بالعمل الصالح.

***

قال ٣٠٨: قُل لي يا سيدي، هل لا يزال أحد غيري في هذا العالَم؟ أجئت لتقتلني؟ أين رقم ١؟ هل قُتل هو الآخر؟ ولماذا لم يعُد رقم ٣٠٩ إلى الآن؟ أم تراه عاد ومات في سلام كمن حالفهم الحظ في السابق؟ منذ وقت قصير قررت الانتحار لكنني جَبُنْتُ، لكن عندما رأيتك أمامي شعرت أنها النهاية وتمنيت أن تقبل توبتي حتى وإن لم أرتكب ذنبًا، فلِمَ لا تقتلني وتريحني من هذا العذاب؟

نظر إليه الرسول طويلًا ثم قال بصوته الرخيم: الملائكة لا يقتلون.

نظر إليه ٣٠٨ في تساؤل مشوب بالحذر، فاقترب الملك أكثر قائلًا في ثبات: إلى الآن لم تعرف مهمّتك. أبشِر، لقد حان الوقت.

تبدلَت ملامح ٣٠٨ بسرعة وصاح في لهفة: كُلّي آذان مصغية.

- أمام كهف رقم ٣٥٠ يعيش واحد من البشر، ذكر، على وشك أن يلتقي بامرأة من نوعه عما قريب.

قال رقم ٣٠٨ وهو يداري غيظه: أمر غريب لم أعرفه من قبل.

حدجه الرسول بنظرة ثاقبة فنظر ٣٠٨ بين قدميه فترة حتى قطع الرسول حبل الصمت قائلًا: مهمّتك أن تعود إلى أصلك.

قطب ٣٠٨ حاجبيه في عدم فهم، فأضاف الرسول: الأبدال هم شياطين تابوا عن أفعال الماضي توبة نصوحًا حقيقية، فوجب على الله حفظهم هنا، لكن شرط التوبة أن يلحقها عمل صالح وإلا فسدت، لهذا صار عليكم الاعتذار لبني البشر.

رفع ٣٠٨ رأسه وكاشفه بما في نفسه قائلًا: لم أتوقع ذلك قَطّ، لكنك تعيدني الآن إلى نقطة الصفر مرة ثانية، أو بالأحرى بداية صراع جديد.

t.me/qurssan

قال الرسول: ومَن الذي أنهى حياة الأبدال بهذا العالَم، ألست أنت مَن فعلها؟

ردَ في يأس: فعلتُها دون قصد. وحتى إنْ أخطأت، ألم يسامحني الله؟

- لا أحد يعلم سواه.
- هذا عقاب إذًا وليست مهمة؟

قال بهدوء كريه: قلت مهمة.

- إن كان الخادع والمخدوع والشرّ والخير يعملان بعلم السماء، فمن أين يأتي الثواب والعقاب؟
- دعنا نرَ مدى تأثيرك ودرجة المقاومة منهما.
- فلْيكُن.

قالها موافقًا ثم أضاف: هكذا تصبح مهمتي أبدية وتختلف عن كل المهامّ السابقة، فمتى تنتهي؟

- الأمر متروك لكم.
- إذًا توبتي السابقة لم تكن ذات قيمة.
- مَن قال؟ تستطيع أن تنهي مهمتك بنجاح مع أول خطأ يرتكبونه.
- وهل تُسمى المهمة وقتها توبةً أم نجاحًا؟
- هي نجاح بالطبع، فنحن نسعى للارتقاء بالسلوك وحسن الخُلق.

- نحن بلا أخطاء أمامك الآن، فلِم لا نتوقف الآن؟
- لأنك لم تنفِّذ مهمَّتك بعد.
- قل لي أيها الرسول، إن كانت عوالمنا تشبه الدوائر، لا نعلم من أين بدأت أو كيف ستنتهي، فما المتعة في ثبات وتكرار الصراع؟ وهل سينتهي الكون عند شعور الرب بالملل؟
- ثبات الحبكة لا يعني أبدًا انتهاء القصص.
- الأمر يتعلق إذًا بخلق صراع وسبل للنجاة منه وما بينهما من لذه المراقبة.
- إنْ أنت أدركت حكمة السماء فالأَوْلى ألّا تعيش كحرف في رواية أبدية.

قالها متهكِّمًا، فآثر ٣٠٨ الصمت وعدم الخوض في أمور لن تنفعه بشيء.

***

قال تعالى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (البقرة: ٣٠).

***

t.me/qurssan

المكان/ عالَم الأبدال- كهف ٣٥٠.

الزمن/ اليوم الأول-١٩ رمضان ١٤٢٩ بتاريخ الأرض.

كلما احتوت الرواية على عناصر التشويق مثل الشخصيات، والأحداث المركبة، وقوة الحبكة، وطبيعة العقدة (الصراع) وعَلاقتها بحياة البطل، ونهاية درامية مناسبة للشخصيات، إلخ، ازدادت المتع الشعورية بها، وأهمّ تلك المتع هو الإيهام بالحقيقة، أي اقتراب الرواية من الواقع الذي يعيشه الإنسان.

ربما كان الإنسان هو أخطر الروايات الربانية، خلقه الله على صورته ووضع به العقل المفكر، الإرادة الحرة، الضمير الحساس، القدرة على التعلّم والتواصل مع الآخرين، إلخ، لكنه -أي الله عز وجل- اختار له أعداءً ثلاثة: النفس، والشيطان، والموت كحقيقة مؤكدة. أما عنوان الرواية فرغم بساطته الظاهرية وهو «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»، فإنّ القليلين جدًّا هم مَن يصِلُون إلى غاية تحقّقه.

نعرف أن الحياة (الرواية) قاسية، وهو ما نعيشه بالفعل، لكن أقسى ما نظنّه والذي نحاول التغافل عنه باستمرار هو أن نكون كلمة أو حتى صفحة من رواية قد لا يرتقي أبطالها لمقابلة كاتبها، حينها سيظهر معنى العبث بين سطورها.

العبث هو فقدان المعنى، العيش بدافع غريزة البقاء وحدها، أن يستوي الخير والشرّ وعدم إدراك قيمة الحزن والسعادة. أخطر

t.me/qurssan

أنواع العبث هو العبث الديني، أو عدم الإيمان بخطاب السماء إلينا.. عقولنا تسأل كل فترة: «هل يكفي أن نعرف ما يجب أن نؤمن به؟ لماذا نحن هنا حقًّا؟ ما المغزى مِن خَلْقنا؟

تجيب أرواحنا ـ المصممة على دعم قصور العقل ـ لتؤكد أن المعنى والمغزى وحتى سبب الخلق كل تُفسَّر بالعاطفة الصادقة، هبة الله لخلقه نجدها في نظرة الامتنان بعينَي الطبيب قبل المريض، فرحة المتصدِّق بالذهاب إلى المحتاج، إيمان المضحِّي بعدم انتظار المقابل، إلخ.

بعد تفتُّح الأنفس كما تتفتح بتلات الزهور على النور، يصبح العقل أكثر هدوءًا وسكينة. ثم يظهر الأعداء الثلاثة من جديد، ينفثون وسواسًا من أسئلة العقل السابقة، وهكذا حتى تخطي الموت والوصول إلى المعرفة الكاملة.

الخلاصة أنّ الأصل في الوجود هو إرادة المنح بيد صادقة. أنت تكتب روايتك الآن، فلا تتعجّل تفسير وجود تلك اليد، ولتعلم أنّ يد الله هي العُليا، وأنّ قوانينه وحقيقة مراقبته لك لا تنفي أبدًا إرادة المنح المذهل بداخله.

هناك فترات وحالات عاشتها كلّ الكائنات العاقلة لم تجد بها مرشدًا إلى سبب الوجود، على سبيل المثال رجل نعرفه حق المعرفة، محمد معوض الظني، الشهير بالغضبان، نحن الوحيدون الذين نملك ذاكرة هذا الرجل، بعد أن نُزعت منه ذاكرته صار طفلًا

يحمل ملامح رجل مكتمل الرجولة، طال شعر رأسه وذقنه وصار يرتدي أوراق الشجر، أَلِفَ حياته التي لم يعُد ينتظر شيئًا منها بعد فترة طويلة، لن نحكي عن معاناته في فَهْم تلك الحياة وكيفية معيشتها، المأكل والمشرب والملبس، وحتى التنفس.

حياة بدائية لم يجد بها شيئًا مغريًا يجذبه أو يخيفه باستثناء هيكل عظميّ لكائن أطول منه قليلًا، نعرف أن الهيكل لواحد من الأبدال، وأنه قُتل بعد معركة صغيرة، لكنه لا يعرف. أدرك فقط أن هناك نهاية لهذا الجسد الذي يعيش بداخله.

ستة عشر عامًا بتوقيت الأرض عاشها وحيدًا، وجد بيتًا أقرب إلى الكهوف فاحتمى به من البرد والحيوانات المفترسة، بيتًا جميلًا لكنه أثار في نفسه التساؤلات عن ماهية قاطنيه من قبله. وجد رسومات، سيوفًا حادّة، كلمات مكتوبة بالعربية لم يفهم منها شيئًا بالطبع، الكثير والكثير من الألغاز التي عمقت الحزن بداخله كأن نهايته محتومة. بعد أن فهم ما فهم وترك ما ترك، بحث عن ونيس له فلم يجد، هكذا اكتفى بالحديث إلى الطيور والحيوانات باللغة السريانية التي وجد نفسه يعرفها، وانتظار رؤى غريبة عن حياته يراها في المنام، فتاة عمياء خائفة، رجل طويل القامة وسيم الملامح ينظر إليه بابتسامة، رجال ونساء يعدون خلف شيء ما. أمّا أكثر ما كان يبهجه هو رؤية فتاة حنطية البشرة تقبّله، كان ينتشي ويجد أثرًا لسائلٍ ما على فخذه بعد استيقاظه.

t.me/qurssan

أمّا السيدة الرقيقة خديجة فكانت أكثر جزعًا منه، قضت الاثني عشر يومًا الأولى لها في عالَم الأبدال في البكاء، والتعجب من حركة الطيور، وتناول ثمار الفاكهة من حين إلى آخر. لم تبتعد كثيرًا عن نقطة وصولها إلا للذهاب إلى النهر لشرب الماء، حيث كانت تنام عارية بالقرب من شجرة ضخمة، لتكتشف أن التنفّس أو سرّ الحياة ليس ببعيد. لم تعرف أنها تتكلم السريانية لأنها لم تتحدث من الأساس، لم تجد عظامًا لأي كائن يشبهها في التكوين، لم تراودها أي رؤى، لم يغلبها حتى الفضول للبحث عمن يسلي أوقاتها.. سيدة رقيقة ـ كما قلنا ـ تنتظر النجدة من السماء العجيبة فوقها، أو من ذلك الكهف البعيد.

كان النهر على الموعد، وقف آدم وحواء العالَم الجديد ينظر كلاهما إلى الآخر، الغضبان كان الأكثر دموعًا، ظلّ يبكي أمامها كثيرًا ويفرك عينيه بشكل مستمرّ للتأكد من وجودها. أمّا هي فانهارت مكانها وأخذت تصرخ من الفرحة، حتى السماء أسقطت مطرًا غزيرًا، احتفالًا بتلك البداية. صحيح أنه لم يتفوّه بحرف واحد، إلا أنّ حركة يده على شعرها طمأنتها. صحيح أنها لم تقابله بهذا العالم من قبل، إلا أنه حين أمسك يدها للعودة معه إلى الكهف لم تعترض. صحيح أن كليهما لم يعرف الآخر، إلا أنّ العاطفة تحرّك الأحداث دائمًا.

t.me/qurssan

لم يغادرا كهفهما إلا بعد حديث طويل، طويل جدًّا، عرفت خديجة بعده أن معلومات محمد لا تفوقها كثيرًا، لم تدهش ولم تصَب بأيّ إحباط، على العكس تمامًا، ضحكت من قلبها ثم انطلقت تعدو وهو مِن خلفها حتى وصلا إلى النهر لاهثَين، كانت هي أول من وضع قدميه بالنهر، شعرت بدغدغة خفيفة بأصابعها فابتسمت، فعل مثلها تمامًا، ثم استلقى كلاهما إلى الخلف وناما قريرَي الأعين. الغريب أنّهما راودتهما نفس الرؤيا، كأنَ السماء تحوَّل شكلها إلى كائن مهيب يشعّ النور من وجهه وله أربعة أجنحة، ينظر إليهما بابتسامة هادئة، وعلى مرمى البصر وقف كائن آخر له جناحان على صفحة الماء دون أن يغرق، كان ينظر إليهما في تربُّص، لم يتبيَّنا ملامحه جيدًا، لكننا عرفناه قديمًا برقم ٣٠٨.

بحمد الله

t.me/qurssan

t.me/qurssan

إلى زوجتي.. كلمة الخيال والختام دومًا..
وما بينهما تكتب رُوحي روايتنا آمنة مطمئنّة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

فهرس

إهداء	٥
الفصل الأول ـ سيرة معوض السنيورا	٩
الفصل الثاني ـ المنبوذان	٨١
الفصل الثالث ـ ولتصنع علي عيني	١٦٧
الفصل الرابع ـ الضريرات تحبين الملابس السوداء	٢٤٩
الفصل الخامس ـ الحيوات تبدأ بثلاثة دائمًا	٣٦٣

t.me/qurssan

توبة نبي العميان

كان وداعنا غريبًا كطفلٍ تبنَّيناه منذ دقائق، حتى الوداع يجب أن يكون من صلبك وإلا سيملؤك الشكُّ من بعده، أمّا هي فكانت تردِّد كل يوم -دون فائدة- في خوف: «لماذا يؤلمنا الفراق؟».

يؤلمنا الفراق لأننا جُبناء، نختار التعايُش معه لأنه الألطف رغم كل شيء. يؤلمنا الفراق لأن ألمه أقلّ شدّة من مواجهة وضعٍ لا نحبّ به أنفسنا. يؤلمنا الفراق لأنّ الألم -رغم شراسته- أقل حدّة من دفْن أرواحنا حيّة.

هذه الرواية ذات جانب مظلم، لن يستطيع أيٌّ من الكاتب أو القارئ استنباطه إلا بهِبَة من الله، أو مقابلته.

عمر عويس

كاتب من مواليد المنصورة، صدرت له مجموعة قصصية بعنوان «٦ ريختر»، التي حصلت على المركز الأوّل في جائزة «إبداع»، وله روايتان بعنوان «ترانيم أوستن»، و«آخر وعود الأخت مارية».

t.me/qurssan

المصري للنشر والتوزيع